سلسلة الرحلة إلى المتقين ٤٠

المسلمون

قوة الوحدة في عالم القوى

تأليف
السيد عبد القادر حسن أحمد الإدريسي

مركز الأبحاث العقائدية

سلسلة الرحلة إلى الثقلين

(٤٠)

المسلمون قوة
الوحدة في عالم القوى

تأليف

عبد القادر الإدريسي السوداني

مركز الأبحاث العقائدية

إيران ـ قم المقدّسة ـ صفائية ـ ممتاز ـ رقم ٣٤
ص . ب : ٣٣٣١ / ٣٧١٨٥
الهاتف : ٧٧٤٢٠٨٨ (٢٥١) (٩٨+)
الفاكس : ٧٧٤٢٠٥٦ (٢٥١) (٩٨+)
العراق ـ النجف الأشرف ـ شارع الرسول صلى الله عليه وآله
شارع السور جنب مكتبة الإمام الحسن عليه السلام
ص ـ ب ٧٢٩
الهاتف: ٣٣٢٦٧٩ (٣٣) (٩٦٤+)
البريد الإلكتروني: info@aqaed.com
الموقع على الإنترنت: www.aqaed.com

شابك (ردمك) :
اسم الكتاب: المسلَمون قوّة الوحدة في عالم القوى
المؤلف: عبد القادر الإدريسي السوداني
طباعة وإخراج: ضياء الخفّاف
الطبعة:
سنة الطبع: ١٤٣٢هـ
المطبعة:
ستارة ـ قم

شابك : ٧ ـ ٨٦ ـ ٥٢١٣ ـ ٦٠٠ ـ ٩٧٨

مركز الأبحاث العقائدية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة المركز

A

الحمد لله ربّ العالمين

والصلاة والسلام على خاتم المرسلين محمّد وآله الغرّ الميامين

من الثوابت المسلّمة في عملية البناء الحضاري القويم، استناد الأُمّة إلى قيمها السليمة ومبادئها الأصيلة، الأمر الذي يمنحها الإرادة الصلبة والعزم الأكيد في التصدّي لمختلف التحدّيات والتهديدات التي تروم نخر كيانها وزلزلة وجودها عبر سلسلة من الأفكار المنحرفة والآثار الضالّة باستخدام أرقى وسائل التقنية الحديثة.

وإن أنصفنا المقام حقّه بعد مزيد من الدقّة والتأمّل، نلحظ أنّ المرجعية الدينية المباركة كانت ولا زالت هي المنبع الأصيل والملاذ المطمئن لقاصدي الحقيقة ومراتبها الرفيعة، كيف؟! وهي التي تعكس تعاليم الدين الحنيف وقيمه المقدّسة المستقاة من مدرسة آل العصمة والطهارة عليهم السلام بأبهى صورها وأجلى مصاديقها.

هذا، وكانت مرجعية سماحة آية الله العظمى السيّد علي الحسيني السيستاني – مدّ ظلّه– هي السبّاقة دوماً في مضمار الذبّ عن حمى العقيدة ومفاهيمها الرصينة، فخطت بذلك خطوات مؤثّرة والتزمت برامج ومشاريع قطفت وستقطف أينع الثمار بحول الله تعالى.

ومركز الأبحاث العقائدية هو واحد من المشاريع المباركة الذي أُسس لأجل نصرة مذهب أهل البيت عليهم السلام وتعاليمه الرفيعة.

ولهذا المركز قسم خاص يهتم بمعتنقي مذهب أهل البيت عليهم السلام على مختلف الجهات، التي منها ترجمة ما تجود به أقلامهم وأفكارهم من نتاجات وآثار - حيث تحكي بوضوح عظمة نعمة الولاء التي منّ الله سبحانه وتعالى بها عليهم - إلى مطبوعات توزّع في شتى أرجاء العالم.

وهذا المؤلَّف - «المسلمون قوّة الوحدة في عالم القوى» - الذي يصدر ضمن «سلسلة الرحلة إلى الثقلين» مصداق حيّ وأثر عملي بارز يؤكّد صحّة هذا المدّعى.

على أنّ الجهود مستمرة في تقديم يد العون والدعم قدر المكنة لكلّ معتنقي المذهب الحقّ بشتى الطرق والأساليب، مضافاً إلى استقراء واستقصاء سيرة الماضين منهم والمعاصرين وتدوينها في «موسوعة من حياة المستبصرين» التي طبع منها عدّة مجلّدات لحدّ الآن، والباقي تحت الطبع وقيد المراجعة والتأليف، سائلين المولى تبارك وتعالى أن يتقبّل هذا القليل بوافر لطفه وعنايته.

ختاماً نتقدّم بجزيل الشكر والتقدير لكلّ من ساهم في إخراج هذا الكتاب من أعضاء مركز الأبحاث العقائدية، ونخصّ بالذكر الأخ الكريم الشيخ حكمت الرحمة، الذي قام بمراجعته واستخراج كافة مصادره، فلله درّهم وعليه أجرهم.

محمّد الحسّون
مركز الأبحاث العقائدية
١٢ صفر١٤٣٢هـ
الصفحة على الإنترنيت:www.aqaed.com
البريد الإلكتروني: infoaqaed.com

الإهداء

إليكِ يا قرّةَ عينِ رسولِ اللهِ.
وقرينةَ وصيِّ رسولِ اللهِ.
وحجّةَ اللهِ على الأئمّةِ الهاديين المهديين أولياءِ اللهِ.

يا سيّدتي ومولاتي يا فاطمةُ
إنّ من أدرك مأساتكِ
فقد عرفَ الإسلامَ المحمّدي الأصيل
أهدي انتصاري لأميرِ المؤمنين عليه السلام.

المقدّمة

نحن اليوم مدعوون أكثر من أيّ وقت مضى إلى إيجاد الوحدة التي لا يمكن من دونها أن يحمل شعب أو أُمّة ما همّ العالم، فليس من الصحيح أن نفكّر في إنقاذ شعبنا دون الشعوب الأُخرى، فالعالم كلّه أصبح بمثابة قرية واحدة، وكلّ جزء منه يؤثّر في سائر الأجزاء شئنا أم أبينا، فليست هناك ظاهرة سياسية أو علمية أو اجتماعية أو.. في بقعة من بقاع العالم إلّا وكان لها تفاعل مع سائر الظواهر، وبناءً على ذلك فإنّنا لا نستطيع أن نفكّر في أن نعمل على إنقاذ أُمّة ما أو شعب أو جماعة إلّا بعد أن ننقذ العالم كلّه.

فعالمنا اليوم يشبه إلى حدّ كبير البحر الذي تتفاعل أمواجه ومياهه وتياراته مع بعضها، فنحن لا نستطيع أن نخلي بقعة صغيرة فقط من هذا البحر الواسع، لأنّنا لا نلبث أن نرى أنّ هناك أمواجاً أُخرى ستأتي لتعيد تلك البقعة إلى سابق عهدها.

وتأسيساً على ذلك لابدّ أن نحمل همّ العالم، وأُمّتنا الإسلامية هي المرشّحة لحمله ؛ هذه الأُمّة ذات الألف مليون إنسان، وذات الامتداد العريض على رقعة واسعة من الأرض، وذات التاريخ الحضاري المجيد، هذه الأمّة لا يمكن لها أن تقوم بدورها المنشود، إلّا إذا اتّحدت.

إنّ هذه الوحدة الكبرى مرهونة بتطبيقنا لكلامه تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ**

أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1].

هذه الوحدة القائمة على أساس التقوى وعلى أساس التمحور حول القرآن، هي الأخطر وهي الأقوى والأمضى من بين أسلحة المسلمين، ولذلك نرى الآخر يعمل دائماً بجدٍّ من أجل مقاومة هذه الوحدة .

إنّهم في السابق جاؤوا بالقوميّات والعنصرية والإقليمية من أجل أن يزرعوا الفرقة بين المسلمين، واليوم نراهم يتجرّؤون أكثر ويحاولون بثّ الفرقة بين المسلمين، وإنّها عمياء لو انتشرت في بلادنا لأحرقت الأخضر واليابس، فعلينا أن نقاوم تلك الفتنة، وأن نُسكت الأصوات الناشزة التي تبثّ هذه الفتنة الطائفية العمياء، وتمهّد الطريق للاستعمار بشتّى ضروبه وألوانه.

من هنا يجدر بنا جميعاً أن ننتبه ؛ لأنّ هناك من يسعى ليزرع الفتن بيننا عبر كلماته وممارساته اليومية. ولنعلم أنّ الفتن لا تصيب الذين ظلموا خاصّة، وإنّما تعمّ فتأخذ البريء بذنب المجرم.

فبالوحدة نستطيع أن نعلن إفلاس الجاهلية الحديثة ونفضح أمرها، وهذه الوحدة لا يمكن أن تتحقّق إلّا بعد أن نتجاوز العقبات المتمثّلة في الإقليمية والعنصرية والطائفية.

---

(١) البقرة (٢): ١٤٣.

تمهيد

إنّ من أخطر ما ابتليت به البشرية هو الصراع بين بعضهم البعض، علماً أن الله سبحانه وتعالى قد أنذر بني آدم بأنّهم عندما يهبطون إلى الأرض سوف يكون بعضهم لبعض عدوّاً، وقد حدث أوّل مظهر من مظاهر الصراع عندما قتل قابيل أخاه هابيل، منذ ذلك الحين استمرّت المعارك الدامية حيناً، والباردة أحياناً أُخرى.

ونحن لو تعمّقنا لوجدنا أنّ مشكلة الصراعات بين بني البشر تمثّل أعمق وأخطر معضلة ابتليت بها البشرية، ويكفينا في هذا المجال أن نلقي نظرة واحدة على ميزانيات التسلّح في هذا العالم، وعلى الحروب التي تبتلع جهود البشرية، والإذاعات والصحف ووسائل الإعلام الأخرى الموظّفة لهذه الحروب، لنعرف مدى عمق هذه المأساة.

وقد أرسل اللهﷻ رسله لكي يُنقذوا البشرية من مآسيها، ويقدّموا إليها الحلول الناجعة والكفيلة بضمان سعادتها، ومن جهة أُخرى فقد بيّنوا الأسس الواضحة والمتينة لإقرار الوحدة بين النّاس، ولعلّنا لا نبالغ إذا قلنا إنّ نصف القرآن الكريم يعالج هذه المشكلة الحادّة في حياة الإنسان، وكلّما استطعنا أن نكون بمنجى عن هذا الداء العضال لهذه المشكلة العميقة الواسعة التي لم نرَ أنّ الإنسان قد استطاع التخلّص منها في حقبة من حقب التاريخ، جاء القرآن

الكريم ليقدّم الحلول الناجعة والحاسمة لها، وهذه الحلول تقوم على أساس أنّ الوحدة لا يمكن أن تُبنى بالمال مضافاً إلى الإعلام، ولا على أساس القوّة مضافة إلى الإعلام، بل تقوم على أساس العقل مضافاً إلى الوحي، فالعقل هو الحجّة الباطنة، أمّا الوحي فهو الذي يثير دفائن العقل، ويفجّر طاقات الفكر، وهو الحجّة الظاهرة لله سبحانه على العباد، والأساس المتين للوحدة.

وهذه البصيرة القرآنية تعني أنّه ليس من حقّ أحد أن يلغي دور الآخرين، فالوحدة لا تعني وحدتي أنا فحسب، بل تعني توحيد الله وحده، واستظلال (الأنا) بظلّ رحمة ربّ العالمين، وبقاءنا جميعاً في ظلّ رحمته الإلهية الواسعة، فالذي ينظّم علاقتي بك هو عقلي وعقلك، والوحي بدوره هو الذي ينظّم عقولنا، ويفجّر طاقات فكرنا.

الاعتصام أساس الوحدة:

إنّ الله سبحانه وتعالى عندما يبيّن أسس الوحدة يقول: ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ**﴾[1].

فما هو حبل الله؟ أهو القومية أو العنصرية أو الديكتاتورية؟ أم هو الإقليم أو الدولة؟ كلا بالطبع، فالحبل الإلهي يعني أنّ الله جلّ وعلا هو ربُّ كلّ شيء، وخالقنا جميعاً، فعلاقة الله بنا، وعلاقته بالآخرين، هي علاقة واحدة ؛ لأنّه هو الذي خلقنا جميعاً ؛ فكلّنا عباد له.

الوحدة لا تعني الإلغاء:

ونحن عندما نقول وندعو إلى الوحدة بين السنّة والشيعة فإنّ هذا لا يعني

---

(١) آل عمران (٣): ١٠٣.

أن يترك السنّي مذهبه، ويترك الشيعي مذهبه، ولا يعني أن يترك أيّ واحد منهم معتقداته وتقاليده، بل يعني إيجاد علاقة الحبّ، ورابطة الإيثار، والتوحيد بين الطائفتين بمعناهما، وهذه الرابطة تمتّنها الآيات القرآنية، وتنمّيها مفاهيم العقل الذي يجلّيه وينمّيه الوحي.

إنّ الله سبحانه وتعالى يقرّر عندما يبيّن لنا المجتمع الإسلامي، أنّ أموال هذا المجتمع يجب أن تكون تحت إشراف القيادة الرسالية، فيقول في هذا المجال: ﴿**لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا من ديارهمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾[1].

وهؤلاء المهاجرون بالمعنيين المادّي والمعنوي هم فقراء ليسوا من أهل البلد الذي هُجّروا إليه ؛ أي أنّ الوحدة بين أبناء الأمّة الإسلامية لابدّ أن تقوم على أساس أنّ أهل البلد يجب أن يهتمّوا بمن يفد إليهم قبل أن يهتمّوا بأنفسهم، وأنْ يهتمّوا بمن هو على عقيدتهم قبل اهتمامهم بأنفسهم، وبناءً على ذلك فإنّ علينا أنْ نهتمّ أوّلاً بالغريب ثمّ القريب، والجار ثمّ الدار.

فلننظر إلى مدى القيمة التي يضفيها القرآن على هذا الإنسان الذي يترك أرضه، فهو لا يحدّد انتماء هؤلاء المهاجرين ؛ لأنّ الهجرة هي بحدّ ذاتها قيّمة، فلابدّ أن نحقّق الوحدة من خلالها، ولابدّ أن نُربّي المجتمع الذي يحبّ الإنسان المهاجر أكثر ممّا يحبّ أرضه، ويقول: إنّ هذا الإنسان غريب ومن بلد بعيد وأنّ فطرتي تدعوني إلى أن أحسن إليه، فإذا ما أحسنت إلى ذلك الغريب الذي لا يمتُّ إليَّ بصلة القربى، لا اللغة ولا الجنس ولا أعرفه نهائياً ولا يعرفني، فإنّني أكون بذلك قد أخلصت العمل لله جلّ جلاله ؛ أي ارتفعت،

---

(١) الحشر (٥٩): ٨.

وتساميت على الاعتبارات المادية إلى مستوى الإيمان الحقّ.

ثمّ من بعد ذلك تأتي الفئة الأخرى التي تمثّل (الأنصار) الذين ذكرهم تعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾[١].

فما هي طبيعة الأنصار يا ترى؟

إنّ في كلّ بلد أنصاراً، ولكلّ أُمّة أنصاراً، وهؤلاء الأنصار لا يدورون حول محورهم وذاتهم، فمن أهمّ الصفات التي يبيّنها القرآن الكريم للأنصار بعد الإيمان أنّه يقول عنهم: ﴿**يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾[٢]، فالأنصار يؤثرون على أنفسهم، ومن المعلوم أنّ القرآن الكريم لا يمدح أحداً لأنّه يأكل كثيراً، أو يبني بيتاً واسعاً، ويتسنّم منصباً مرموقاً، بل يمدحه لأنّه يؤثر على نفسه وإن كان يعاني من العوز والخصاصة، وهذا هو الفلاح المبين، كما يؤكّد على ذلك تعالى في قوله: ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[٣].

فإذا أردنا الفلاح فلابدّ أن نخرج من الذات، ومن هذه الأنا الضيقة، وأن ننظر إلى الحياة برحابتها، وسعة أفقها.

ثمّ يضيف عزّ شأنه قائلاً: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[٤].

---

(١) الحشر (٥٩): ٩.

(٢) الحشر (٥٩): ٩.

(٣) الحشر (٥٩): ٩.

(٤) الحشر (٥٩): ١٠.

وعندما نصل إلى هذا المستوى، وعندما نمتّن ونقوّي أو اصر الوحدة في قلوبنا عبر الحبّ، وانتزاع الغلّ من الصدور، فحينئذ سنكون مؤمنين حقّاً، وسيحبّنا الله تبارك وتعالى، وينعم علينا بنعمة الوحدة التي هي سرّ الانتصار على الأعداء.

هكذا نحقّق الوحدة:

إنّ الوحدة هي أمل المستضعفين، وروح العزّة والكرامة في الأمّة، وهي هيبة للصديق، ورعب للعدو، ونحن اليوم في صراعنا مع العدو الداخلي المتمثّل في قوّة النفاق والضلالة، والعدو الخارجي المتمثّل في الإمبريالية المستكبرة في الأرض، بحاجة للوحدة لأمرين أساسيين:

١- لكي نبثّ الرعب في قلوب الأعداء، ونهزمهم نفسياً قبل أن نحتاج إلى القوّة المادّية.

٢- لكي نمنع العدو من أن يهزمنا من الناحية النفسية.

إنّ طاقات أُمّتنا عظيمة وهائلة، ولا يفصلها عن التقدّم والرقي سوى عقبات نفسية صغيرة هي: انعدام الثّقة بالذات، وقلّة التوكّل على الله، وعدم ثقة بعضنا ببعض. ولذلك فقد تفرّقت الأُمّة واختلفت، وتركت عمود عزّها وهو الوحدة، بعد أن هجرت حبل الله المتين، ونحن اليوم في أمسّ الحاجة إلى الوحدة لكي نعطي للأُمّة أملاً، ومن هنا فإنّ أبرز أهدافنا في الوقت الحاضر هو تحقيق الوحدة على مختلف الصعد.

وهنا من حقّنا أن نتساءل: ما هي شروط الوحدة؟ وكيف نحقّقها في أنفسنا؟

وللجواب على هذا السؤال نقول: إنّ الوحدة شعار، وما أجمله من شعار ؛

ولكي نحقّق هذا الشعار في الواقع العملي فإنّنا بحاجة إلى أن نضحّي من أجله بكلّ غالٍ ونفيس.

صفاء الروح والعقل:

إن من أبرز شروط الوحدة - سواء على مستوى الأفراد والتجمّعات أو على مستوى الدول والأمم - هو صفاء الرّوح والقلب وتزكية النّفس، وأن لا نبتغي من وراء هذه الوحدة ما ينافيها، ولا نفكّر فيها من أجل استغلالها لأهدافنا الذاتية.

والوحدة هي نعمة من الله على المؤمنين، فهو الذي يؤلّف بين قلوبهم، وهو عليم بما في الصدور، وإذا كانت الصدور مريضة، والقلوب عليلة، والبصائر محجوبة، فإنّ الله تعالى سوف لا يهب للإنسان هذه النعمة ؛ فإنّ أردناها فلابدّ من أن نُطهّر أنفسنا، ونُخلّص نياتنا، وأن لا نطلب هذه الوحدة إلّا من أجل الله، ومن أجل تحقيق المصالح الكبرى للأمّة.

فنحن لا نستطيع أن نصبح إخواناً إلّا عندما ننسى الحواجز والفوارق والاختلافات، ونذوب جميعاً في بوتقة الإسلام، فإذا تجسّدت الوحدة في شخص فينبغي على الجميع أن يسيروا على خطّه ؛ لأنّه هو نفسه كان قد ذاب في هذا الخطّ فلم يعد شخصاً، ولم يعد حجماً ضمن حدود أو أُطُر معيّنة حتّى استطاع بقلبه الكبير أن يحتوي كلّ تطلّعات الأُمّة، وإذا تجسّدت الوحدة في هيئة أو مجلس أو أيّ عنوان آخر، فلابدّ للجميع من أن يذوبوا في هذا العنوان.

إنّ الجماهير هي التي تشكّل الهدف الأوّل من تحرّكنا، ونحن نريد أن نعمل في سبيل الله تعالى، ومن أجل إنقاذ الأُمّة، وإذا كان هذا هو الهدف

فعلينا أن نذوب في الجماهير بقدر ما تقتضيه أوامر الخالق.

وعلى كلّ مجموعة قيادية أن تكون عارفة بلغة الجماهير وأحاسيسها ومشاعرها وتطلّعاتها وأهدافها، وبالآلام التي يعانون منها، وهذا هدف آخر من أهداف الوحدة.

وهنا يطرح السؤال التالي نفسه: ترى من المسؤول عن هذه الوحدة؟

إنّ هذه المسؤولية لا تقتصر على العلماء والمثقّفين، فنحن جميعاً مسؤولون عن تحقيقها، والمحافظة عليها، فالله سبحانه وتعالى يخاطب في كتابه الكريم الجميع قائلاً: ﴿ **وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ** ﴾[1].

فعلينا أن لا ننسى في نفس الوقت أنّ الجماهير الإسلامية كلّها مسؤولة بشكل مشترك هي الأخرى عن تحقيق هذه الوحدة، من خلال الالتزام بأوامر القيادة، ومن خلال الابتعاد عن كلّ سلوك من شأنه أن يفرّق الصفوف، ويثير الحزازات، ويؤجّج الاختلافات والفتن، وتجنّب الصّفات الأخلاقية الذميمة التي تقضي على كيان الوحدة مثل سوء الظنّ والغيبة وتوجيه التهم والنميمة وما إلى ذلك.

---

(١) آل عمران (٣): ١٠٣.

الباب الأوّل

مشروع الإسلام للوحدة

مسؤولية الوحدة

دور العلماء:

إنّ منهجيّة الإنسان في التفكير تحدّد - عادة - مستقبل حياته، فمن الأبعاد الأساسية في منهجيّة التفكير هو الفكر اللامسؤول، والثّقافة اللامسؤولة، ذلك لأنّ الفكر على نوعين.

نوع يدفعك نحو تحمّل المسؤولية، ويرفعك إلى مستوى العطاء والتصدّي، وتحمّل الأمانة.

والنوع الآخر من الفكر هو ذلك الذي يكرّس فيك حالة الخمول، والتردّد، والتراجع، ويزودّك بالتبريرات والأعذار، ويضع على قلبك الأغلال والقيود.

ومن هذا المنطلق فإنّ على الإنسان وهو يواجه الأفكار المختلفة في حياته أن يتساءل دوماً: هل هذا الفكر هو فكر مسؤول أم لا؟ وهل هو فكر الثورة أم التبرير؟ فكر التصدّي أم فكر الهزيمة؟

إنّنا - للأسف الشديد - فقدنا إرادتنا أمام المستعمرين، ولذنا بمنهجيّة التبرير التي كلّفتنا الكثير من الهزائم والنكسات، والتي هي في حقيقتها منهجيّة إلقاء المسؤولية على الآخرين والتملّص منها فإذا بالمجتمع مسؤول، والحكومة مسؤولة، والتأريخ مسؤول فكلّ شيء مسؤول ولكنّني أنا الوحيد الذي أعدّ نفسي غير مسؤول.

إنّ هـذا النـوع مـن التفكيـر هـو الـذي جعلنـا نـصل إلـى هـذا المـستوى المتردّي، فلنحاول أن نغيّر من أنفسنا، وأن نقول منذ اليوم: نحن المـسؤولون لا غيرنا، فنحن مركز هذا العالم، وإذا ما غيّرنـا أنفـسنا فـإنّ الله جـلّ وعـلا سـيغيّر واقعنا، وواقع أُمّتنا.

فلنفكّر بهذا الأسلوب ولنرى ماذا سيحدث، ولنبدأ من هذا الوضع القائم، ومن أوضاعنا بالذات.

إنّ منهجية أولئك الذين يتملّصون مـن المـسؤولية هـي منهجيـة التفكيـر الذي يبعث على الخمول، واللامسؤولية، وهـذه المنهجيـة هـي المـسؤولة عـن واقعنا، ونحن إن لم نبادر إلى تغييرها لما كان بإمكاننا أن نفعل شيئاً من هنا هو لابدّ من القول بأنّنا بحاجة إلى الوحدة التي تشبه إلى حدّ كبير الصحّة والعافية في الجسد ؛ إذ العافية لا يمكن أن تصدق على جسم متهاوٍ، وعين عمياء، ويد شلاء، ورجل عرجاء، وهكذا الحال بالنسبة إلى الأُمّة الواحدة ؛ حيث لابـدّ أن تتوافر لديها عشرات الشروط والعوامل لكـي تكـون أُمّـة واحـدة، ذات هـدف واحد، واستراتيجية واحدة، وأُفق وتطلّع واحـد يـسعى بـذمتها أدناهـا، وتكـون كالجسد الواحد.

ونحن كأمّة إسلامية جسمنا يتقطّع مـن أطرافـه، ولكنّنـا لا نتحـسّس، ولا نشعر فترانا منشغلين في التوافه، والشعارات والأسماء، والأوهام.

في الوقت الذي يجب علينا أن نعـود إلـى الوحـدة الحقيقيـة، التـي تعنـي ذلك الصرح المتكامل، وتلك العوامل التي تجعل الأُمّة سـليمة متعافيـة ونقيّـة، أُمّة ليس فيها مكان للغشّ، والاختلاف، والغيبة، والنميمة، أُمّة الفكر المسؤول أساسها وشعارها ومنطلقها.

الوحدة منطلق الوحدة:

إنّ الوحدة تبدأ من إيجاد التكتّلات الإيمانية التي تعني أنّ الإنسان المؤمن لا يعيش إلّا ضمن وحدة وتجمّع كما يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «والزمو السواد الأعظم فإنّ يد الله على الجماعة، وإياكم والفرقة! فإنّ الشاذّ من الناس للشيطان، كما أنّ الشاذّ من الغنم للذئب»[١].

إنّ الوحدة لا يمكن أن تتحقّق برفع شعاراتها، وإنشاء الأشعار، وإلقاء الخطب بشأنها، فالوحدة هي حقيقة لابدّ من أن نوحدها في أنفسنا أوّلاً، فهي بذرة تنبت في قلب المؤمن ثمّ تنمو شيئاً فشيئاً حتّى تصبح دورة وارفة الظّلال عظيمة الثّمار، فهي تبدأ من حسن الظّن بإخواننا المؤمنين، فالّذي يُسيء الظن بإخوته لا يمكنه أن يتحدّ معهم، لأنّ الوحدة تعني أن تُحبّ لأخيك ما تحبُّ لنفسك.

والوحدة تعني أيضاً أن نقول الكلمة الطّيبة كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿**وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ**﴾.

والوحدة تعني بالإضافة إلى ذلك التعاون، كما يؤكّد على ذلك سبحانه في قوله: ﴿ **وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾[٢]، أمّا عندما تكفّ يد التعاون عن إخوانك، وتنطوي على نفسك في زاوية، وتريد أن تعمل لوحدك، فهل هذه الظاهرة تخدم الوحدة، وهل من الصحيح أن نتعوّد على الفردية والانطواء والابتعاد عن السّاحة، وهل مثل هذا المنحى يُنمّي فينا الوحدة؟!

---

(١) نهج البلاغة ٢: ٨، الخطبة : ١٢٧.

(٢) المائدة (٥): ٢.

إنّ من ضمن المعاني الأخرى للوحدة أن نصبر على أذى إخواننا، وأن نفكّر أن يبادر الآخرون إلى إعطائنا من أنفسهم، فمثل هذا التفكير لا يمكن أن يقودنا إلى الاتحاد معهم ذلك، لأنّ الوحدة تعني من ضمن ما تعنيه أنّ يدنا هي العليا في العطاء.

والوحدة تقتضي أيضاً أن نجعل هدفنا واضحاً، وأن نحدّد هذا الهدف منذ البدء، فهل هدفنا هو أن نتخاصم ونتنافس من أجل أن يكون أحدنا أبرز من الآخر في تظاهرة ما، ومن أجل أن تكون أسماؤنا قبل أسماء الآخرين في احتفال ما؟!

ليس ثمّة شك إذا كانت أهدافنا غير واضحة، فإنّ الشيطان سيخلط علينا الأمور، وسيدفعنا إلى طرح الناوين والأسماء المثيرة للحزازات والاختلافات.

فلنتنافس على العمل لا على الشعارات الخاوية، ولنتنافس بمقدار الإنجاز لا بإسلوبه، كما يقول تعالى: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلى اللهِ مَرْجِعُكُمْ**﴾[1].

وعلى هذا فإنّ الوحدة ليست كلمات ولا شعارات، بل هي عمل وتضحية وسعي، وخضوع لبرامج الله، وتحلّ بالأخلاق الحميدة التي أمر الله بها، فالوحدة يجب أن تتمخّض عن تطبيق القرآن الكريم، والقرآن يقول: ﴿**وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾[2]، فهو يأمرنا بالتعاون، وحسن الظّن، وقول الكلمة الطيبة. وهذه الصّفات كلّها هي أسباب الوحدة.

---

(١) المائدة (٥): ٤٨.

(٢) آل عمران (٣): ١٥٩.

وإنّ الإنسان - بطبعه - لا يميل إلى الوحدة، فلو تُرِكَ لشأنه لاختار الفرقة ذلك لأنّ طبائع النّاس وآراءهم وأذواقهم متفرّقة ومتفاوتة، فلكلّ واحد منهم مصلحة وفكرة وطريقة، ثمّ إنّ الأهواء هي مختلفة بذاتها أمّا العامل الأساسي الذي يوحّد فهو الدين والرسالة، والرسالة التي توحّد النّاس لا توحّدهم من خلال الكلمات والشعارات، بل عبر الأشخاص وبالذات علماء الدين لأنّهم المراكز التي تتجلّى فيها بركة الله سبحانه وتعالى، ورسالته الإلهية.

إنّ عالِمَ الدّين يكون في المجتمع محوراً للوحدة، وحبلاً للاعتصام يتمسّك به الجميع، لأنّه متصل بحبل الله الذي يقول عنه ربّنا جلّ وعلا: ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ**﴾[1]، فإذا كان عالم الدين وسيلة للتفرقة، وسبباً للخلاف، ومثاراً للفتن، فإنّ ذلك يعني وجود خلل فيه لا في الدين، ونقص في ثقافته الرساليّة التي لم تترسّخ في نفسه بعد بشكل كامل.

(١)آل عمران (٣): ١٠٣.

الوحدة تحدّي

الوحدة الإسلامية والعوامل المضادّة:

كلّما كانت الأفكار أعمق وأسمى، وكلّما ارتبطت بصميم مشاكل الأُمّة وقضاياها، كلّما كانت لغة الحديث قائمة على أساس الإشارات والتلميحات، حيث تزدحم على الموضوع مواقف مختلفة، وعقبات عديدة تحول دون الإفصاح، وحتّى كتابنا المقدّس (القرآن الكريم) فإنّه يستخدم (الإشارات والرموز) كلغة بينه وبين أوليائه، لأنّ النّاس ليسوا جميعاً في مستوى تلقّي المعارف القرآنية السّامية، وحديثنا - نحن أيضاً - سيكون مستنداً إلى هذه اللغة في جزء منه.

فهم السّنن منفعة للحاضر وهدى للمستقبل:

ونبدأ هذا الحديث بالقول أنّ فهم السنن التي يشير إليها البارئ عزّ وجلّ في قوله: ﴿**فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّـهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّـهِ تَحْوِيلًا**﴾[1]، يشكّل منفعة لحاضرنا وهدى لمستقبلنا، فما تراجعت أُمّة عرفت سنن الله تعالى، وتعاملت معها تعاملاً حسناً، وما تقدّمت أُمّة تولّت عن هذه السّنن وجهلتها أو تجاهلتها.

والعوامل التي تسبّبت اليوم في بثّ الفرقة بين المسلمين هي ذاتها التي كانت وراء اختلافاتهم في الماضي، والدواعي التي تفرّق بين أمّة وأخرى،

---

(١) فاطر (٣٥): ٤٣.

وبين أشياع مذهب وآخر، هي نفسها التي تُفرّق بيننا كأفراد وجماعات وأحزاب وخطوط.

والمهم أن نبحث في التأريخ لنلتقط تلك السّنن العامة التي تعيننا على معرفة التأريخ، وبالتالي تنفعنا في طريق التخطيط للمستقبل.

وفي الواقع فإنّ أعظم نقمة ينزلها الخالق على البشر هي سلبهم هداه، وعلى سبيل المثال فإنّ سورة الحمد التي هي أعظم سورة في القرآن نجد أنّ آياتها السبع تتمحور حول أعظم وأهم آية وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿**اهدِنَا الصِّرَاط المُستَقِيمَ**﴾[1] ؛ أي أنّها تتمحور حول مسألة (الهدى) التي لو كانت هناك نعمة أفضل منها لبحث الإنسان عنها، بل ولأمر الله بالبحث عنها.

(١) الفاتحة (١): ٦.

العوامل الأساسية للوحدة

لقد عاش البشر منذ بدء ظهوره على هذه الأرض فرداً وحيداً كما هو شأن سائر الأحياء، ولكن بفضل الله سبحانه وتعالى حصّل للبشرية تقدّم حضاري فتكونّت الأسرة، ثمّ تكوّنت القبيلة، ثمّ الدّولة، وبالرغم من هذا التقدّم المضطرد ما يزال الإنسان يعيش منذ عهد بعيد وإلى اليوم مرحلة سابقة لمرحلة (الوحدة المبدئية)، وما يزال يعيش حالة الطفولة فيما يرتبط بتلك الوحدة.

وبناءً على ذلك فإنّنا بحاجة إلى أن نرفع مستوى الوعي لدى البشرية لتصل إلى مستوى الوحدة على أساس المبدأ، فالقرآن الكريم إنّما نزل من أجل خلق هذا المستوى، والنبي الأعظمﷺ والأئمّة من بعده سعوا بكلّ ما في وسعهم من أجل توحيد هذه الأُمّة، والحيلولة دون تمزّقها وتفرّقها.

ومع ذلك فإنّ الإنسان لم يعِ هذه الضرورة (ضرورة الوحدة)، وكان يهيمن عليه التفكير السلبي المتخلّف ممّا أوحى إليه إذا أراد أن يحيا حياةً حرّةً كريمةً فما عليه إلّا أن يدع الآخرين يعيشون مثلما يعيش هو، فإذا بالمصالح تتقولب حسب الآراء المختلفة؟!

إنّ الاختلاف في الرأي سيبقى ما دام الاختلاف في المستويات لدى الإنسان قائماً، فكما أنّ أصابع اليد الواحدة لا يمكن أن تتساوى وتتماثل، فإنّ البشر أيضاً لا يمكن أن يولدوا بمستوى واحد من العلم والفهم والوعي، لأنّ التنوّع يمثّل طبيعة بشرية.

وعلى هذا فإنّ كلّ شيء يتغيّر ويختلف عند الإنسان، وهذا الاختلاف إنّما تمليه عليه غريزة حبّ التنوّع والتي تتغيّر بدورها تبعاً لنموّه، وحسب الظروف المحيط به، وطبقاً لمعلوماته وإراداته وأهوائه وعشرات العوامل المؤثّرة فيه .

إنّ المشكلة القائمة اليوم لا تكمن في الاختلاف ذاته، أو الاختلاف المبدئي والفكري، وليست كامنة في الاستراتيجية والرؤية، ولكن في طريقة التعامل مع هذا الاختلاف الأمر الذي أدّى تلقائياً إلى حدوث التفرقة والتفكّك والتناحر.

وعلى سبيل المثال فقد نجد في الأسرة الواحدة اختلافاً، ولكن طريقة التعامل مع هذا الاختلاف تتباين من أسرة إلى أخرى فمنهم من يفضّه بالطلاق، ومنهم من يفضّه بالمشاجرات، ومنهم من يحلّه من خلال التفاوض... وبصورة عامة فإنّ كلّ أسرة من تلك الأسر تحلّ الاختلاف بطريقتها المفضّلة.

وهكذا كان حال البشرية التي كانت كثيراً ما تتوسّل بالحروب لتحلّ خلافاتها، وللأسف فإنّ الجاهلية ما زالت متأصّلة بالبشرية حيث تنفق اليوم آلاف الملايين من الدولارات على صناعة الأسلحة، وحتّى إذا فرضنا أنّ البشرية لا تريد استخدام هذه الأسلحة الفتّاكة إلّا أنّ صناعتها تمتصّ الخيرات والثروات كلّها، حيث نرى الفقر المدقع منتشراً في جميع أرجاء العالم وخصوصاً في بلدان العالم الثالث؟!

اغتيال الشخصيات:

إنّ البشرية كانت وما زالت بحاجة إلى نموّ فكري لكي تتجاوز مرحلة حلّ الخلافات بالسلاح، ونحن قد نستطيع أن نحمد الله تعالى على اجتياز هذه

المرحلة، فربّما لا نستخدم السّلاح ضد بعضنا البعض في حلّ الخلافات، ولكن تجاوز هذه المرحلة ليس كافياً لأنّنا قد ندخل في مرحلة أخطر ألا وهي مرحلة اغتيال الشخصيات.

فإذا عمل كلّ واحد منّا لوحده، وبدأ يغتال شخصيات الآخرين من خلال اغتيابهم، وتوجيه التهم إليهم ؛ فإنّما هو يرتكب ذنوباً كبيرة لا يحقّ له استصغارها كما قال تعالى: ﴿**وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ**﴾[١]، فسبّ الآخرين واغتيابهم والتحدّث عنهم بما لا يليق كلّ ذلك وغيره إنّما هو اغتيال لهم أشدّ خطراً من القتل المادي نفسه.

وعندما ينتشر مثل هذا الأسلوب بين أوساط الأُمّة فإنّ الله جلّ وعلا سيعذّبها، ويسلّط عليهم حاكماً يسومها سوء العذاب وكما تؤكّد ذلك الآية القرآنية التالية: ﴿**وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا**﴾[٢]، أي: أنّ الله سبحانه يجعل الظالمين يحكم بعضهم بعضاً لأنّهم ظلموا أنفسهم بأنفسهم، واختاروا مثل هذا النّظام، ولم يكونوا أهلاً للدولة الإسلامية، وللنّظام الإسلامي العادل، وكما يؤكّد ذلك الحديث القدسي الشريف: «الظالم سيفي انتقم به وانتقم منه»[٣].

وعلى هذا فلكي لا يسلّط الله الظالمين علينا يجب أن نطهّر أنفسنا، ونزكيّها من الآن، وأمّا الخلافات فيجب أن تبقى في حدود التسابق إلى الخيرات: ﴿**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾[٤].

---

(١) النور (٢٤): ١٥.
(٢) الأنعام (٦): ١٢٩.
(٣) الشفاء الروحي: ٨٦
(٤) المائدة (٥): ٤٨.

عوامل بقاء الصراع:

والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح في هذا المجال هو : لماذا بقيت الصراعات بين المسلمين؟ أو بالأحرى الفئات المؤمنة.

وسنحاول أن نلخّص الجواب على السّؤال السّابق بذكر العوامل التالية:

(١)- غياب الرؤية:

فالإنسان المسلم لم يعِ أنّ المطلوب منه أن يكون في مستوى التحدّيات.

(٢)- قوى الاستكبار:

إنّ القوى السياسية التي كانت موجودة في السابق، والتي تريد إبقاء وتكريس الخلافات، والمؤمنة بمبدأ (فَرّقْ تَسْدْ) ما تزال موجودة حتّى الآن ؛ وهذا ما يمكن أن يفهمه، ويلمسه كلّ فرد واع، فالإنسان الذي لا يملك وعياً ليس له الحقّ في ممارسة أيّ دورٍ في الحياة، لأنّ مَثَلهُ كمَثَلِ الذي لا يرى والذي يقع دائماً في مختلف المطبّات، وهكذا الحال بالنسبة إلى الأُمّة التي تعيش مرحلة الجهل، وتجهل العلم وأهمّيته وأهمّية العلماء العاملين في سبيل هذه الأُمّة، فإنّها هي الأُخرى لا حقّ لها في الحياة.

ومما يجب أن نعيه أنّ مؤامرات الأعداء المكشوفة هي دليل دامغ على وجود تلك القوى السياسية المخرّبة، فالأعداء المستعمرون لا يقولون للشعب صراحة إنّهم يريدون أن يقودوهم، وإنّما يستخدمون شتّى الأساليب والوسائل للقضاء عليه.

وهكذا فعلى كلّ واحد منّا أن يكون في وعي كامل لكلّ ما يجري علينا، فالأساليب الخبيثة تتطوّر شيئاً فشيئاً حتّى تتحوّل إلى مؤامرة، ولذلك يجب أن

نكون حذرين فلا نصدّق كلّ ما يُقال ويّلفّق حول هذه الجماعة أو تلك لأنّ كلامهم يلقى هوى في نفوسنا، أو لأنّنا لا نحبّ تلك الجماعة، فهذا لا يجوز حتّى بالنسبة إلى عدوّنا إلّا إذا كانت التهمة ثابتة وصحيحة وإلّا فإنّنا سنتورّط في الجهالة فنصبح على ما فعلنا نادمين.

فهناك العشرات من الكتب تسود بين الفينة والأخرى، وتنشر بين المسلمين، وتحاول إثارة الفتن، ولذلك يجدر بنا أن نكون في مستوى التحدّي والتصدّي لها، وأن نتبع هدى القرآن، ونعتصم بالله تعالى وبرسوله وبالقيادة الإسلامية التي تنتهج نهج رسول الله صلى الله عليه وآله، وتتقي الله حقّ تقاته، علماً أنّ التقوى لا يمكن أن تجدي نفعاً إلّا إذا استمرّت في نفس الإنسان حتّى الممات، فالقرآن الكريم يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾[1].

فالتقوى يجب أن تشمل جميع مرافق الحياة، ولذلك يأمرنا القرآن بالاعتصام بحبل الله وهو (التّقوى) ومن يجسّد القرآن في الواقع: ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾[2]، فالهداية هي رأس كلّ خير، وقمّة كلّ فضيلة.

ممارسة الإصلاح:

ومن أجل أن نحافظ على الوحدة لابدّ أن يقوم كلّ واحد منّا بدور

---

(١) آل عمران (٣): ١٠٢.

(٢) آل عمران (٣): ١٠٣.

المصلح، وليحاول أن يقوم بدوره الّذي كلّفه الله سبحانه به، كما يؤكّد على ذلك في قوله الكريم: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[1].

فيجب - إذن - أن نقوم بدور الإصلاح سواء خسرنا أم ربحنا، فليس من الصحيح أن نعطّل دور الإصلاح فنقول: نحن بانتظار نمو القوّة السياسية الفلانية لنكون معها، لأنّ الحسابات السياسية عادة منا تكون فاشلة، فروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال لبعض أصحابه : «كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو فإنّ موسى بن عمران عليه السلام خرج ليقتبس لأهله ناراً فرجع إليهم وهو رسول نبيّ فأصلح الله تبارك وتعالى أمر عبده ونبيه موسى في ليلة...» [2].

لنحاول أن لا نكون ممّن يصطادون في الماء العكر، ويحبّون الصعود مع القوى السياسية الصاعدة فنكون انتهازيين، ولنسع من أجل أن نكون مصلحين، ونبحث عن الحقّ أنّي كان.

فأولئك الذين يدخلون في الصّراعات، ويتحوّلون إلى وقود لها سوف يعذّبون في الدّنيا والآخرة، حيث يقول الله سبحانه وتعالى عنهم: ﴿ **وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[3].

التفرّق في الدّين عقبة الوحدة:

هناك حقيقة لو وعيناها لوعينا من العلم شيئاً كثيراً، ألا وهي أنّ المسافة بيننا وبين ما يدعونا إليه القرآن الكريم ما يزال مسافة شاسعة، وأنّ علينا أن

---

(١) آل عمران (٣) ١٠٤.

(٢) بحار الأنوار ١٣: ٤٢، وروي في الكافي بمضمونه تارة عن الإمام الصادق عليه السلام وأخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام، الكافي ٥: ٨٣ الحديث ٢ و٣ باب ((الرزق من حيث لا يحتسب)).

(٣) آل عمران (٣): ١٠٥.

نسعى سعياً حثيثاً وجذرياً ودؤباً لعلّنا نصل إلى ما يدعونا إليه القرآن.

ترى أين نحن، وأين ذلك المستوى الأسمى الذي يأمرنا القرآن الكريم أن نرقى إليه؟ إنّ هناك مقياساً لا مناص لنا من أن نعود إليه لكي نعرف أنفسنا، وهل نحن كما نتمنّى وكما ندّعي، أم أنّ واقعنا يختلف بشكل جذري عمّا نحلم به؟

إنّه القرآن الكريم، فلنعرض أنفسنا عليه، ولنسأل أنفسنا: هل نحن في مستوى ما يدعونا إليه القرآن أم لا؟

إنّ القرآن يدعونا إلى أن يكون وعينا بالسّاعة وعياً حاضراً لا يغيب عنّا لحظة واحدة، ويدعونا إلى أن تكون عقيدتنا بالله تعالى خالصة من كلّ شائبة، وأن لا نعتقد بأنّ هناك من يؤثّر في حياتنا سوى الله، وبالتالي فإنّ كلّ شيء يعود إليه . كما ويدعونا القرآن الكريم إلى أن يكون خوفنا ورجاؤنا وأملنا وثقتنا بالله سبحانه وتعالى، وأن يكون المقياس الذي نرجع إليه هو الدّين، وبالتالي أن يكون المعيار واحداً، وأن لا نتفرّق في الدّين لأنّه واحد، وجميعنا نتبعه، فلماذا التفرّق إذاً؟

إنّ هذا التفرّق الموجود فيما بيننا لهو دليل على أنّ بيننا وبين الدّين فواصل ؛ أي أنّنا لسنا مع الدّين كلّه، بل معه ومع أهوائنا في نفس الوقت، فقد خلطنا الدّين بالأهواء، ولذلك يقول تعالى في سورة الشورى مذكّراً إيّانا بهذه الحقيقة: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا**﴾[1].

---

(١) الشورى (٤٢): ١٣.

فالذي يريد أن يحقّق هدفاً عظيماً مثل إقامة الدّين وإقامة حكم الله في الأرض لابدّ أن يدفع ثمن هذا الهدف العظيم.

فعندما تدعوك نفسك إلى مخالفة صاحبك تساءل في نفسك : هل من الصحيح أن أضحّي بهدفي العظيم الذي هو إقامة الدّين في الحياة، وإنقاذ النّاس من الضّلالة، من أجل أن أشبع غرور نفسي ورياءها، وأتحدّى صاحبي؟

ونحن نرى في بعض الأحيان أنّ هناك أعمالاً تصل إلى مستوى إسقاط الطاغوت من بعد العلم كما يقول سبحانه: ﴿ **وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ** ﴾[1]، فالإنسان الذي يريد أن يوحّد نفسه فإنّ بإمكانه ذلك، ولكنّه لا يريد لأنّه يبحث عن البغي.

طبيعة عدوانية:

والمشكلة الرئيسية التي يعاني منها الإنسان إجمالاً هي الإنسان يريد أن يسرق جهود غيره ؛ فروحه تدعوه دوماً إلى العدوان على الآخرين، ولذلك نجد أنّ أكثر أسباب التفرّق تبع من هذه الطبيعة البشرية غير المهذّبة، فإذا رضي كلّ إنسان بما يعمله وينتجه لما حدثت مشكلة في العالم، ولكن كلّ واحد يريد أن يأخذ من الآخرين زيادة على ما يمتلكه، فكل إنسان يتصوّر أنّه أعلى وأسمى من الآخرين، وكلّ واحد يظن أنّ حقوقه أكثر من الآخرين، وأنه يستحقّ أكثر مما يعطى له، وهنا يستغلّ الشيطان هذه الثغرة في نفس الإنسان ليُوسوس، وليُوحي إليه أنّه من المفترض أن يحتلّ المنزلة الفلانية، وأن حقّه مهضوم، وأنّ الآخرين لا يقدّرونه حق تقديره، في حين أنّ هذا التصوّر مغلوط من الأساس، لأنّ الإنسان لا يستطيع أن يقيم نفسه حسب ما

(١) الشورى (٤٢): ١٤.

يشاء.

أمّا إذا سادت الحالة المعاكسة في نفس الإنسان، فإنّه سيستشعر التقصير دائماً في نفسه، ويتّهم ذاته، ويشعر أنّه لم يصل إلى المستوى المطلوب من العطاء والتضحية، وفي هذه الحالة فإنّ مسيرتنا ستكون في حالة تقدّم مستمرّ، لأنّنا نطالب بأقلّ مما نعطي، ونستهلك أقلّ مما ننتج، فالتقدّم سيكون في هذه الحالة أكثر، فعندما يكون الإنتاج ذا مستوى أعلى، والعمل في المستوى المطلوب، فإنّنا سنرى أنفسنا أنّنا في حالة تقدّم، أمّا إذا اعتدنا أن ننتج يومياً رغيفاً من الخبز في حين نطالب بثلاثة أرغفة، فإنّ النتيجة ستكون أنّ الواحد منها سيعمد إلى السرقة من الآخرين، وبالتالي سوف لا نحصل على شيء سوى التخلّف والتمزّق والانهيار، فلا يحبّنا أحد لا في السّماء ولا في الأرض، ونخسر الدّنيا والآخرة.

الإيمان جوهرة عظمى:

وبناءً على ذلك فإنّ الجوهرة العظمى هي جوهرة الإيمان، فلنحرص على أن لا تضيع من أيدينا، وحتّى إذا حصلنا على ملك الدّنيا، فما فائدة هذا الملك إذا فقدنا الإيمان.؟

فلنستغلّ الفرص، ولننبذ جانباً الأفكار الشيطانية، ولنطهّر أنفسنا ممّا يؤدّي إلى تفرّقنا، ولنتوحّد تحت راية الدين حينئذ من حقّنا أن ننتظر رحمة الله تبارك وتعالى، والنصر الإلهي، فالنصر عندما يأتي من الله فإنّه يأتي نصراً مؤزراً، لأنّه قائم على أساس ظاهر نزيه، وقائم على أساس عدم التضحية بديننا وأخلاقنا ومبادئنا، فهو نصر حقيقي من النّوع الذي يحبّه الله تعالى ويريده لعباده المؤمنين في الدّنيا حيث ستكون العاقبة لهم، وسينصرهم الخالق نصراً عزيزاً على أعداء الدين والرسالة ليقيموا حكمه في ربوع الأرض.

الإعداد لتحقيق الوحدة:

إنّ الوحدة هي قوّة لابدّ أن نعدّها لساعة المواجهة في برنامج طويل علينا أن نجهد أنفسنا من أجل تطبيعه، فالوحدة تمثّل بناء متكاملاً لابدّ أن نضع لبناته الواحدة فوق الأخرى، فهي تبدأ من الأفراد، ثمّ المجاميع الصغيرة حتّى تبلغ ذروتها على نطاق الأمّة الإسلامية، وهذا البناء المتكامل لا يمكن أن يشيّد مرّة واحدة، بل بشكل تدريجي، وبعد أن يجهد العاملون أنفسهم في وضع أحجاره ولبناته فوق بعضها، والوحدة لا يمكن أن تتحقّق عندما يتبع البعض أفكاراً غريبة عن الأمّة، وإنّما تتمّ إذا كان مصدر التوجيه واحداً، ولذلك يؤكّد القرآن الكريم هذه الحقيقة قائلاً: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ**﴾[1]، فعندما يطيع المؤمنون فريقاً من الذين أوتوا الكتاب فإنّ وحدتهم سوف يعتريها الضعف والنقص، لأنّ هؤلاء لا يستهدفون تقوية الكيان الإسلامي، بل تقويضه وهدمه.

وبالإضافة إلى ذلك فإنّ الوحدة لا تتمّ إلّا بعد إيجاد قيمتين متفاعلتين في الأُمّة وهما : قيمة الرّسالة، وقيمة الرسول.

فالرسول أو الإمام هو الذي يجسّد المنهج، ويكون مَثَلاً حياً له، وهو وليّ الأمر، ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ **وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ** ﴾[2].

وهذان هما الثقلان اللذان أوصى بهما النبيﷺ في اللحظات الأخيرة من حياته قائلاً: «إنّي تارك فيكم الثقلين ما إنْ تمسّكتم بهما لن تضلوا بعدي

---

(١) آل عمران (٣): ١٠٠.

(٢) آل عمران (٣): ١٠١.

كتاب الله وعترتي أهل بيتي...» [١].

إنّ اللهﷻ هو الذي أنزل الآيات، وبعث الرسول ؛ فهو بالتالي المحور الذي يلتفّ حوله، وعندما يذكّرنا القرآن بضرورة الاعتصام بحبل الله فإنّ هذا يعني التمسّك بكتاب الله، واتّباع رسوله.

الاستقامة أداة الوحدة:

ومن أركان الوحدة الاستقامة والثبات على المبدأ، وإلّا فإنّنا سوف لا نستطيع أن نبني كياناً مستقلاً موحّداً، كما أنّ الآخرين سوف لا يعود بإمكانهم أن يعتمدوا علينا، لأنّنا في هذه الحالة سنتحوّل إلى أشخاص مهزوزين، ففي لحظة واحدة من الممكن أن ننقلّب على أعقابنا، وهذا ما يهدّد الوحدة الإسلامية.

ولذلك نرى أنّ السياق القرآني الكريم يذكرنا عند حديثه عن الوحدة بهذه الحقيقة فيقول: ﴿**أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [٢].

فالاستقامة هي التي تجعل عاقبة الإنسان إلى خير، وهي التي تجعله لا يخشى الموت، كما يقول الإمام عليعليه السلام: «والله ما يبالي ابن أبي طالب أوقع

---

(١) بحار الأنوار ٢: ١٠٠، وحديث الثقلين من الأحاديث المتواترة بين الفريقين على اختلاف لفظه نذكر بعض المصادر عن طريق أهل السنة:
مسند أحمد ٣: ١٤ وج٤، ص٣٧١، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٤٨، مجمع الزوائد ٩: ١٦٣، المصنف لابن أبي شيبة ٧: ١٧٦، كتاب السنة لعمرو بن أبي عاصم: ٦٢٩، الحديث١٥٥١ و١٥٥٤، مسند أبي يعلي ٢: ٣٣٠ الحديث١٠٢٧، المعجم الأوسط للطبراني ٣: ٣٧٤، وج٤، ص٣٣، المعجم الصغير للطبراني ١: ١٣١ وج٥، ص١٥٤ وص١٦٦ و١٧٠ و١٨٦، الفوائد المنتقاة: ٧٤، كنز العمال ١: ١٧٨ و...

(٢) آل عمران (٣): ١٠٢.

على الموت، أم وقع الموت عليه»[١]، أمّا الإنسان الذي يتردّد، ويكون له في كلّ يوم شأن فإنّه إنسان متعلّق بالدنيا، وهو يخشى على نفسه من الموت.

ومن أجل تكريس الوحدة والمحافظة عليها وبقائها، لابدّ أن يكون هناك تجمّع من المؤمنين الصالحين الذين يشبهون إلى حد بعيد الهيكل الحديدي الذي يدعم بناء الأُمّة، ويحول دون انهيارها ؛ هؤلاء المؤمنون يمثّلون التجمّع الطليعي، والتنظيم القيادي، والمجموعة التي نذرت نفسها في سبيل الله تعالى، وهم الصنف الأوّل الذي يشير إليه أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «الناسُ ثلاثةٌ: عالمٌ ربّانيّ، ومتعلّمٌ على سبيل نجاةٍ، وهمج رعاع»[٢].

وهذا التجمّع القوي في داخل الأُمّة يمثّل في الواقع قدرة الأُمّة على المقاومة، فكلّما ضعفت نية أو خارت عزيمة بادر هذا التجمّع إلى تدارك ذلك بالنصيحة والتوجيه والعمل والتحريض، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التجمّع في قوله: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[٣].

ولا يغيب عنّا أنّ هذه الوحدة لا يمكن لها أن ترى النور من دون تضحيات، فالواجب علينا أن نخرج من أنانياتنا، ونضحّي بمصالحنا، بل وحتّى بمستقبلنا من أجل مصلحة المجموع، فأيّ بناء لابدّ أن يقوم على أساس رصين، والتضحيات هي هذا الأساس.

عقبات في الطريق:

ونحن - كأُمّة - عشنا إلى الآن ألواناً من التفرقة، فهناك تفرقة طائفية

---

(١) الأمالي للشيخ الصدوق: ١٧٢، الحديث٩، المجلسي٢٣.
(٢) الأمالي للشيخ المفيد: ٢٤٧، الحديث٣، المجلسي٢٩.
(٣) آل عمران (٣) : ١٠٤.

كانت وما زالت مستمرّة، وهناك تفرقة عنصرية، وإقليمية، وعشائرية... بل إنّ الخلاف كان - للأسف الشديد - أصلاً في بلادنا.

ونحن الآن نريد أن نتّجه إلى الوحدة، ولابدّ أن تعترضنا الحواجز التي إذا لم نستعدّ لتجاوزها فإنّها سوف لا تدعنا نصل إلى أهدافنا، ومن هذه العقبات والحواجز الرئيسية العادات والتقاليد، وهذه العقبة لو أردنا أن نتجاوزها فإنّ هناك من يدافع عنها، ويقف في وجهنا، وفي هذا الطريق لابدّ أن نكون صلبي الإيمان، لا نخاف في الله تبارك وتعالى لومة لائم كي يكون بإمكاننا تجاوز هذه العقبة.

أمّا العقبة الأخرى التي تقف حاجزاً أمامنا في طريق الوحدة فهي عقبة المتاجرة بالدّين الذي قد يتّخذ وسيلة للتفريق على أسس مختلفة، وبأساليب عديدة.

وهناك عقبة ثالثة نجدها في الاختلافات الجزئية الهامشية التي يحاول البعض إثارتها كالتفريق بين مراجع التقليد، والتعصّب لعالم دون آخر، في حين أنّ الإسلام هو الأصل، وأنّ التقليد إنّما هو طريق إلى الإسلام، فنحن قد عرفنا الله جلّ وعلا أوّلاً، ومن ثمّ عرفنا رسوله وولاة أمره وقادة شريعتنا، وبذلك عرفنا ديننا، ومن خلال معرفتنا به استطعنا أن نقيّم الرجال، فعرفناهم بالحقّ الذي عرفناه، وإذا ما عكسنا الأمر فعرفنا الحقّ بالرجال فإنّنا سنكون قد سلكنا طريق الضلال والتفرقة، فالحقّ هو الأصل، وهو المقياس، ونحن نستطيع أن نعرف مدى صلاح الرجال، أو انحرافهم، بمقدار قربهم، أو بعدهم عن محور الحق.

والعقبة الأخرى التي تقف حاجزاً أمامنا هي العقبات الشخصية، فهناك

بيننا حجب لابدّ أن نمتلك الشّجاعة الكافية من أجل اختراقها وإلّا فإنّ كلّ واحد منّا سيعيش فرداً.

إنّ الإنانيّات والذاتيّات والعصبيّات ليست من الإسلام، فلا يمكن أن يغنينا عن الله شيئاً أن ننتمي إلى الحزب أو التنظيم الفلاني، بل إنّ بالسعي، والفرق بين من يسعى وبين من يتمنّى يكمن في الإعداد لساعة المواجهة، ومن أبرز أنواع الإعداد تركيز الجهود وتكثيفها من خلال الوحدة.

إنّ الوحدة تمثّل بناءً متكاملاً لابدّ أن نبنيه لبنةً بعد أُخرى، ومن أهمّ واجباتنا اليوم، وأقربها إلينا تجاوز الحجب والحواجز والعقبات التي وضعها الشيطان وحلفاؤه من الإنس بيننا وبين الأقربين إلينا في العقيدة، فلنحاول أن نتجاوز هذه الحجب والعقبات لنشيد شيئاً فشيئاً صرح الوحدة الذي سيمكننا بالتأكيد من مواجهة الطغاة وعملائهم ومقاومتهم والقضاء عليهم ذلك لأنّ الوحدة هي سرّ قوتنا واقتدارنا، ومن دونها نصبح عاجزين عن أداء أيّ عمل مهم.

هكذا نعالج عقبات الوحدة:

ثمّة حقيقة لابدّ من الإشارة إليها، وهي أنّ سنن الله تبارك وتعالى شاملة وعامة لا تختلف من زمان لآخر، ولا من إنسان لآخر، وآيات القرآن الكريم لا تخلو من تفسير وتذكير بهذه السنن، لذا يجدر بالإنسان أن يستوحي من القرآن الحكيم ما يعالج به أوضاعه، ويشفي أمراضه.

الانتفاع من القرآن:

ولا يغيب عنّا أن مثل القرآن كمثل الغيث الذي ينزل من السماء، حيث كلّ بقعة من بقاع الأرض تمتصّ من هذا الماء قدراً معيناً تستفيد منه بالطريقة

التي تناسبها.

ولذلك لابدّ أن يكون الإنسان مستعدّاً لتلقّي هذا الغيث، وهذه الرحمة الإلهية، ومن أعظم ما يجعل الإنسان يستفيد من القرآن الكريم، والاعتقاد بأنّ آياته تنفعه، هو طرد الوساوس الشيطانية عن نفسه والتي توحي له بأنّ هذه الآيات لا تنفعه، وأنّها خاصّة بالمؤمنين، أو بأصحاب الرسولﷺ، وبناءً على ذلك فلا علاقة لنا بالقرآن!

في حين أنّ الآيات القرآنية حتّى ولو تحدّثت عن المشركين، فإنّها تتحدّث عن السنن الإلهية العامّة التي يخضع لها المشركون باعتبارهم بشر يخضعون لها، ولذلك فإنّ الله سبحانه وتعالى عندما يتحدّث عن المشركين الذين جابهوا رسول اللهﷺ عندما أمرهم بعبادة إله واحد فإنّه قال عن لسانهم: ﴿**أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ**﴾[1].

وهذه المعارضة لم تكن معارضة شاذّة ؛ أي أنّها لم تكن نابعة من المناخ الذي كان سائداً في مكّة آنذاك، بل إنّها من طبيعة الإنسان، ومن انحراف فطرته نتيجة الوسوسة، فالإنسان يبقى هو الإنسان، ،الإنسان المكّي في زمن الجاهلية هو ا لإنسان اليوم في بلاد الإسلام، فهو يتأثّر بنفس المؤثّرات، فنحن أيضاً يمكن أن نتّخذ آلهة متعددة ونقول: كيف تكون الآلهة في مصلحة إله واحد؟

ونحن إذا استطعنا أن نفهم القرآن بشكل كامل فإنّه سيكون بالفعل علاجاً لأمراض قلوبنا، وشفاء لما في صدورنا، فكلّ واحد منّا يقرأ القرآن، ويطبّق آياته الكريمة على نفسه وعلى واقعه ومجتمعه، فسوف يظفر بالسعادة

---

(١) ص (٣٨): ٥ – ٦.

في حياته وآخرته.

الوحدة قضيّة مركزيّة:

ترى لماذا نؤكّد على مسألة الوحدة، ولماذا نظلّ نركّز على هذه الحقيقة؟

الجواب: لأهمّيّتها وضرورتها، ولأنّها رمز لمجموعة من الحقائق الأخرى التي لابدّ أن تجتمع إلى بعضها لتكون جسراً للإصلاح.

والوحدة هي رمز لصفاء الذّهن، وتعبير عن وضوح الرّؤية وعن الإيجابية، وتعبير عن الأمل، والخلق الرفيع، والتسامح والكرم، والتضحية والفداء، وتعبير عن الذوبان في القضية.

وهذه كلّها حقائق مختلفة، ولكن رمزها واحدة وهي كلمة الوحدة، فعندما نقول: إنّنا قد صلّينا في المسجد، أو جلسنا في المصلّى، فإنّ كلمة (المسجد) أو (المصلّى) هي كلمة واحدة، ولكنّها تعني مجموعة متكاملة من الحقائق.

فالوحدة هي البناء، وأعمدتها الرؤية الاستراتيجية وجدرانها الصّفات الحسنة، وسقفها القيادة السليمة، وأرضيتها الإيمان الخالص، والنّفسيّة النّقيّة، وبالتالي فإنّ كلّ هذه المفردات تجتمع مع بعضها لتكوّن حالة الوحدة.

مسؤولية العلماء في إقرار الوحدة:

ونحن - طلبة العلوم الدينية، والعلماء، والمفكّرين والخطباء، والموجّهين الدينيين - المعنيون أكثر من غيرنا في هذا المجال، فنحن لو تعمّقنا في أوضاعنا، وألقينا عليها نظرة فاحصة لرأينا أنّ طائفة العلماء ؛ أيّ الموجّهين في

الأمّة إن فسدوا فإنّ الأمّة كلّها سوف تفسد، وإن صلحوا صلحت، وحتّى الأمراء والحكّام فإنّ صلاحهم مستمدّ من صلاح العلماء، فلا يوجد أمير يصلح من تلقاء نفسه، بل إنّ السلطة بحدّ ذاتها هي أعظم عامل في إفساد الإنسان، فالعالم - إذن - هو وحده الذي يستطيع أن يُصلح السلطة السياسية.

وفي هذا المجال يلهج الناس بقولهم الموافق للحكمة والتجربة «إذا فسد العالِم فسد العالَم».

إنّ العلم هو سلاح المستضعفين ضدّ المستكبرين، والعلم هو الذي يوحد الأُمّة، وإذا سرقت رسالة العلم من قبل أدعياء العلم فإنّ النتيجة ستكون - ولا شكّ - لمصلحة المستكبرين ضد المستضعفين.

وبناءً على ذلك فنحن المعنيون بأن نبني بناء الوحدة في أنفسنا، وهذه الوحدة لابدّ أن تشمل ألفاً وخمسمائة مليون إنسان، فتكون قاعدة وهذا البناء في مكّة المكرّمة، وعمودها في حرم الله جلّ وعلا، فطرف من هذه الخيمة يظلّلنا، ثمّ يمتدّ من عندنا إلى الصّين، ثمّ إلى نيجيريا، وقسم منها يمدّ إلى أعماق أوروبا، وقسم آخر يظلّل شبه القارة الهندية.

وهذه الخيمة الواسعة الممتدّة التي تشمل الآفاق والعناصر والشعوب المختلفة، بحاجة إلى أن من يغرز أعمدتها وأوتادها في عمق الأرض، وأن يجعلها تمتدّ لتشمل العالم الإسلامي كلّه.

فالمطلوب منّا أن ننظر بعمق إلى هذه المسألة.

فالسطحية هي التي أفسدت أفكارنا، وهي التي جعلتنا نحارب بعضنا البعض، فإذا بالحكّام الطغاة يتسلّطون علينا، وإذا بالأفكار السطحية القشرية تسود حياتنا بسبب عدم تعمّقنا في قضايانا الهامّة، وللأسف الشديد فإنّ تبادل

التهم، وسوء الظن وما إلى ذلك من عوامل الاختلاف والتفرقة منتشرة بيننا، فلمصلحة من كلّ هذه الاختلافات؟!

إنّنا نرى أنّ كلّ واحد منّا يفسّر الوحدة تفسيراً خاصّاً به، فنحن نفسّر الوحدة بالتمزّق، في حين أنّ سنّة الله تبارك وتعالى تفسّر التمزّق والاختلاف بالعذاب الشديد، وهو القاهر فوق عباده.

وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿ **قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ** ﴾[1].

مسؤوليتنا كبيرة:

إنّ هناك مسؤولية عظيمة ملقاة على عاتقنا في هذا الطريق، فمهمّتنا تشبه إلى حدّ كبير مهمّة من يحاول أن يجمع الصخور لكي يمهّد طريقه، فيما أنّنا عاملون في سبيل الله سبحانه وتعالى فسوف نواجه الصعوبات والعقبات والعراقيل، فلابدّ - إذن - من أن نتحلّى برحابة الصدر، والصبر، والاستقامة، والشّجاعة لكي نستطيع تجاوز هذه العقبات بنجاح.

ولتكن أنشطتنا تدور حول محور الدّفاع عن النّفس، لا الهجوم على الآخرين، وليكن تحرّكنا إيجابياً، وتوجّهاتنا إيمانية فإنّنا في هذه الحالة سرعان ما نكتشف أنّنا أقوى من العقبات والعراقيل التي يضعها الأعداء أمامنا، وحينئذ سوف ننال عند الله الجزاء الأوفى، ونصبح بين أفراد مجتمعاتنا أُنموذجاً للأناس الناجحين في الحياة.

ولنعلم في هذا المجال أنّ صمودنا، وعدم التفاتنا إلى كلام الجاهلين،

---

(١) الأنعام (٦): ٦٥.

والمضي في طريقنا بعزم وإصرار، كلّ ذلك يعتبر بمثابة حجر نلقم به أعداءنا الذين يحاولون دائماً تثبيطنا، ووضع العراقيل في طريقنا.

وهكذا فإنّ الواجب علينا أن ندافع عن أنفسنا، وأن نكفّ - في نفس- الوقت عن مهاجمة غيرنا، وأن نسعى من أجل توحيد بلادنا وشعوبنا، وأن نكثّف من أنشطتنا، وبذلك سوف نستطيع تحقيق أهدافنا بجدارة، هذه الأهداف التي تتطلب منّا أن نتجاوز فردياتنا وأنانيّاتنا، وأن نفكّر تفكيراً جدّياً في معالجة مشاكل الأُمّة ككلّ، فلابدّ من أن نُوطن أنفسنا على الحقّ مهما كانت المشاكل، والعقبات التي تواجهنا، ومهما كان حجم المعاناة لأنّ الوحدة تمثّل هدفاً عظيماً وسامياً لا يمكن أن نصل إليه إلّا ببذل حجم كبير من التضحيات.

الباب الثاني

واقع الاختلاف في حياة البشر

تمهيد

إنّ اختلاف النّاس في أفكارهم وآرائهم ومواقفهم وعاداتهم لأمر طبيعي تقتضيه ظروف حياة البشر، فلو استقصينا أزمنة التاريخ لما وجدنا البشرية في أيّ لحظة من الزمن تجتمع وتتفق على كلّ الأمور والقضايا بمجملاتها وتفاصيلها، تلك الفترة البدائية القصيرة التي يتحدّث عنها القرآن الكريم بقوله ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾[1] ؛ أي قبل أن يعملوا عقولهم ويتنبّهوا إلى ما حولهم من حقائق ومصالح.

وحتّى المجتمعات الإيمانية من أتباع الأنبياء والأئمّة والأولياء لم يكونوا جميعاً على مستوى واحد من الفكر والالتزام، كما لم تكن متطابقة ولا متفقة على جميع الجزئيات والتفاصيل الدينية والحياتية.

ونلاحظ جلياً في حياتنا كيف يختلف الناس في كلّ شيء حتّى لا نكاد نجد أمراً يتفق عليه الجميع ولعلّنا نستوحي أو نستشفّ من بعض الآيات الكريمة في القرآن الحكيم حتميّة وجود الاختلاف والتفاوت بين أبناء البشر حسبما شاءت إرادة الله تعالى وحكمته.

يقول تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ**

---

(١) البقرة (٢): ٢١٣.

فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[١]، ﴿**وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾[٢]، ﴿**وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾[٣].

وتوضيحاً لهذه الحقيقة يقول العلامة الطباطبائي في تفسيره للآية الأخيرة: «ثمّ الاختلاف ويقابله الاتفاق من ا لأمور التي لا يرتضيها العقل السليم، لما فيه من تشتيت القوى وتضعيفها، وآثار أخرى غير محمودة، من نزاع ومشاجرة وجدال وقتال وشقاق، كلّ ذلك يذهب بالأمن والسلام، غير أنّ نوعاً منه لا مناصّ منه في العالم الإنساني وهو الاختلاف من حيث الطبائع المنتهية إلى اختلاف البنى فإنّ التركيبات البدنية مختلفة في الأفراد وهو يؤدي إلى اختلاف الاستعدادات البدنية والرّوحية، وبانضمام اختلاف الأجواء والظروف إلى ذلك، يظهر اختلاف السلائق والسّنن والآداب والمقاصد، والأعمال النوعية والشخصية في المجتمعات الإنسانية، وقد أوضحت الأبحاث الاجتماعية أنّه لولا ذلك لم يعش المجتمع الإنساني طرفة عين.

وقد ذكره الله تعالى في كتابه ونسبه إلى نفسه حيث قال: ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا**﴾[٤]، ولم يذمّه تعالى في شيء من كلامه إلّا إذا صحب

---

(١) الشورى (٤٢): ٨.

(٢) يونس (١٠): ١٩.

(٣) هود (١١): ١١٨ – ١١٩.

(٤) الزخرف (٤٣): ٣٢.

هوى النّفس وخالف هدى العقل»[١].

ويقول الشاعر:

ربَّ قـــبحٍ عنـــدَ زيـــدٍ هُـــوَ حَـــسَنٌ عَنْـــدَ عَمْـــرٍ

هُمَـــا ضـــدّان فيـــهِ وهـــو وهـــمٌ عنـــد بكـــرٍ

فمـــن الـــصّادقُ فيمـــا يدّعيـــه ليـــت شـــعرى

ولمـــاذا لـــيس للحـــسن قيـــاسٌ لـــستُ أدرى[٢]

حديث عن الوحدة:

إنّ الوحدة والتعاون بين أبناء البشر مسألة فطرية وجدانية لا تحتاج إلى استدلال علمي ولا بذل جهد عقلي.

---

(١) تفسير الميزان ١١: ٦٠.

(٢) تعليقاً على ما ذكره الشاعر عن الخلاف حول الحسن والقبح تجدر الإشارة إلى أنّه يطلق الحسن والقبح على معاني ثلاثة: اثنان منها موضع اتفاق الكلاميين والفلاسفة من المسلمين في إمكان إدراك العقل لها، وواحد منها موضع الخلاف.

أما موضع الاتفاق منهما فهما:

١- الحسن بمعنى الملائمة للطبع والقبح بمعنى عدمها.

٢- الحسن بمعنى الكمال والقبح بمعنى عدمه، وموضع الخلاف بعد ذلك هو في المعنى الثالث وهو:

٣- الحُسن بمعنى إدراك أنّ هذا الشيء أو ذاك ممّا ينبغي أن يفعل بحيث لو أقدم عليه الفاعل لكان موضع مدح العقلاء بما هم عقلاء، والقبح بخلافه، راجع (الأصول العامة للفقه المقارن) للسيد محمّد تقي الحكيم: ٢٨٢.

هذه الأبيات للشاعر إيليا أبو ماضي (١٨٨٩ – ١٩٥٧) له الطلاسم، صراع وعراك وأول القصيدة:

إنّنـــي اشـــهد صـــراعاً وعراكـــاً وأرى ذاتـــي شـــيطاناً وأحيانـــاً ملاكـــاً

هل أنا شخصان يأبى هذا مع ذاك اشتراكاً أم ترانـي واهمـاً فيمـا أراه؟ لـست أدري

ذلك أن الله سبحانه وتعالى أودع في أعماق نفس كلّ إنسان فطرة صافية ووجداناً نقيّاً، وبالفطرة والوجدان يهتدي الإنسان إلى الخير ويكتشف موارد الشرّ، وبها يتفق أبناء البشر على المبادئ الخيّرة والبديهيات العقلية، يقول تعالى: ﴿**فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**﴾[1].

إلّا إنّ تربية الإنسان والأجواء التي ينشأ فيها قد تلوّث صفاء فطرته ونقاء وجدانه، يقول صلى الله عليه وآله: « كلّ مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجّسانه..» [2].

إنك لو سألت أيّ إنسان عن رأيه في الوحدة والتفرقة لما تردّد في الإجابة بأنّ الوحدة خير وأنّ التفرقة شرّ بصرف النظر عن التفاصيل والملابسات.

وتشير بعض الآيات الكريمة إلى أنّ البشر في بدء حياتهم على وجه الأرض يوم كانوا يعيشون البساطة والعفوية كانوا متّحدين لم يعرفوا معنى للتفرقة والاختلاف، ولكن حينما بعث الله الأنبياء والرّسل خالفهم من تلوّثت فطرته، وهناك بدأ الصراع والاختلاف في حياة الناس، يقول تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ**﴾[3].

«فظاهر الآية يدل على أنّ هذا النوع قد مرّ عليهم في حياتهم زمان كانوا على الاتحاد والاتفاق، وعلى السّذاجة والبساطة، لا اختلاف بينهم بالمشاجرة

---

(١) الروم (٣٠): ٣٠.

(٢) صحيح البخاري ٤٢: ١٠٤.

(٣) البقرة (٢): ٢١٣.

والمدافعة في أمور الحياة، ولا اختلاف في المذاهب والآراء»[١].

وعادة ما تتجلّى الفطرة أمام الإنسان في الظروف الخطيرة والدقيقة التي تمرّ عليه فتزيل عن قلبه حجب الغفلة والشهوة ويتصّرف بوحي من فطرته ووجدانه، ويمكننا أن نلمس هذه الحالة الفطرية في مجتمع الأطفال الصغار قبل أن تستحكم الشهوات والمصالح في نفوسهم فقد يضرب بعضهم بعضاً، لكن ذلك لا يؤدّي بهم إلى القطيعة والحقد، بل سرعان ما يتناسون نزاعاتهم ويعودون إلى التّعامل واللعب معاً، وكثيراً ما يحدث أن يشتكي بعض الأطفال لدى عوائلهم ضد الأطفال الآخرين ويحصل النزاع والاختلاف بين أهالي الأطفال ويبقى لفترة طويلة، بينما يتناسى الأطفال صراعاتهم ويعودون إلى اللعب معاً.

إذاً فالوحدة والتعاون أمر تدعو إليه الفطرة ويؤيده الوجدان الإنساني.

الأُمّة الإسلامية التي نصّ الله سبحانه وتعالى على وحدتها فقال: ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾[٢].

كانت هذه الأُمّة تعيش تحت قيادة واحدة وفي وطن واحد يتعايش فيه جميع المسلمين كمواطنين متساوين في حقوقهم السياسية، ولكن هذه الأُمّة الواحدة والدّولة الواحدة والوطن الواحد تحوّلَت الآن إلى أكثر من (٤٣) دولة ووطناً! ولكلّ دولة عَلَم وشعار وحدود وعملة خاصة وقوانين معينة! وأصبح انتقال المسلم من بلد إسلامي إلى بلد إسلامي آخر تكتنفه العديد من المشاكل والتعقيدات، فلابدّ من تأشيرة دخول وجواز وجمارك وتفتيش، إلى

---

(١) تفسير الميزان ٢: ١٢٤.

(٢) الأنبياء (٢١): ٩٢.

ما هنالك من قوانين، إنّ هذا التمزّق السياسي العجيب الذي تعيشه الأُمّة الإسلامية هو سبب رئيسي لتخلّفها ولضياع ثرواتها وخيراتها وهيمنة الأعداء والطامعين عليها.

وعادة ما تنشب الحروب والخلافات بين حكّام هذه الدُّويلات المصطنعة والضحيّة هي مصالح المواطن حيث يقع عليهم التهجير ومصادرة الأموال.

إنّ النداء الإلهي بالوحدة والتعاون موجّه للمؤمنين الصالحين، فهم الذين يريد الله اتحادهم وتعاونهم على البرّ والتقوى، وفي تلك الوحدة خير لهم وللبشرية جمعاء لأنّ قوى الحقّ والصّلاح إذا اجتمعت وتكاتفت كانت أقدر على نشر الهدى والخير وبسط العدل ومكافحة الشرّ والظّلم.

ولذلك يوجّه الله سبحانه وتعالى دعوى إلى التعاون للمؤمنين كما في الآيات الأولى من سورة المائدة، يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ**﴾ إلى أن يقول سبحانه: ﴿**وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**﴾[2].

إذاً فالوحدة المطلوبة من قبل الله سبحانه هي وحدة المؤمنين مع بعضهم البعض، فأمّا الكافرون والظّالمون فإنّ اتحادهم ليس في صالح البشرية لأنّ

---

(١) المائدة (٥): ٢.

(٢) آل عمران (٣): ١٠٢ - ١٠٣.

ذلك يقوّي بغيهم وضلالهم ويهدّد أمن النّاس وحريتهم بالخطر والسّوء.

ولذلك يتوعّد الله المنحرفين بإلقاء العداوة والنزاع في صفوفهم، فعن أدعياء النصرانية المنحرفين عن منهج الله يقول تعالى: ﴿**وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ**﴾[1].

وعن اليهود المجرمين يقول تعالى: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾[2].

وفي الدّعاء المشهور «اللهم اشغل الظالمين بالظالمين»[3]. إلى ذلك نخلص إلى أنّ وحدة المؤمنين وتعاونهم يجب أن تتحقّق على مستويين:

المستوى الأول:

الجهات الفاعلة والقيادة في مجتمعاتنا الدينية من مراجع وعلماء وحركات ومراكز ومؤسسات.

المستوى الثاني:

في أوساط الجماهير وبين النّاس المؤمنين مع بعضهم البعض.

---

(١) المائدة (٥): ١٤.

(٢) المائدة (٥): ٦٤.

(٣) الصحيفة السجادية الكاملة: ١٤٥ (دعاؤه لأهل الثغور) وفيه: (اللهم اشغل المشركين بالمشركين عن تناول أطراف المسلمين).

ومن المؤسف جدّاً أن تعاني أُمّتنا الإسلامية من الخلاف والتمزّق بين المؤمنين حتّى على أعلى المستويات، بل إنّ عدم توفّر الوحدة والتعاون على المستوى الأوّل هو الذي يسبّب الخلافات والصّراعات على المستوى الثاني، فحينما لا تستطيع الجهات الفاعلة والقيادية - مع ما يفترض فيها من وعي وإخلاص - أن تتعاون وتتحد فسوف لن تنعم الجماهير والمجتمعات المتديّنة بأجواء الوحدة والانسجام لانعكاس اختلاف القيادات على أوضاع القاعدة والأتباع.

فعلى صعيد المراجع والعلماء والذين هم القيادة الشرعية لجماهير الأمّة والحماة لوحدتها والحريصون على مصلحتها، نرى بعض النزاعات والخلافات وبعض المجتمعات الدينية تعاني الآن من الانقسام والتناحر بسبب الخلافات المرجعية والعلمانية.

وعلى صعيد الحركات والتنظيمات الإسلامية وحتّى في المناطق الساخنة والملتهبة كأفغانستان والعراق ولبنان تحدث نزاعات تصل إلى حدّ التقاتل واستخدام السّلاح أو الحرب الإعلامية والدعائية بالتشهير المتبادل والاتهامات الرخيصة.

وعلى صعيد المراكز والمؤسّسات الدينية هناك تنافس غير شريف في بعض الحالات، وهناك صدامات وتناقض حتّى على مستوى المساجد والحسينيات.

إنّنا لا نريد بهذا أن نرسم صورة قاتمة سوداء لواقع النشاط والتحرّك الإسلامي المعاصر، فهناك إيجابيات كبيرة ومكاسب عظيمة، ولكنّنا بصددّ تسليط الأضواء على هذا المرض الخطير الذي ينخر في كيان مسيرتنا

الإسلامية لتتحمّس أكثر في مقاومته.

ففي المرحلة ا لأولى علينا أن نسعى لنزع فتيل الصراع وتهدئة الأجواء وإعلان وقف إطلاق النار على بعضنا البعض ليسير كلّ في برنامجه ويواصل مشروعه دون أن نضطرّ لصرف الجهد والاهتمام لمواجهة إخوانه المؤمنين وتعبئة أتباعه ضدّهم وتحصين أعماله عن تأثيرات تخريبهم، ثمّ نطمح للوصول إلى مستوى متقدّم وهو الوحدة والتعاون والانسجام.

إنّ كثيراً من المتدينين يعتبر شكل علاقته مع إخوانه المؤمنين عملاً شخصياً يخضع لمزاجه ومصلحته، وأن لا دخل للدّين في هذه المسألة، بل له الحرّية الكاملة في أن يعادي أو يتعاون مع من يشاء!

وفي أحسن الفروض يعتبر حسن علاقته مع الآخرين شيئاً كمالياً مستحبّاً لن يسأله الله تعالى عنه ولن يحاسب عليه يوم القيامة.

وسبب هذه التصوّرات الساذجة اعتقاد كثير من المتديّنين انحصار الدّين في القضايا الاعتقادية والأمور العبادية، أمّا شؤون الحياة وأوضاع المجتمع فذاك لا يرتبط بالدّين.

ولذا يهتمّ هذا الصنف من النّاس بمسائل الطهّارة والصّلاة بشكل تفصيلي ودقيق ويراعون الاحتياطات والمستحبّات في هذه الأمور، بينما يتجاهلون أبسط مبادئ الأخلاق في التعامل مع الآخرين ويتجاوزون الحقوق الاجتماعية.

فإذا ما شكّ في نطقه للفظ من ألفاظ الصّلاة فإنّه يذهب لسؤال العالِم الديني ويراجع الرسالة الفقهية العملية لمعرفة وظيفته الشرعية، أمّا إذا شكّ في نوايا ومواقف أخيه المؤمن فهو لا يكلّف نفسه عناء البحث وأخذ رأي

الإسلام في المسألة، بل يحكّم مزاجه وأهواءه والتي غالباً ما تقوده إلى سوء الظنّ واتهّام المؤمنين.

ومقاييسنا في تقويم الناس متأثّرة أيضاً بهذا الفهم السّاذج للدين، فلكي تثبت لنا عدالة إنسان نهتمّ بمعرفة التزامه بالصّلاة والصّيام وسائر العبادات، ولا يهمّنا بعد ذلك أخلاقه في التّعامل مع الآخرين، وأنّ هذه القضية لا تؤثّر في العدالة ولا تخلّ بها!

ولو رأينا شخصاً يترك صلاة أو فريضة أو صيام يوم أو يأكل أو يشرب شيئاً محرّماً لحكمنا عليه بالفسوق وأسقطنا عدالته، ولكن لو رأينا شخصاً يستغيب مؤمناً أو يفتري عليه أو يشهر به فإنّ ذلك لا يؤثّر على عدالته في نظرنا ولا يزعزع الثّقة في نفوسنا!

إنّ قضية الوحدة والتعاون بين المؤمنين تحتلّ موقعاً هامّاً في ثقافة الإسلام وتعاليمه، والمؤمن ليس مخيّراً بين السّلوك الوحدوي والأخلاقية التعاونية وبين التفرقة والتخاصم، بل إنّه ملزم من قبل الله تعالى بوحدة الصّف ولمّ الشّمل. ومكلف بالابتعاد عن التّفرقة والبغضاء.

فالوحدة والتعاون واجب شرعي وتكليف إلهي على كلّ مسلم مراعاته وتطبيقه، والتّفرقة والعداوة بين المؤمنين عمل محرّم وجريمة نكراء يحرم اقترافها وممارستها.

١- يقول تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ**﴾[1]، فالآية تحمل أمراً صريحاً بالاجتماع، ونهياً واضحاً عن التفرقة.

---

(١) آل عمران (٣): ١٠٣.

٢- ويقول تعالى: ﴿**وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[١]، إنّه تعالى يحذّرنا بلغة جازمة من أن نصبح متنازعين متفرّقين كاليهود والنصارى ويتوعدّنا بالعذاب العظيم إن حدث لنا ذلك.

٣- ويقول تعالى: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾[٢]، فالوحدة في إطار الدّين والابتعاد عن التّفرقة هي وصيّة الله لكلّ أنبيائه ووصية الأنبياء لأممهم.

٤- ويأمرنا سبحانه بأن نتعاون مع بعضنا على أمور الخير والصّلاح فيقول سبحانه: ﴿**وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى**﴾[٣].

٥- وينهانا الله عن التنازع لأن عاقبته الفشل وذهاب القوة ﴿**وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[٤].

٦- إنّ انتشار العداوة والبغضاء بين المؤمنين هدف شيطاني ومن يمارسها أو يساعد عليها فإنّها إرادة الشيطان. يقول تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء**﴾[٥].

أمّا الأحاديث الشريفة الواردة عن النبي محمّد وعن الأئمة من آله

---

(١) آل عمران (٣): ١٠٥.

(٢) الشورى (٤٢): ١٣.

(٣) المائدة (٥): ٢.

(٤) الأنفال (٨): ٤٦.

(٥) المائدة (٥): ٩١.

صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، ففيها حشد هائل من النّصوص التي تؤكّد أهميّة الوحدة والتعاون وأنّها من أساسيات المبادئ الإسلامية، وتنهى عن التفرقة والمعاداة لأنّها من أخلاق أهل النّار، ونقتبس من تلك الأحاديث بعض الومضات المشرقة:

الألفة والحبّ:

الأصل في شخصية المؤمن الألفة والحبّ لإخوانه المؤمنين، أمّا النّفور من الآخرين ومعاداتهم فليس من خلق المؤمن وإنّما هي سمة الفجّار.

يتحدّث الإمام الصادق عليه السلام عن انجذاب قلب المؤمن لأخيه المؤمن مقارناً لها بتنافر قلوب الفاسقين الفجّار فيقول: «إنّ ائتلاف قلوب الأبرار إذا التقوا وإن لم يظهروا التودّد بألسنتهم كسرعة اختلاط قطر السّماء على مياه الأنهار، وإن بعد ائتلاف قلوب الفجّار إذا التقوا وإن أظهروا التودّد بألسنتهم كبعد البهائم من التعاطف، وإن طال اعتلافها على مذودٍ[1] واحد»[2].

والرسول الأعظم صلى الله عليه وآله يعتبر الألفة مع الناس مقياساً للأفضلية في الخير، ويصف من يفتقد هذه الخصلة بانعدام الخير في شخصيته.

عنه صلى الله عليه وآله: «خياركم أحاسنكم أخلاقاً الذين يألفون ويُؤلفون»[3].

وأيضاً عنه صلى الله عليه وآله: «... وخير المؤمنين من كان مألفة للمؤمنين، ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلف»[4].

---

(١) مذود معلف الدابة، لسان العرب ٣: ١٦٨، ((ذود)).
(٢) الأمالي للشيخ الطوسي: ٤١٢.
(٣) مستدرك الوسائل ٨: ٤٥١، الحديث ٩٩٧١.
(٤) الأمالي للشيخ الطوسي: ٤٦٢.

إنّ اقتراب المؤمن من إخوانه المؤمنين وانشداده القلبي إليهم يؤهّله للاقتراب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يوم القيامة حيث يقول: «ألا أخبركم بأحبّكم إليّ وأقربكم منّي مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، الموطئون أكنافاً الذين يألفوا ويُؤلفون»[١].

المقاطعة والهجرة:

إنّ تعامل أخيك المسلم بسلبية وإعراض، وأن تقاطعه وتهجره فذلك أمر محرّم مبغوض عند الله، فلست حرّاً مختاراً في أن تقيم علاقة مع إخوانك المؤمنين أو لا تقيم، بل أنت مطالب بذلك، وإذا ما حدث سوء فهم أو تفاهم أوجب نوعاً من الإعراض فلا يصحّ أن يستمرّ طويلاً وبالتحديد أكثر من ثلاثة أيام كما تؤكّد على ذلك الأحاديث الشريفة:

فعنه صلى الله عليه وآله: (لا هجرة فوق ثلاث»[٢].

وفي حديث آخر يقول صلى الله عليه وآله: «أيّما مسلمين تهاجرا فمكثا ثلاثاً لا يصطلحان إلّا كانا خارجين من الإسلام ولم يكن بينهما ولاية فأيّهما سبق إلى كلام أخيه كان السابق إلى الجنّة يوم الحساب»[٣].

إنّ الشيطان الرجيم هو المستفيد الأكبر من تباعد المؤمن عن أخيه المؤمن ومقاطعته له، وهذا ما يؤكّد الإمام جعفر الصادق عليه السلام بقوله: «لا يزال إبليس فرحاً ما اهتجر المسلمان، فإذا التقيا اصطكت ركبتاه وتخلّعت أوصاله

---

(١) المجازات النبوية: ١٨٧.

(٢) الكافي ٢: ٣٤٤، باب الهجرة الحديث٢.

(٣) المصدر السابق: ٣٤٥، باب الهجرة الحديث٥.

ونادى يا ويله ما لقي من الثبور»[١].

وعنه صلى الله عليه وآله: «هجر المسلم أخاه كسفك دمه»[٢].

وفي وصيته لأبي ذر يقول صلى الله عليه وآله: «يا أبا ذر إيّاك وهجران أخيك فإنّ العمل لا يُتقبّل مع الهجران»[٣].

وعن الإمام الرضا عن آبائه عليهم السلام، في أوّل ليلة من شهر رمضان يغل المردة من الشياطين ويغفر في كلّ ليلة لسبعين ألفاً فإذا كان في ليلة القدر غفر الله بمثل ما غفر في رجب وشعبان وشهر رمضان إلى ذلك اليوم إلّا رجل بينه وبين أخيه شحناء فيقول الله عزّ وجلّ: «انظروا هؤلاء حتّى يصطلحوا»[٤].

وكما تنطبق هذه الأحاديث على حالة المقاطعة والهجر بين الأفراد المؤمنين فهي أشدّ انطباقاً على الجماعات المؤمنة، فلا يصحّ أن يكون هناك إعراض وتجاهل ومقاطعة بين الجماعات المؤمنة.

مساوئ الاختلاف والفرقة:

ينخدع البعض منّا بالمكاسب العاجلة والمحدودة التي قد يجنيها بصراعه واختلافه مع إخوانه المؤمنين بأن يستشعر الانتصار لذاته، يعبأ حوله أنصاره، وينال بعض المكاسب الآنية، أو يفرض رأيه في السّاحة أو ما أشبه ذلك.

ولكنّا لو راجعنا التعاليم الإسلامية وقرأنا النّصوص الواردة عن قادتنا

---

(١) المصدر السابق: ٣٤٦، باب الهجرة الحديث ٧.

(٢) كنز العمال ٩ : ٣٢، الحديث٢٤٧٨٩.

(٣) وسائل الشيعة ١٢: ٢٦٤، الحديث١٦٢٦٢.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٧٦.

المعصومين عليهم السلام لعرفنا كيف أنّ هذه المكاسب السّريعة والمحدودة تكون على حساب مصالحنا الإستراتيجية والمصيرية كمؤمنين، وهل من العقل أن يرضى الإنسان بغنائم تافهة وحقيرة بتنازله عن مكاسب مهمّة وكبيرة؟

إنّ الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يؤكّد لنا أنّ ما نتصوّره مكسباً وخيراً بعدائنا واختلافنا مع المؤمنين الآخرين لهو تصوّر خاطئ واهمٌ يقول عليه السلام: «وإنّ الله سبحانه لم يعط أحداً بفرقة خيراً، ممّن مضى ولا ممّن بقي»[1].

ومشكلتنا هي مع من يعتقد أنّ صراعه وعداءه للآخرين هو تكليف شرعي وأمر ديني حيث يسوّل له الشيطان أنّه وحده على الحقّ وأنّ الآخرين على الباطل، وأنّ من واجبه معاداتهم انتصاراً للحق!

إنّ الإمام علي عليه السلام ينسف هذا التفكير المتعجرف بإرجاع بواعث الفرقة والخلاف بين المسلمين إلى وساوس الشّيطان وتضليلاته، وأنّ الفرقة والعداء داخل المجتمع المسلم لا يمكن أن تكون مقبولة ومندوباً إليها من قبل الله تعالى.

يقول عليه السلام : «إنّ الشّيطان يُسنّي لكم طُرُقه، ويريد أن يحُلّ دينكم عقدة عقدة، ويعطيكم بالجماعة الفرقة، وبالفرقة الفتنة فاصدفوا عن نزغاته ونفثاته»[2].

إن من أهمّ أسباب انهيار الحضارات وهزيمة الأُمم وقوع النزاعات والاختلافات في أوساطها ولو درسنا تاريخ المجتمعات البشرية لواجهتنا هذه

---

(١) نهج البلاغة ٤: ٩٦ الخطبة ١٧٦.

(٢) المصدر السابق: ٢١٨، الخطبة ١٢٠.

الحقيقة الواضحة في أزمنة التاريخ.

يقول الرسول الأعظم محمّدﷺ: «لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»[١].

وبشيء من التفصيل يستعرض الإمام عليعليه السلام هذه الحقيقة في خطبته المعروفة (القاصعة) الواردة في نهج البلاغة فيقول:

«إحذروا ما نزل بالأُمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال، وذميم الأعمال فتذكّروا في الخير والشرّ أحوالهم، واحذروا أن تكونوا أمثالهم... وتدبّروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم... فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأملاء مجتمعة، والأهواء متفقة، والقلوب معتدلة، والأيدي مترادفة، والسيّوف متناصرة، والبصائر نافذة، والعزائم واحدة.

ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضين، وملوكاً على رقاب العالمين؟

فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أمورهم، حين وقعت الفرقة، وتشتّت الألفة، واختلفت الكلمة والأفئدة، وتشعّبوا مختلفين، وتفرّقوا متحازبين قد خلع الله عنهم لباس كرامته، وسلبهم غضارة نعمته...»[٢].

تزاور المؤمنين وتلاقيهم:

حينما يبتعد المؤمن عن أخيه المؤمن، وتنعدم اللقاءات والاجتماعات بينهما فإنّ الفرصة مؤاتيه للشيطان حينئذ ليخلق بينهما حواجز العداوة والفرقة وخاصّة إذا كان بينهما اختلاف في الرأي أو المصلحة فبسبب الابتعاد تتضخم

---

(١) صحيح البخاري ٣: ٨٨

(٢) نهج البلاغة ٢: ١٥٠ – ١٥٢.

القضايا الصغيرة في نظر كلّ منهما عن الآخر، كما تتراكم الانفعالات النفسية ويقوم الوشاة والنّمّامون بدورهم الخبيث في نقل المساوئ فيما بين الطرفين.

ولو التقيا لذاب كثير من الجليد والتراكمات النّفسيّة التي بينهما ولتفاهما على ما يختلفان عليه وجعلاه في حدوده الواقعية.

ومشكلتنا هي انعدام أو قلّة اللقاءات بين الجهات المختلفة في الرأي أو المصلحة حيث يبتعد كلّ طرف عن أماكن تواجد الطرف الآخر، فلا القيادات الدينية تكثّف اللقاءات فيما بينها ولا الحركات الإسلامية تحرص على الاجتماعات ولا مختلف الجهات الفاعلة في المجتمع تتبادل الزيارات.

ولما اللقاءات والاجتماعات من أثر كبير في تقريب النّفوس وتأليف القلوب وتضييق شقة الخلافات نرى الأحاديث الدينية تؤكّد عليها بكثير من الحرص.

ففي الحديث الشريف: «إن الله عزّ وجلّ يقول: أيّما مسلم زار مسلماً فليس إيّاه زار، إيّاي زار وثوابه عليّ الجنّة»[١].

وعن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «من زار أخاه في بيته قال الله عزّ وجلّ له : أنت ضيفي وزائري، عليّ قراك وقد أوجبت لك الجنّة بحبّك إيّاه»[٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام : «لقاء المؤمن في الله خير من عتق عشر رقاب مؤمنات»[٣].

---

(١) الكافي ٢: ١٧٦، باب زيارة الإخوان، الحديث٢.

(٢) المصدر السابق: ١٧٧، باب زيارة الإخوان، الحديث٦.

(٣) المصدر السابق: ١٧٨، باب زيارة الإخوان، الحديث١٣.

ويقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «لقاء الإخوان مغنم جسيم وإن قلّوا»[١].

ويوجّه الإمام الصادق عليه السلام وصية لتلامذته وأتباعه يؤكّد عليهم فيها المواظبة على اللقاءات والاجتماعات فيما بينهم فيقول: «اتقوا الله وكونوا إخوة بررة، متحابّين في الله، متواصلين متراحمين، تزاوروا، وتلاقوا، وتذاكروا أمرنا وأحيوه»[٢].

ويشير الإمام الجواد عليه السلام إلى أنّ في اللقاءات الأخوية فائدتين أساسيتين: فائدة نفسية بتحصيل السرور والانشراح النفسي، وفائدة فكريّة حيث يكون اللقاء فرصة لتبادل الآراء، يقول عليه السلام: «ملاقاة الإخوان نشرة وتلقيح للعقل وإن كان نزراً قليلاً»[٣].

إنّ الزيارات واللقاءات تساعد على رأب الصدع ولمّ الشّمل وتخفيف حدّة الصّراعات، وتهيء الأجواء للتعاون والتقارب.

وصدق رسول الله صلى الله عليه وآله حينما قال: «الزيارة تنبت المودّة»[٤].

إنّ المرحلة التي تمرّ بها الأُمّة الإسلامية ليست عادية ولا طبيعية، إنّها مرحلة جدّ حساسة وخطيرة، حيث تتآمر وتتكاتف قوى الشّرق والغرب لإجهاض الصّحوة الإسلامية المباركة ولمنع تحرّك الأُمّة باتّجاه دينها واستقلالها وحرّيتّها.

والمستهدف الرئيسي في تآمر الأعداء هم طلائع الأُمّة والفئات العاملة

---

(١) المصدر السابق: ١٧٩، باب زيارة الإخوان، الحديث١٦.

(٢) المصدر السابق: ١٧٥، باب التراحم والتعاطف، الحديث١.

(٣) الأمالي للشيخ المفيد: ٣٢٩.

(٤) بحار الأنوار ٧١: ٣٥٥.

لتوعية الأُمّة وقيادتها في معركتها المصيرية الحاسمة.

إنّ الأعداء يسعون بكلّ قوّة ونشاط لتصفية الحركات والنشّاطات الثورية في الأُمّة أو لا أقلّ لإضعافها وعزلها عن التفاعل مع جماهير الأُمّة.

وفي مقابل توحّد الأعداء وتعاونهم على ظلمنا والعدوان على استقلالنا وحرّيّاتنا رغم كلّ ما بينهم من اختلافات آيدلوجية وسياسية ومصلحية هل يصحّ لنا نحن المتصدّين للعمل في سبيل الله والذين تجمعنا رابطة الإيمان والجهاد أن نواجه عدونا المتوحّد المتكاتف بصفوف ممزّقة ورايات متصارعة؟!

فمهما كانت أسباب الخلاف وموجباته فإنّ الخطر الذي يحدق بنا من الأعداء يفرض علينا ان نتعاون ونتّحد ونؤجّل خلافاتنا الجانبية والتفصيلية، وإلّا فوجودنا ودیننا ومستقبلنا وأوطاننا كلّ ذلك مهدّد بالفناء والدّمار.

إنّ المعركة والقتال يستوجب التلاحم والتراصّ في مواجهة الأعداء ولذلك يؤكّد ربّنا سبحانه على اتحّاد المؤمنين وتكاتفهم في ميادين الصّراع حتّى يكونوا كالبنيان المرصوص ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ**﴾[1].

فالاتحّاد سلاح يتقوّى به من يشهره مؤمناً كان أو كافراً، والفرقة ضعف تسبّب الهزيمة لمن يعيشها مؤمناً كان أو كافراً وصدق ربّنا سبحانه حيث يقول: ﴿**وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[2].

---

(١) الصف (٦١): ٤.

(٢) الأنفال (٨): ٤٦.

وفي الآية إشارة مهمّة إلى أنّ الوحدة وعدم النّزاع يحتاج إلى صبر وتحمّل نفسي وتجمّل.

وإذا ما كان الأعداء متوحّدين أمامنا وكنّا عاجزين عن تجاوز وتجميد خلافاتنا في مقابلهم فإنّ الهزيمة الشنعاء هي المستقبل الذي ينتظرنا لا سمح الله.

وقديماً وقف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أمام أصحابه المتفرّقين لينذرهم بتغلّب جيش معاوية المتّحد عليهم، يقول: «والله لأظُنُّ أنّ هؤلاء القوم سيُدالون منكم باجتماعهم على باطلهم وتفرّقكم عن حقكم»[1].

إنّ الخلافات والصّراعات في أوساط المؤمنين العاملين تسبّب انخفاضاً وتراجعاً كبيراً في نشاطهم وفعاليتهم في السّاحة وذلك للأسباب التالية:

أوّلاً: حينما تتآلف القلوب وتتراصّ الصفوف فإنّ الله تعالى ينزل بركاته وتوفيقه، أمّا حينما تدبّ الفرقة والنزاع وتسود الخلافات فإنّ الله ينزع بركته ويسلب تأييده وتوفيقه.

ولعلّ ذلك ما يشير إليه الحديث الشريف المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «يد الله مع الجماعة»[2].

ثانياً: حالات الصّراع والخلاف الداخلي تحدث في نفس الإنسان انفعالات وجراحات ومضاعفات جدّ مقيتة، فيمارس الإنسان العامل دوره في السّاحة ونفسه مثقلة بتلك المضاعفات مما يقلّل من اندفاعه وإنتاجيته وجودة

---

(١) نهج البلاغة ١: ٦٥، خطبة ٢٥.

(٢) كنز العمال ٧: ٥٥٨ الحديث ٢٠٢٤١.

وإتقان عطائه، وقد تتراكم تلك الانفعالات فتنحرف به عن الطريق ويتراجع عن مواصلة مسيرة الجهاد، وكم رأينا عناصر عاملة مجاهدة في سبيل الله انسحبت من ميدان العمل وتخلّت عن الجهاد بتأثير هذه المضاعفات النّفسية التي تحدثها الخلافات والصراعات، وإن كنّا لا نبرّر انسحاب هؤلاء العاملين ولا نقبل أعذارهم في التهرّب من المسؤولية ولكنّا مطالبون بتنقية الأجواء وتهيئة الظروف المساعدة على الاستقامة والصمود في خطّ الجهاد.

وبمراجعة سريعة للتعاليم الدّينية والنّصوص الإسلامية نكتشف بوضوح مدى حرص الإسلام على طهارة ونقاء نفس الإنسان المؤمن ليتمكّن من النهوض بمسؤولياته العظيمة ودوره الخطير في هذه الحياة.

إنّ الصراع الداخلي يستلزم تلوّث النفس بالكراهية والحقد على الآخرين من أبناء المجتمع، وما أفتك (الحقد) بطهارة القلب، إنّه ورم خبيث وجرثومة مقيتة تجعل النفس مظلمة متآكلة.

لذلك يقول الإمام علي عليه السلام: «الحقد ألأم العيوب»[١].

وفي حديث آخر: «طيّبوا قلوبكم من الحقد فإنّه داء مُؤبّى»[٢].

ويبارك الإمام علي لمن عافاه الله من مرض الأحقاد بأنّه يعيش راحة في قلبه وتفكّره، يقول عليه السلام: «من أطرح الحقد استراح قلبه ولبّه»[٣].

ويقول أيضاً: «الحقود معذّب النفس متضاعف الهمّ»[٤].

---

(١) غرر الحكم: ٣٣٤٩.

(٢) المصدر السابق: ٤٩٢٤.

(٣) المصدر السابق: ٨٧٠٨.

(٤) المصدر السابق: ٣٣٥٨.

ولكن ماذا يكون موقف المؤمن إذا رأى من أخيه المؤمن عملاً مؤذياً؟ ألا يحق له أن يتأثّر ويأخذ في نفسه عليه؟

تجيب الأحاديث الشريفة بأنّ ذلك تأثّراً وانفعالاً طبيعياً لا إشكال في حصوله ولكن لا يصحّ أن يبقى ويستمرّ في نفس الإنسان المؤمن على أخيه المؤمن.

وفي حديث آخر: «المؤمن يحقد ما دام في مجلسه فإذا قام ذهب عنه الحقد»[١].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله في صفة المؤمن: «قليلاً حقده»[٢].

مساكين هم أولئك الذين يثقلون قلوبهم بالأحقاد على الآخرين لا لشيء إلّا لأنّهم يختلفون معهم في رأي أو موقف.

إنّ البعض من هؤلاء يبدو وكأنّهم يتلذّذون بالخصومة والنزاع مع الآخرين ويحملون في نفوسهم قوائم سوداء يصنّفون النّاس من خلالها فيعادون هذا الشّخص ويحاربون تلك الجهة ويستشكلون على هذه الجماعة أو تلك بأسباب ومبرّرات، مهما كانت فإنّها لا تجيز للمسلم أن يوقع نفسه في سلوكية الخصام والعداء لأبناء دينه ومجتمعه.

إنّ المؤمن ليدعو الله من أعماق قلبه أن يطهّر نفسه من مرض الأحقاد والعداء للمؤمنين: ﴿**رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[٣].

أما كيف يُبتلى الإنسان بمرض الخصومة مع الآخرين؟

---

(١) تحف العقول: ٣١٠.

(٢) كتاب التمحيص: ٧٥.

(٣) الحشر (٥٩): ١٠.

يحدّد الإمام الصادق عليه السلام سببين لهذا المرض السيّئ فيقول: «لا يخاصم إلّا رجل ليس له ورع أو رجل شاك»[١].

فحينما يفقد الإنسان (الورع) ويعيش حالة اللاهتمام اتجّاه المعاصي والذنوب فإنّه يتجرّأ على مخاصمة الآخرين والنزاع معهم.

وحينما يُبتلى بسوء الظّنّ والتشكيك في نوايا الآخرين وأعمالهم ومواقفهم فإنّه يندفع للخصام والعداوة.

إنّ الخصومات تضعف دين الإنسان وتقلّل انتاجيته وفعاليته وتكرّس في نفسه الشّكوك واللاثقة بالآخرين.

يقول الإمام محمّد الباقر عليه السلام : «الخصومة تمحق الدين وتحبط العمل وتورث الشّك»[٢].

وإذا كانت المصالح الدنيوية الضيّقة توقع الإنسان في الخصومات والأحقاد فإنّ رحابة الدين وسماحته لا تسمح للمتديّنين بأن يخاصموا في دينهم هؤلاء الذين يجعلون اعتقادهم بفكرة دينية أو اقتناعهم بعمل ديني سبباً لمخاصمة الآخرين وعداوتهم بدلاً من السعي للحوار معهم ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة، هؤلاء بعيدون عن روح الدين ومخالفون لأخلاقه الكريمة.

ثالثاً: تستهلك الخلافات والصّراعات الداخلية قسطاً لا بأس به من اهتمام وجهود العاملين في الوقت الذي تشتدّ فيه الحاجة إلى كلّ ذرّة من الجهد

---

(١) التوحيد للشيخ الصدوق: ٤٥٨، الحديث٢٣، باب النهي عن الكلام والجدال والمراء في الله عزّ وجلّ.

(٢) المصدر السابق: الحديث٢١.

والاهتمام لمواجهة الأخطار المحدقة بالأُمّة والأعداء الرئيسيين على الإسلام.

إنّ كلّ جهة تضطرّ إلى صرف شيء من الوقت والتفكّر في مواجهة الجهات الأخرى، كما تبذل الكثير من الجهد لتحصين أفرادها وأتباعها من تشكيك الآخرين وإثارتهم، وقد تخصّص نسبة من إعلامها للردّ على الفئات المخالفة لها داخل السّاحة الإسلامية.

ويلعب التخريب من كلّ جهة على أعمال ومشاريع الجهة الأخرى دوراً بشعاً في استنزاف الطّاقات الإسلامية عند الخلافات والصّراعات.

فإذا ما قامت جهة بمشروع اجتماعي فإن الجهات المناوئة لها ستسعى إلى إفشال ذلك المشروع وإضعافه.

وإذا ما أصدرت جهة مطبوعة إعلامية أو ثقافية فإنّ الجهات المعادية ستبثّ الدعايات والإشاعات التي تمنع الناس من التفاعل مع تلك المطبوعة.

وإذا ما عملت جهة على استقطاب أفراد أو جماعة إلى جانبها فإنّ الجهات الأُخرى ستحاول تشكيكهم وإبعادهم عن تلك الجهة.

وحينما نسأل: على من تقع الخسارة في مثل هذه الحالات؟

فإنّ الجواب الذي لا شكّ فيه : أنّها على حساب الإسلام والهدف المقدّس الذي يسعى إليه الجميع، أليس كذلك؟

وتؤثّر تلك الخلافات والصراعات بين العاملين في سبيل الله على مدى تفاعل الناس وتجاوبهم مع خطّ الجهاد والتحرّك، حيث تضعف ثقة الناس بالمتنازعين ويشكّكون في سلامة نواياهم وصحّة مسيراتهم حيث يتوقّع الناس من المتصدّين لقيادة الأُمّة والداعين إلى الإسلام أن يكونوا نموذجاً رفيعاً

لأخلاق الإسلام وقيمه وتعاليمه، فإذا ما رأوهم يتنازعون ويتسابقون في إبداء عيوب بعضهم البعض وكشف نقاط ضعفهم فإنّ ذلك سيضعف احترامهم في أعين الناس وتقلّل نسبة التجاوب مع أطروحاتهم ومشاريعهم.

كما سيكون ذلك فرصة مناسبة لدعايات العدو المشترك وإشاعاته ضد الإسلام والعاملين من أجله.

حرّية العقيدة:

إنّ الإسلام هو الدّين الحقّ وهو العقيدة الصّائبة التي ينبغي أن يؤمن بها الإنسان ليرضي خالقه ويسعد حياته في الدّارين، ولكنّ الله تعالى يريد للإنسان أن يعتنق الحقّ ويلتزم الصّواب بمليء حرّيته واختياره، عن طريق استخدام عقله، والتأمّل فيما حوله، لا أن يُجبر على الإيمان، أو يُفرض عليه الدّين قهراً، فذلك يتنافى مع إنسانية الإنسان، وصفاته التي ميّزه الله بها.

ولو أراد الله تعالى قسر الإنسان على الإيمان في هذه الحياة الخلقه على هيئة الملائكة ولسلب منه حرّيّة الإرادة والاختيار، ولكنّه شاءت حكمته أن يكون الإنسان حرّاً مختاراً، يستخدم عقله، ويمارس إرادته، وينتخب طريقه. أمّا الأنبياء فيقتصر دورهم على التذكير والتوجيه، وليست لهم صلاحية الإكراه والجبر وهذا ما تؤكّد عليه آيات عديدة في القرآن الحكيم يقول تعالى: ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ**﴾[1].

﴿**وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ**﴾[2].

---

(١) الغاشية (٨٨): ٢١ – ٢٢.

(٢) ق (٥٠): ٤٥.

﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أفأنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[1].

﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

وقد روي أنّ سبب نزول هذه الآية ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ هو النهي والتحذير لأحد أصحاب رسول الله ﷺ وهو رجل من الأنصار من بني سالم ابن عوف يقال له الحصين وكان له ابنان نصرانيان فأراد ان يجبرهما على اعتناق الإسلام، فانزل الله تعالى هذه الآية[3]، دفاعاً عن حرّية العقيدة، ومنعاً للإرهاب والقمع الفكري.

حرّية الفكر:

والعقيدة الإسلامية إطار واسع يمنح الإنسان حرّية الفكر والتأمّل والاستنباط، فإذا آمن الإنسان بأصول العقيدة فهو مسلم، له ما للمسلمين، وعليه ما عليهم، أمّا التفاصيل وقضايا العلم وشؤون الحياة، فللإنسان أن يعتمد على فكره وعقله على هدى تلك الأصول العقيدية وبشكل لا يتناقض معها.

فالقرآن الحكيم لا يفرض على الإنسان حتميّات ومسلّمات علميّة في شؤون الحياة بل يوجّه الإنسان للتأمّل والتفكير والنظر راسماً له منهجيّة التفكير السليم، والنّظرة العلمية الموضوعية حتّى لا يقع فكر الإنسان تحت تأثير

---

(١) يونس (١٠): ٩٩.

(٢) البقرة (٢): ٢٥٦.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣: ٢٢.

الضّغوط والشّهوات، وقد كان بعض المعاصرين لنزول القرآن الحكيم يتوقّعون منه الإجابة على تساؤلاتهم العلمية والحياتية لكن الخالق سبحانه كان يريد منهم إعمال عقولهم واستخدام أفكارهم دون الاعتماد على إجابات جاهزة تأتيهم من السّماء لذلك نلاحظ إعراض الوحي عن الإجابة على العديد من التساؤلات، كسؤالهم عن الرّوح يقول تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾[١]، وكامتناع الوحي عن البت في مسألة عدد أهل الكهف وهي مسألة ترتبط بالتاريخ وعلم الآثار يقول تعالى: ﴿**سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاء ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا**﴾[٢].

والملفت للنظر أنّ فهم آيات القرآن وتفسيرها هي وظيفة عقل الإنسان وفكره، حيث لم يفرض الإسلام إلى جانب القرآن تفسيراً منصوصاً محدّدا يلزم به كلّ مسلم، بل دعا الناس إلى إعمال عقولهم في تفهّم القرآن وتدبّر آياته: يقول تعالى:

﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾[٣].

﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ**﴾[٤].

﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا**﴾[٥].

---

(١) الإسراء (١٧): ٨٥.
(٢) الكهف (١٨): ٢٢.
(٣) محمّد (٤٧): ٢٤.
(٤) ص (٣٨): ٢٩.
(٥) النساء (٤): ٨٢.

ويشير الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام إلى أنّ كلّ جيل ومجتمع يمكنه أن يستفيد فهماً جديداً من القرآن الكريم فيقول حينما سأله رجل: ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلّا غضاضة؟

أجاب عليه السلام: «لأنّ الله تعالى لم ينزله لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس فهو في كلّ زمان جديد، وعند كلّ قوم غضّ إلى يوم القيامة»[١].

أمّا إذا أشكل على الإنسان شيء في فهمه لآية من القرآن الحكيم أو تشابهت عليه معاني الآيات، فعليه أن يرجع إلى الراسخين في العلم ويسأل أهل الذّكر: ﴿**فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[٢].

ونتيجة لهذه الحريّة الفكرية التي أرساها الإسلام في مجتمعه تعدّدت المدارس العقيدية والمذاهب الفقهية ونبغ علماء الطبيعة والمخترعون والمكتشفون فإعمال الفكر مطلوب في الإسلام ينال صاحبه عليه الثواب حتّى وإن لم يوفّق للصواب شرط صحّة المنهج المتبّع.

التسامح واحترام الرأي:

لكي تعطي حرّيّة الفكر نتائجها الإيجابية في تقدّم مسيرة المجتمع لابدّ من معالجة بعض السّلبيّات والأمراض التي قد ترافقها، وما قد تجرّ إليه هذه السّلبيّات من تفرّق وصراع.

وهنا لابدّ من مبادئ أخلاقية وتعاليم تربويّة تجعل العقول منفتحة والصّدور متّسعة لاختلاف الرّأي وتعدّد وجهات النّظر، وهذا ما صنعه الإسلام

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٩٣.

(٢) النحل (١٦): ٤٣ والأنبياء (٢١): ٧.

بالتأكيد على مبدأ التسامح واحترام الرّأي فليس في الإسلام محاكم للتفتيش، ولا يحقّ لأحد أن يمارس دور الوصاية والرقابة على أفكار الناس ونواياهم ومشاعرهم، والانتماء إلى الإسلام والعضويّة في مجتمعه لا تحتاج إلى شهادة أو قبول من أحد، وبذلك لا يمتلك أحد حقّ الحكم بطرد أحد من إطار الإسلام ما دام يعلن قبوله بالإسلام حتّى لا تتكرّر مآسي التكفير والاتّهام بالزندقة والمروق عن الدين كما يفعله البعض.

إنّ التكفير والاتهام بالزّندقة والمروق هو مظهر للإرهاب الفكري حيث يدعي البعض لنفسه أنّ الإسلام ينحصر فيما يراه ويفهمه هو: وأنّ من تخالفه في ذلك الفهم أو الرّأي والمذهب فهو كافر لا مكان له في أجواء الإسلام ومجتمعه! ولقد حذّر رسول الله صلى الله عليه وآله من أن يشهر مسلم على أخيه المسلم سلاح التكفير ففي الحديث الصحيح : «من قال لأخيه : يا كافر فقد باء بها أحدهما»[١].

وعن الإمام علي عليه السلام: «من قال المؤمن لأخيه: أُفّ انقطع ما بينهما فإذا قال له: أنت كافر كفر أحدهما، وإذا اتّهمه انماث الإسلام في قلبه كما ينماث الملح في الماء»[٢].

وعن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام: «ما شهد رجل على رجل بكفر قط إلّا باء به أحدهما، إن كان شهد على كافر صدق، وإن كان مؤمناً رجع الكفر عليه فإيّاكم والطعن على المؤمنين»[٣].

وعن الإمام الصادق عليه السلام «ملعون معلون من رمى مؤمناً بكفرٍ ومن رمر

---

(١) مسند أحمد ٢: ١١٢.

(٢) الخصال ٢: ٦٢٢، حديث أربعمائة.

(٣) الكافي ٢: ٣٦٠، الحديث ٥ باب السباب.

مؤمناً بكفر فهو كقتله»[١].

وعنه أيضاً عليه السلام : «من اتهم أخاه في دينه فلا حرمة بينهما»[٢].

ولم يكن مبدأ التسامح مجرّد فكرة نظريّة أو خلق مثالي بل كان سياسة ونظاماً اجتماعياً طبّقه رسول الله صلى الله عليه وآله في حياته، وذلك ملحوظ في تعامله مع المنافقين حيث لم يكفّرهم ولم يطردهم من مجتمع المسلمين ولم يقاتلهم، وبعد رسول الله صلى الله عليه وآله ينقل لنا التاريخ صفحات رائعة من حالة التسامح التي كانت سائدة في حياة المسلمين، ومن أروع الصفحات موقف الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام من مخالفيه ومناوئيه فعلي عليه السلام لا يُنكر علمه وفضله، وإذا كان هناك من يتّهم فهم علي للإسلام فهو - الإمام علي - بلا شكّ واثق من نفسه متأكّد من فهمه، وهو أقرب الناس لرسول الله صلى الله عليه وآله وألصقهم به ومع ذلك فإنّه لم يحكم على من اختلف معه في الفهم أو الموقف بالخروج عن حضرة الإسلام، ولم يحرمهم من حقوقهم كأعضاء في المجتمع الإسلامي.

ورغم أنّ المتمرّدين على الإمام علي عليه السلام من الخوارج تجرئوا حتّى على تكفيره واتّهموه بالشّرك، ولكنّه عليه السلام رفض أن يبادلهم التهمة بل اعترف لهم بالإسلام وعاملهم معاملة سائر المسلمين.

ففي مصنّف ابن أبي شيبة بسنده عن كثير بن نمر قال: «بينا أنا في الجمعة وعلي بن أبي طالب على ا لمنبر إذ جاء رجل فقال : لا حكم إلّا لله، ثم قام

---

(١) كنز الفوائد لأبي الفتح الكراجكي: ٦٣.

(٢) الكافي ٢: ٣٦١، الحديث٢، باب التهمة وسوء الظن.

آخر فقال: لا حكم إلّا لله، ثم قاموا من نواحي المسجد يحكّمون الله، فأشار عليهم بيده: أجلسوا: نعم، لا حكم إلّا لله: كلمة حقّ يبتغى بها باطل، حكم الله ينتظر فيكم، الآن لكم عندي ثلاث خلال ما كنتم معنا: لن نمنعكم مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، ولا نمنعكم فيئاً ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتّى تقاتلوا، ثمّ أخذ في خطبته»[١].

وينقل عن إمام المذهب الحنفي أبو حنيفة أنّه قد جلس بالمسجد يوماً فدخل عليه بعض الخوارج شاهري سيوفهم، فقالوا: يا أبا حنيفة، نسألك عن مسألتين، فإن أجبت نجوت وإلّا قتلناك، قال: اغمدوا سيوفكم فإنّ برؤيتها ينشغل قلبي. قالوا: وكيف نغمدها ونحن نحتسب الأجر الجزيل بإغمادها في رقبتك؟

قال: سلوا إذن. قالوا: جنازتان بالباب، إحداهما رجل شرب الخمر فمات سكران، والأخرى امرأة حملت من الزنا فماتت في ولادتها قبل التوبة، أهما مؤمنان أم كافران؟

فسألهم : من أيّ فرقة كانا؟ من اليهود؟ قالوا: لا، قال : من النصارى؟ قالوا: لا، قال : ممن كانا؟ قالوا: من المسلمين. قال : قد أجبتم!

قالوا : هما في الجنّة أم في النار؟

قال: أقول فيهما ما قال الخليل عليه السلام فيمن هو شر منهما ﴿**فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[٢]، وأقول كما قال عيسى عليه السلام:

---

(١) المصنف لابن أبي شيبة الكوفي ٨: ٧٤٦.

(٢) إبراهيم (١٤): ٣٦.

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[١].

فنكسوا رؤوسهم وانصرفوا[٢].

التعصب واحتكار الحق:

إن يكون لك رأي فذلك حقّ طبيعي، لكنّ الإسلام ينصحك أن تتوخّى في آرائك الصّواب وتبحث عن الحقّ، وأن لا تصمّ أُذنك وتحجب عقلك على الآراء الأخرى، فلعلّها أصوب من رأيك وأقرب إلى الحقّ، وإذا ما تبيّن لك الخطأ فلا يصحّ لك الإصرار على الرأي الخاطئ يقول تعالى: ﴿**فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ**﴾[٣].

ففي مقابل خلق التسامح واحترام الرأي هناك مرض التعصّب واحتكار الحقّ بأن يتشبّث الإنسان برأيه، ويرفض مجرّد النّقاش والبحث في الرأي الآخر، ويعتقد بأنّ رأيه الحقّ المطلق، ليس بعده إلّا الكفر والضّلال.

إنّ هذا المرض المقيت يسبّب تحجّر الفكر، ويؤدّي إلى الإرهاب الفكري، وينتج الصّراع والنزّاع في المجتمع.

فالحقّ والصّواب في أيّ أمر علمه الواقعي عند الله سبحانه، وأيّ رأي بشري يحتمل الصواب كما يحتمل الخطأ، وقد لا يكون الصواب والخطأ في أيّ رأي مطلقاً وتاماً بل قد تختلف نسبته المئوية فهو صحيح أو خطأ بنسبة ١٪

---

(١) المائدة (٥): ١١٨.

(٢) القرآن والسلطان : ٢٠٣.

(٣) الزمر (٣٩): ١٧ – ١٨.

أو ١٠٪ أو ٥٠٪ أو ٩٠٪ وهكذا.

من هنا يربّي الإسلام أبناءه على خلق التسامح واحترام الرأي والبحث عن الحقّ واستماع القول لاتباع أحسنه، ويحذّرهم من التعصّب المقيت وادعاء الحقّ المطلق.

سئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام: ما أدنى ما يكون به العبد كافراً؟ قال: أن يبتدع به شيئاً فيتولّى عليه ويتبرأ ممن خالفه»[١].

وفي نصّ آخر قال عليه السلام: «أن يقول لهذه الحصاة إنّها نواة ويبرئ ممّن خالفه على ذلك»[٢].

وعن الإمام علي عليه السلام : «أدنى ما يكون به كافراً أن يتديّن بشيء فيزعم أنّ الله أمره به ممّا نهى الله عنه ثمّ ينصبه ديناً فيتبرّأ ويتولّى ويزعم أنّه يعبد الله الذي أمره به»[٣].

وعن أبي العباس قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أدنى ما يكون به الإنسان مشركاً قال: فقال : «من ابتدع رأياً فأحبّ عليه أو أبغض عليه»[٤].

مآسي الإرهاب الفكري:

في عصور الإسلام الأولى كان التسامح واحترام الرأي هو الخلق الاجتماعي السّائد الذي ينظّم حرّيّة الفكر، ولكن بعد بروز الانحراف السيّاسي في حياة المسلمين، وضعف الالتزام بمبادئ الإسلام وأخلاقه وتعاليمه وخاصّة

---

(١) معاني الأخبار: ٣٩٣ الحديث٤٣ باب نوادر المعاني.

(٢) المصدر السابق، الحديث٤٤.

(٣) كتاب سليم بن قيس الهلالي: ١٧٧.

(٤) الكافي٢: ٣٩٧، الحديث٢ باب الشرك.

لدى بعض الفئات والجهات المؤثّرة، بدأ الفكر يعيش حالة المعاناة، وابتلى المسلمون بمآسي الإرهاب الفكري في العديد من الفترات والعهود، فالسلطات الحاكمة كانت تتدخّل بقوّتها لفرض رأي أو لمحاربة آخر، وبعض رجال الدين المرتبطين بالسّلطات كانوا يشجّعونها بهذا الأتجاه ولعلّ الخوارج هم أوّل من مارس هذا النوّع من الإرهاب الفكري في تاريخ المسلمين حيث كفّروا من يخالفهم في الرأي أو الموقف السياسي حتّى وإن كان علي بن أبي طالب أوّل الناس إسلاماً وأسبقهم إيماناً وأقربهم من رسول الله.

وحدثت من جرّاء ذلك الآلام والمآسي بتبادل اتهامات التكفير والمروق من الدين، وباستباحة الدّماء وهتك الحرمات لخلاف على فكرة أو حكم فقهي!

الوحدة والإرهاب الفكري:

ولآن نحن نعيش القرن الخامس عشر للهجرة، ونلاحظ تطوّر العلم والتكنولوجيا، والمدى الذي وصلت إليه المجتمعات الصناعية المتقدّمة، ونلاحظ تنامي مستوى الوعي والإدراك في أوساط أُمّتنا الإسلامية الناهضة، فهل يمكن القبول بتكرار مآسي الماضي، وعودة أجواء التحجّر والتزّمت والإرهاب الفكري؟

ومن المؤسف أنّ هناك من لا يزال يعيش بتلك العقلية الضيّقة ويريد فرض وصايته وآرائه على الآخرين، وإذا ما خالفه أحد أو ناقشه بادر إلى إصدار فتوى التكفير والمروق عن الدين بحقه أو اتّهمه بالابتداع والضلال.

يقول الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي:

«وقد عرفنا في عصرنا أناساً يجهدون أنفسهم، ويجهدون النّاس معهم،

ضانّين أنّهم قادرون على أن يصبّوا الناس في قالب واحد يصنعونه هم لهم، وأن يجتمع الناس على رأي واحد، يمشون فيه وراءهم، وفق ما فهموه من النصوص الشرعية، وبذلك تنقرض المذاهب، ويرتفع الخلاف، ويلتقي الجميع على كلمة سواء.

ونسي هؤلاء أنّ فهمهم للنصوص ليس أكثر من رأي يحتمل الخطأ، كما يحتمل الصّواب، إذ لم تضمن العصمة لعالم فيما ذهب إليه، وإن جمع شروط الاجتهاد كلها، كلّ ما ضُمن له هو الأجر على اجتهاده أصاب أم أخطأ...

ولا تحسبنّ أنّي أنكر عليهم دعوتهم إلى اتباع النصّوص، أو اجتهادهم في فهمها فهذا من حقّ كلّ مسلم استوفى شرائط الاجتهاد وأدواته، ولا يملك أحد أن يغلق باباً فتحه رسول الله ﷺ للأمّة، إنّما أنكر عليهم تطاولهم على مناهج علماء الأمّة، واحتقارهم للفقه الموروث، ودعاواهم العريضة في أنّهم وحدهم على الحقّ، وما عداهم على خطأ أو ضلال، وتوهّمهم أنّ باستطاعتهم إزالة الخلاف، وجمع الناس قاطبة على قول واحد، هو قولهم.

قال لي واحد من طلبة العلم المخلصين من تلاميذ هذه المدرسة مدرسة «الرأي الواحد»: ولِمَ لا يلتقي الجميع على الرأي الذي معه النصّ؟

قلت: لابدّ أن يكون النصّ صحيحاً مسلّماً به عند الجميع، ولابدّ أن يكون صريح الدلالة على المعنى المراد، ولابدّ أن يسلم من معارض مثله أو أقوى منه من نصوص الشريعة الجزئية أو قواعدها الكلية، فقد يكون النصّ صحيحاً عند إمام، ضعيفاً عند غيره، وقد يصحّ عنده ولكن لا يسلم بدلالته على المراد، فقد يكون عند هذا عاماً وعند غيره خاصّاً، وقد يكون عند إمام مطلقاً، وعند آخر مقيّداً، وقد يراه هذا دليلاً على الوجوب أو الحرمة، ويراه ذلك دالّاً على

الاستحباب أو الكراهية وقد يعتبره بعضهم محكماً، ويراه غيره منسوخاً إلى غير ذلك من الاعتبارات[١].

إنّ وجود فئات تحمل هذا التوجّه المتشدّد، وترفض حرّيّة الفكر وخلق التسامح، ليهدّد الحركة العلمية والفكرية بالشلل والتحجّر، كما يخلق حالة النزاع والعداوة ويمنع من الوحدة والتعاون.

وخاصّة إذا ما كانت هناك مصالح سياسية تدفع بعض الحكومات ذات النفوذ والثروة لتبنّي مثل هذه التوجّهات، وهذا هو ما تعاني منه الأُمّة الإسلامية في هذا العصر.

فحينما تأسّست في القاهرة دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في الستينات وهي مشروع وحدوي حضاري قام به نخبة من علماء المسلمين السنّة والشيعة، ثارت ثائرة أولئك المتشدّدين وبدأو يصدرون الكتب والمجلّات، التي توزع أحكام التكفير والمروق من الدين على هذا المذهب وتلك الطائفة، حتّى كتب أحدهم كتاباً قال في مقدمته مهاجماً فكرة التقارب بين المذاهب الإسلامية: إنّه لا يمكن الجمع بين النور والظلام والتقريب بين الحقّ والباطل!

وبعد انتشار الصحوة الإسلامية وانبثاق الحركات والانتفاضات الجماهيرية في الأُمّة جدّد هؤلاء المتزمّتون نشاطهم وضمن مخطّط سياسي لمواجهة الصحوة المباركة، فصاروا يصدرون ألوان الكتب والمجلّات، ويمارسون نشاطاً مكثفّاً ضدّ المذاهب والمدارس الفكرية المخالفة لهم، بهدف إيجاد البلبلة وتعميق الفرقة، ولإضعاف الجهود الوحدوية الصادقة.

---

(١) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرّف: ١٦٣.

إنّ محاربة أيّ مذهب أو فكرة بالقمع والإرهاب غالباً ما لا يقضي على ذلك المذهب أو تلك الفكرة بل يفجّر إرادة التحدّي عند الاتباع، ويجعلهم أكثر إصراراً وتمسّكاً برأيهم، بل قد يدفعهم إلى الهجوم المضاد، والردّ الانتقامي وبذلك تتمزّق وحدة الأمّة، وتتبدّد طاقاتها على حساب معركتها المصيرية وقضاياها الأساسية.

والواعون من الأمّة مطالبون بمقاومة الإرهاب الفكري، وتشجيع حرّية الفكر، وبثّ أخلاق الإسلام الداعية إلى التسامح واحترام الرأي.

ومن المبادرات الإيجابية في هذا المجال الكتاب الذي أصدره الدكتور الشيخ محمّد سعيد رمضان البوطي من أبرز علماء المسلمين في سوريا تحت عنوان (السّلفيّة مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي) فالكتاب وإن كانت بعض نقاطه مورد نقاش واختلاف نظر، لكن الموضوع الأساسي للكتاب دفاع عن حرّية الرأي والفكر وإدانة للإرهاب الفكري، ويشير المؤلّف إلى أخطار التحجّر الفكري ومصادرة حقّ الآخرين في إبداء آرائهم وما ينتجه هذا التوجّه الذي تتخّذه السّلفيّة شعاراً ولواءاً من تكريس للخلافات وتمزيق للصفّ الإسلامي الواحد.

يقول:

«الأذى المتنوّع البليغ الذي انحطّ في كيان المسلمين من جرّاء ظهور هذه الفتنة المبتدعة فلقد أخذت تقارع وحدة المسلمين، وتسعى جاهدة إلى تبديد تآلفهم وتحويل تعاونهم إلى تناحر وتناكر، وقد عرف الناس جميعاً أنّه ما من بلدة أو قرية في أيّ من أطراف العالم الإسلامي، إلّا وقد وصل إليها من هذا البلاء شظايا، وأصابها من جرّائه ما أصابها من خصام وفرقة وشتات، بل ما

رأيت أو سمعت شيئاً من أنباء هذه الصّحوة الإسلامية التي تجتاح اليوم كثيراً من أنحاء أوروبا وأمريكا وآسيا، مما يثلج الصدر، ويبعث على البشر والتفاؤل إلّا ورأيت أو سمعت بالمقابل من أخبار هذه الفتنة الشّنعاء التي سبقت إلى تلك الأوساط سوقاً، ما يملأ الصدر كرباً ويزجّ المسلم في ظلام من الخيبة الخانقة والتشاؤم الأليم.

كنت في هذا العام المنصرم ١٤٠٦هـ واحداً ممّن استضافتهم رابطة العالم الإسلامي للاشتراك في الموسم الثقافي، وأُتيح لي بهذه المناسبة أن أتعرّف على كثير من ضيوف الرّابطة الذين جاؤوا من أوروبا وأمريكا وآسيا وإفريقيا، وأكثرهم يشرفون في الأصقاع التي أتوا منها على مراكز الدّعوة الإسلامية أو يعملون فيها، والعجيب الذي لابدّ أن يهيّج آلاماً ممزقة في نفس كلّ مسلم أخلص لله في إسلامه، إنّني عندما كنت أسأل كلاّ منهم عن سير الدّعوة الإسلامية في تلك الجهات، أسمع جواباً واحداً يطلقه كلّ من هؤلاء الإخوة على انفراد، بمرارة وأسى خلاصته: المشكلة الوحيدة عندنا هي الخلافات والخصومات الطاحنة التي تثيرها بيننا جماعة السلفية.

ولقد اشتدّت هذه الخصومات منذ بضع سنوات، في مسجد واشنطون إلى درجة الجات السلطات الأمريكية إلى التدخّل، ثمّ إلى إغلاق المسجد لبضعة شهور!

ولقد اشتدّت هذه الخصومات ذاتها واهتاجت، في أحد مساجد باريس منذ ثلاثة أعوام، حتّى اضطرّت الشّرطة الفرنسية إلى اقتحام المسجد، والمضحك المبكي بآن واحد، أنّ أحد أطراف تلك الخصومة أخذته الغيرة الحمقاء لدين الله ولحرمة المسجد، لما رأى أحد الشرطة داخلاً المسجد

بحذائه فصاح فيه أن يخرج أو يخلع حذاءه، ولكن الشرطي صفعه قائلاً: وهل ألجأنا إلى اقتحام المسجد على هذه الحال غيركم أيّها السخفاء؟!

وفي إحدى الأصقاع النائية، حيث تُدافع أمّة من المسلمين الصادقين في إسلامهم عن وجودها الإسلامي، وعن أوطانها وأراضيها المغتصبة، تصوّب إليهم من الجماعات السلفية سهام الاتهام بالشّرك عن وجودها الإسلامي، وعن أوطانها وأراضيها المغتصبة، تصوّب إليهم من الجماعات السلفية سهام الاتهام بالشّرك والابتداع، لأنّهم قبوريون توسُّليّون، ثمّ تتبعها الفتاوى المؤكّدة بحرمة إغاثتهم بأيّ دعم معنوي أو عون مادي! ويقف أحد علماء تلك الأمّة المنكوبة المجاهدة، ينادي في أصحاب تلك الفتاوى والاتهامات: يا عجباً لإخوة يرموننا بالشّرك، على أنّنا نقف بين يدي الله كلّ يوم خمس مرّات نقول: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾[1]، ولكن الندّاء يضيع ويتبدّد في الجهات دون أيّ متدبّر أو مجيب»[2].

وأخيراً فإنّ حالات الإرهاب الفكري بالإضافة إلى أضرارها الداخلية وعونها للعدو الخارجي علينا فإنّها تشكّل إساءة وتشويهاً لسمعة الإسلام أمام سائر الشعوب، التي تمارس الحرّيّة الفكريّة والعلميّة في أجوائها على أوسع نطاق، فماذا سيكون انطباعهم عن دين يتبادل اتباعه التكفير والتفسيق، وتسود بينهم لغة القمع والبطش بغطاء ديني؟!

---

(١) الفاتحة (١): ٥.

(٢) السلفية مرحلة زمنيّة مباركة لا مذهب إسلامي: ٢٤٤.

في تعدّد المذاهب

تعدّد المذاهب في الديانات:

بنظرة عابرة يلقيها الباحث في تاريخ الأديان والمبادئ يجد أنّ ظاهرة تعدّد المذاهب والفرق تشكّل سمة وحالة لازمة ثابتة في جميع الأديان.

ففي بداية كلّ دين وأثناء حياة مؤسّسه يكون مدرسة واحدة وتيّاراً واحداً أمّا بعد فترة من الزمن وبعد ارتحال المؤسّس من الدّنيا فعادة ما يحصل الاختلاف والانشقاق بين أتباع ذلك الدّين وتتعدّد المذاهب والفرق ضمن الدّين الواحد، وفي مرحلة لاحقة يحدث الانشقاق والتعدّد داخل كلّ مذهب من المذاهب المتفرّعة عن الدّين الرئيسي.

فرق اليهودية

ففي اليهودية مثلاً هناك فرق عديدة تختلف فيما بينها على فهم الديانة وطقوسها وتعاليمها منها فرقة «الفرّيسيين» ؛ أي المنعزلون والمنشقّون كما يطلق عليهم بينما هم يسمّون أنفسهم «الأحبار في الله» أو «الرّبّانيّون».

ويرى هؤلاء «الفرّيسيّون» أنّ التوراة بأسفارها الخمسة خلقت منذ الأزل، وكانت مدوّنة على ألواح مقدّسة ثمّ أوحي بها إلى نبي الله موسى.

ويرون أنّ التوراة ليست هي كلّ الكتب المقدّسة التي يعتمد عليها وإنّما هناك بجانبها روايات شفوية ومجموعة من القواعد والوصايا والشروح والتفاسير تعتبر توراة شفوية يتناقلها الحاخامات جيلاً بعد جيل وهي التي يطلق عليها «التلمود».

وهناك فرقة (الصّدوقيون» ا لمنتسبون إلى «صادوق» الكاهن الأعظم في عهد سليمان، أو إلى كاهن آخر بهذا الاسم وجد في القرن الثالث قبل الميلاد، وينقل عن هؤلاء إنكارهم للبعث والحياة الأخرى والجنّة والنّار والتعاليم الشفوية «التلمود».

ومن فرق اليهودية فرقة «القرّاءون» وهم لا يعترفون إلّا بالعهد القديم كتاباً مقدّساً وينكرون «التلمود» ويقولون بالاجتهاد الذي يسمح لهم برفض أو تغيير بعض تعاليم وآراء السلف الماضي.

وأيضاً هناك فرقة«الكتبة» و«المتعصّبون» وغيرها من الفرق العديدة في الدّيانة اليهودية[1].

---

(١) اليهودية للدكتور أحمد شلبي: ٢٢٧ - ٢٣٤.

طوائف المسيحية

والدّيانة المسيحية هي الأخرى تعدّدت فيها المذاهب والطوائف قديماً وحديثاً، وكان منشأ الخلاف والتعدّد هو تحديد طبيعة السيّد المسيح عليه السلام حيث يرى مذهب «النسطوريين» المنسوب إلى «نسطور» بطريرك القسطنطينية سنة ٤٣١: أنّ مريم لم تلد إلهاً بل ولدت عيسى إنساناً غمره اللاهوت فيما بعد فاتّحدت فيه طبيعتان الإنسانية واللاهوتية بينما يعتقد المذهب اليعقوبي نسبة إلى داعيته يعقوب البرادعي والذي أخذت به الكنائس الشرقية أنّ طبيعة المسيح واحدة منذ ولادته فللسيّد المسيح - في نظرهم - أقنوماً إلهياً واحداً اتّحد بالطبيعة الإنسانية اتحاداً تامّاً بلا اختلاط ولا امتزاج ولا استحالة.

وعلى أساس هذين القولين وبالتطوير والتغيير فيهما نشأت طوائف أخرى كالملكانية والمارونية[1].

ولم يقتصر الخلاف بين الطوائف المسيحية على تحديد طبيعة المسيح بل تطوّر وتبلور في مختلف المجالات العقيدية والعبادية والسلوكية وأبرز الطوائف المسيحية حالياً هي:

(١) - **الكاثوليك**: وكنيستهم تسمّى الكنيسة الكاثوليكية أو الغربية أو اللاتينية أو البطرسية أو الرّسولية نسبة لمؤسّسها الأوّل «بطرس» كبير الحواريين ورئيسهم، والباباوات في روما خلفاؤه.

---

(١) المسيحية للدكتور أحمد شلبي: ١٦٢ - ١٦٤.

(٢) - الأرثـوذكس: وتسمّى كنيستهم كنيسة الرّوم الأرثوذكسية أو الشّرقية أو اليونانية فأكثر أتباعها من الروم الشرقيين وروسيا والبلقان واليونان وكان مقرّها الأصلي القسطنطينية وقد انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية أيام «ميخائيل كارو لاريوس» بطريرك القسطنطينية سنة١٠٥٤م وهي الآن مؤلّفة من عدّة كنائس مستقلّة.

(٣) - البروتستانت: وتسمّى كنيستهم الكنيسة الإنجيلية، ويرون أنّهم يتبعون الإنجيل دون غيره، ويعطون الحقّ لكلّ أحد في فهم الإنجيل فليس ذلك وقفاً على رجال الكنيسة فقط، وتنتشر البروتستانت في ألمانيا وانجلترا والدانمارك وهولندا وسويسرا والنرويج وأمريكا الشمالية[١].

ولإقرار مذهب البروتستانت حرّيّة الفكر والاجتهاد فقد تعدّدت شعبه وفرقه، ويختلف بعض هذه الطوائف عن البعض الآخر إلى حدّ أنّهم لا يكادون يبدون فرعاً لمذهب واحد واستمر انقسام طوائف البروتستانت حتّى اليوم إذ أصبح هناك ٢٠٠ طائفة مختلفة ولا تزال طوائف جديدة في سبيل الظهور.

وفي أوائل عام١٩٦٠م بلغ عدد الكاثوليك في العالم٣٥٣ مليوناً والأرثوذكس١٣٧ مليوناً والبروتستانت ١٧٠ مليوناً[٢].

---

(١) المصدر السابق: ١٩٩ و٢٠٠ و٢٠٢.

(٢) قصة الديانات لسليمان مظهر: ٤٦٢ – ٤٦٣.

اتّجاهات البوذية

رغم أن البوذية المنسوبة إلى «بوذا» الذي نشأ في الهند خلال القرن الخامس قبل الميلاد أقرب إلى الحالة الفلسفية الأخلاقية منها إلى الدّين العقائدي المتكامل، إلّا أنّها أيضاً تعدّدت فيها الاتّجاهات والفرق.

وقد قسّمها العلماء حسب الطابع العام إلى البوذية القديمة والبوذية الجديدة.

فالبوذية القديمة صبغتها أخلاقية، وميزتها سذاجة المنطق وإثارة العاطفة، وطابعها الحضّ على الخضوع لقوانين النظام، أمّا البوذية الجديدة فهي عبارة عن تعاليم بوذا مختلطة بآراء دقيقة في الكون وأفكار مجرّدة عن الحياة والنّجاة، مؤسّسة على نظريات فلسفية، وقياسات عقلية، قد سمحت بها قرائح المتأخرين.

ومن أبرز الفرق الفلسفية البوذية:

- فرقة تقول بوحدانية الله، وأنّه أوجد أوّلاً عدداً محدوداً من الأرواح، ثمّ ترك الإنشاء والتعمير مكتفياً بما وضعه في العالم من قوانين وقوى كالبذور تسير سيرها الطبيعي وهذه الأرواح هي التي تخلق الخير والشرّ.

- وفرقة ترى أنّه أودع هذه الأرواح التي أرسلها للعالم قوى تستطيع منها أن تعرف الخير من الشرّ، ومن أجل ذلك لا يرسل الله رسلاً اكتفاء بذلك.

- وتتكلّم كلّ الفرق عن التناسخ وارتباطه بالكارما، ولكن بعض الفرق ترى تناسخ النوع الإنساني مقصوراً عليه، وتناسخ الحيوان مقصوراً عليه، فلا تنتقل روح من إنسان إلى حيوان ولا العكس، وتزيد فرقة أخرى أنّ روح العالم لا تنتقل إلى صانع وهكذا[1].

(١) أريان الهند الكبرى للدكتور شلبي: ١٨١ - ١٨٢.

سائر الديانات والاتّجاهات

ولو تتبّعنا واستقرأنا سائر الديانات والاتجّاهات لوجدناها تشترك جميعاً في ظاهرة تعدّد المذاهب والطّوائف فالديّانة السيخية وهي واحدة من أحدث الدّيانات في العالم حيث ظهرت إلى الوجود في القرن الخامس عشر الميلادي في الهند، على يد «ناناك» الذي سعى إلى استحداث ديانة جديدة زعم أنّها تصل بين الإسلام والهندوسية ويصل عدد اتباع هذه الدّيانة إلى حوالي١٣ مليون يتركّز حوالي٩ ملايين منهم في (البنجاب) ويتوزّع الباقون في سائر أنحاء الهند.

هذه الدّيانة على محدوديتها وحداثتها تنقسم الآن إلى خمس طوائف رئيسية[١].

والاشتراكية الشيوعية هي الأخرى لم تعد مدرسة واحدة بل تعدّدت فيها الاتجاهات ففي حياة «كارل ماركس» (١٨١٨ - ١٨٨٣م) انشقّت الاشتراكية على نفسها سنة١٨٧٣م إلى فريق «باكونين» وفريق «كارل ماركس» ثمّ وقع انقسام آخر في الحركة الاشتراكية في فرنسا وفي مؤتمر رانس سنة١٨٨١م وبعد ذلك بعام في مؤتمر سانت اتيين بين «الإمكاينين» والماركسيين فالأوّلون كانوا يقولون بإجراء إصلاحيات تدريجية في سبيل تحقيق الاشتراكية في

(١) مجلة العربي الكويتية عدد ٣٤٨: ١٠.

النهاية وهاجموا برنامج الحدّ الأدنى الذي وضعه ماركس.

وقسّم ريمون آرون «R.aron» الماركسية إلى أسر مقدّسة متباينة: فهناك ماركسية كنتية (نسبة إلى فلسفة كانت الأخلاقية) حين تضع الاشتراكية هدفاً لها إيجاد ضمير أخلاقي اتّجاه الواقع الرأسمالي، وهناك ماركسية هيكلية تستند خصوصاً إلى «ظاهرية العقل» لهيجل ؛ وهناك ماركسية ذات نزعة علمية مستمدّة من كتاب «ضد دورنج»[١].

معروف افتراق الشيوعية في الصّين على يد ماوتسي تونغ عن سياسة شيوعية الاتحاد السوفيتي كما أنّ الأحزاب الاشتراكية في أوروبا الغربية تأخذ إلى حدّ ما منحى مستقلاً فكرياً وسياسياً.

(١) موسوعة الفلسفة ٢: ٤١٨ – ٤١٩.

المذاهب الإسلامية

ولم يكن الإسلام بمنأى عن هذه الظاهرة، بل حدث له ما يحدث لكلّ الأديان والمبادئ من انقسام أتباعه إلى عدّة مذاهب ومدارس وفرق.

ويروي بعض أصحاب الحديث عن رسول الإسلام محمّدﷺ أنّه كان يتوقّع حصول هذه الفرق والانقسامات في أمّته وفقاً لما حصل للأديان السّماوية السّابقة كاليهوديّة والمسيحيّة والمجوسيّة.

حيث يروى عنهﷺ أنّه قال: «افترقت اليهود على إحدى أو اثنين وسبعين فرقة وافترقت النصارى على إحدى أو اثنين وسبعين فرقة وتفترق أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة»[١].

وقد ورد هذا الحديث بصورة مختلفة في أغلب مصادر الحديث عن فرق المسلمين[٢]، وناقش العديد من العلماء مدى صحّة الحديث من حيث سنده ومن حيث انطباقه على الواقع الخارجي يقول العلامة الشيخ جعفر السبحاني:

وعلى كل تقدير فيجب إمعان النظر في المراد منه على فرض صحّة سنده والظاهر من الحديث أنّ أمّته تفترق إلى تلك الفرق الهائلة حقيقة غير أنّ

---

(١) المستدرك على الصحيحين ١: ١٢٨.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي ١٠: ٢٠٨ ومسند أحمد بن حنبل ٢: ٣٣٢ وسنن ابن ماجة ٢: ١٣٢٢ الحديث ٣٩٩٢ وعن طرق الشيعة في كتاب سليم بن قيس: ٣٣٢ وأمالي الطوسي: ٥٢٣..

المشكلة عند ذلك هو بلوغ الفرق الإسلامية هذا العدد...

ثمّ إنّ الذين ذهبوا إلى صحّة الحديث تمايلوا يميناً ويساراً في تصحيح مفاده بعد الإذعان بصحّة إسناده فقالوا: إنّ المراد من ذلك العدد الهائل هو المبالغة في الكثرة كما في قوله سبحانه: ﴿**إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ**﴾[1].

وأنت خبير بأنّ هذه المحاولة فاشلة لأنّها إنّما تصحّ إذا ورد الحديث بصورة سبعين أو غيرها من العقود العددية فإنّ هذا هو المتعارف ولكن الوارد غير ذلك، فترى أنّ النبيّ يركز في حقّ المجوس على عدد السبعين وفي حقّ اليهود على عدد الإحدى والسبعين وفي حقّ النّصارى على اثنين وسبعين وفي حقّ الأُمّة الإسلامية على ثلاث وسبعين وهذا التدرج يعرب بسهولة عن أنّ المراد هو البلوغ إلى هذا الحدّ بشكل حقيقي لا بشكل مبالغي...

وهناك محاولة جيدة لمحقق كتاب الفَرْقُ بين الفِرَق: وهي أنّه على فرض صحّة الحديث لا ينحصر الافتراق فيما كان في العصور الأولى فإنّ حديث الترمذي يتحدّث عن افتراق أُمّة محمّدﷺ وأُمّته مستمرّة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين فيجب أن يتحدّث في كلّ عصر عن الفِرَق التي نجمت في هذه الأمّة من أوّل أمرها إلى الوقت الذي يتحدّث فيه المتحدّث، ولا عليه إن كان العدد قد بلغ ما جاء في الحديث أو لم يبلغ، فمن الممكن بل المقطوع لو صحّ الحديث وقوع الأمر في واقع الناس على وفق ما أخبر به[2].

---

(١) التوبة: (٩): ٨٠

(٢) بحوث في الملل والنحل ١: ٣٥ – ٣٧ ((بتصرف)).

وبعيداً عن هذا الحديث فإنّ تاريخ الأُمّة الإسلامية وواقعها المعاصر يحكي عن تعدّدية في المذاهب والمدارس أبرزها حالياً:

- السنّة بمذاهبها الأربعة: (المالكي - الحنفي - الشافعي - الحنبلي).

- الشيعة بطوائفها الثلاثة: (الإمامية الاثنى عشرية - الزيدية - الإسماعيلية).

الخوارج والمعروف منهم حالياً: (الإباضية).

عوامل وأسباب

في حياة مؤسّس أيّ دين وبسبب التفاف الأتباع حوله وإيمانهم به، وممارسته دور القائد الذي يرجع إليه في مختلف الشؤون، فإنّ حصول الانشقاق وتعدّد المذاهب ضمن ذلك الدين يكون مستبعداً ونادر الوقوع، ولكن إذا فارق القائد المؤسّس الحياة فإنّ المجال يصبح مفتوحاً لتعدّد الآراء واختلاف الإرادات بين أتباعه حيث تتأطّر وتتبلور على شكل مذاهب وطوائف وفِرَق بمرور الزّمن.

ولكن لماذا يحصل الانشقاق بين أتباع الدين الواحد؟ ولماذا تتعدّد المذاهب والطوائف فيه؟ وما هي العوامل والأسباب التي تنبثق منها هذه الظاهرة بشكل عام؟

يمكننا تسليط الضّوء على العوامل والأسباب التالية والتي هي مشتركة غالباً في جميع حالات تعدّد مذاهب الأديان:

أوّلاً: العامل الفكري: فبسبب تفاوت العقول والأفكار واختلاف مستويات الإدراك والمعرفة يحصل تباين في فهم معتقدات الدين وتفسير تعاليمه، وإذا كان القائد المؤسّس مرجعاً للحسم والفصل يخضع له الجميع في حياته، فليس هناك ما يدعو هذا الطّرف أو ذاك للتنازل عن فهمه ورأيه بعد وفاة المؤسس، بل يعتقد كلّ طرف أنّ فهمه ورأيه هو الأصحّ والأصوب، من هنا تبدأ بذور الانشقاق والتعدّد، وعلى أساس ذلك الاختلاف الفكري قد يحصل تعارض في المواقف السياسية أيضاً.

وكنموذج لتأثير الاختلاف الفكري في إنشاء المذاهب وتعدّديتها:

الانقسام الذي حصل بين علماء المسلمين أواخر القرن الأوّل الهجري إلى أهل الحديث وأهل الرأي فقد كان الفقهاء في الحجاز يعتمدون النصوص والأحاديث كمصدر أساسي لاستنباط الأحكام الشرعية ولا يعطون اعتباراً كبيراً للقياس والرأي بعكس فقهاء العراق القائلين بالقياس والرأي.

«وكان أهل الحديث يعيبون أهل الرأي بأنّهم يتركون الأحاديث لأقيستهم، والدين لا يقاس بالرّأي، وإنّما سمّوا أهل الرّأي لأنّ عنايتهم بتحصيل وجوه من القياس والمعنى المستنبط من الأحكام وبناء الحوادث عليها، وربّما يقدّمون القياس الجلي على آحاد الأخبار، وطريقتهم أنّ للشريعة مصالح مقصودة التحصيل من أجلها شرعت، فجعلوا هذه المصالح أصلاً من أصول الأدلّة إذا لم يجدوا نصّاً في الكتاب والسنّة الصحيحة عندهم، وقد كانت قليلة العدد لبعد العراق عن موطن الحديث.

وأمّا أهل الحديث فلم يجعلوا للرأي والقياس في استنباط الأحكام هذا المحل، واتسعت شقة الخلاف واحتدم النزاع وافترق أهل الفتيا إلى فرقتين[1].

ولم يقتصر الخلاف بين المنهجين على الجانب الفقهي بالطبع بل انعكست آثاره على المجالات العقيدية، فكان أهل الحديث يتعبّدون بظواهر الآيات والرّوايات ويبنون عليها عقائدهم دون التعميق في مفاهيمها أو قبول التأويل لمتشابهاتها، بينما كان أهل الرأي والذين أطلق عليهم «المعتزلة» فيما بعد يتمسّكون بالعقل أكثر من النقل ويؤولون النّقل إذا وجدوه مخالفاً

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ١: ١٥١.

لفكرتهم وكان التشاجر قائماً على ساقيه بين الفرقتين طوال قرون[١].

ويقسّم السيّد محمّد تقي الحكيم مناشئ الاختلاف الفقهي بين علماء المسلمين إلى قسمين:

١- الخلاف في الأصول والمباني العامة التي يعتمدونها في استنباطهم، كالخلاف في حجّية أصالة الظهور الكتابي، أو الإجماع، أو القياس، أو الاستصحاب، أو غيرها من المباني مما يقع موقع الكبرى من قياس الاستنباط.

٢- اختلافهم في مدى انطباق هذه الكبريات على صغرياتها بعد اتفاقهم على الكبرى سواء كان منشأ الخلاف اختلافاً في الضوابط التي تعطى لتشخيص الصغريات بوجهة عامة أم ادّعاء وجود قرائن خاصّة لها مدخلية في التشخيص لدى بعض وإنكارها لدى آخرين كأن يستفيد أحدهم من آية الوضوء، مثلاً - بعد اتفاقهم على حجّية الكتاب - أنّ التحديد فيها إنّما هو تحديد لطبيعة الغسل وبيان لكيفيته فيفتي تبعاً لذلك بالوضوء المنكوس بينما يستفيد الآخرون أنّه تحديد للمغسول وليس فيه أية دلالة على بيان كيفية الغسل ؛ أي أنّه لم يكن في مقام البيان من هذه الجهة فلابدّ من التماس بيان الكيفية من الرجوع إلى الأدلّة الأُخرى كالوضوءات البيانية وغيرها»[٢].

ولسنا الآن بصدد استعراض واستقصاء موارد الخلاف العقيدي والفقهي بين المذاهب الإسلامية ولكنّنا أشرنا فقط إلى نموذج لدور العامل الفكري العلمي في حصول المذاهب والفِرَق.

---

(١) بحوث في الملل والنحل ٢: ٧ ((بتصرّف)).

(٢) الأصول العامة للفقه المقارن : ١٨.

ثانياً: العامل السياسي والمصلحي: فالفراغ القيادي الذي يتركه المؤسّس يخلق حالة من التنافس على السلطة، وباستمرار فان التطلّع للحكم وجاذبية السلطة، والرغبة في المصالح كلّ ذلك يشجّع على حدوث الانشقاقات والخلافات، وقد يستعار لها غطاء عقيدي لتبريرها وكسب المؤيدين وكما أنّ الخلاف الفكري قد ينتج عنه خلاف سياسي، فإنّ الصراع السياسي والخلافات المصلحية قد تتحوّل إلى قناعات فكرية مذهبية.

وفي تاريخ المسلمين فإنّ العامل السياسي والمصلحي لعب دوراً أساسياً في تمزيق الأُمّة وتعدّد طوائفها ومذاهبها حتّى قيل ما سلّ سيف في الإسلام على شيء مثلما سلّ على الإمامة والخلافة[1].

ففي نفس اليوم الذي التحق فيه الرسول محمّدﷺ بالرفيق الأعلى وحتّى قبل أن يُوارى جثمانه الثرى تفجّرت مشكلة الخلافة والإمامة بين المسلمين، ويومها كانت بذور انشطار الأُمّة إلى طائفتين أساسيتين: طائفة السنّة والذين يرون عدم وجود نصّ ديني على تعيين خليفة لرسول الله وأنّ الأمر متروك لاختيار المسلمين، وطائفة الشيعة الذين يعتقدون بالنصّ على علي بن أبي طالب كخليفة وإمام مفترض الطاعة بعد رسول اللهﷺ.

كما وقد رافق بيعة المسلمين الخليفة الأوّل ملابسات وظروف كانت تهدّد وحدة الأُمّة بالخطر لكن حنكة الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام ومبدأيته ساعدت على إنقاذ الموقف.

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ١: ٢٤ ونصّه: ((الخلاف الخامس في الإمامة: وأعظم خلاف بين الأُمّة خلاف الإمامية إذ ما سلّ سيف الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سلّ على الإمامة في كلّ زمان)).

وإليك بعض المقتطفات التي يذكرها التاريخ للتدليل على دور العامل السياسي في إيجاد حالة التعدّد المذهبي والطائفي.

جاء في تاريخ ابن الأثير (الكامل في التاريخ) تحت عنوان: (حديث السقيفة وخلافة أبي بكر رضي الله عنه) ما يلي:

«لما توفّي رسول الله صلّى الله عليه وسلم اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ليبايعوا سعد بن عُبادة، فبلغ ذلك أبا بكر فأتاهم ومعه عمر وأبو عُبَيدْة ابن ا لجرّاح، فقال: ما هذا؟

فقالوا: منّا أمير ومنكم أمير.

فقال أبو بكر: منّا الأمراء ومنكم الوزراء، ثمّ قال أبو بكر: قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين عمر وأبا عبيدة أمين هذه الأُمّة.

فقال عمر: أيّكم يطيب نفساً أن يخلُف قَدَمَين قدّمهما النبي صلّى الله عليه وسلّم؟

فبايعه عمر وبايعه الناس.

فقالت الأنصار أو بعض الأنصار: لا نبايع إلّا عليّاً: قال: وتخلّف عليّ وبنو هاشم والزبير وطلحة عن البيعة.

وقال الزبير: لا أغمد سيفاً حتّى يبايع عليّ.

فقال عمر: خذوا سيفه واضربوا به الحجر، ثمّ أتاهم عمر فأخذهم للبيعة.

وقيل: لما سمع عليّ ببيعة أبي بكر خرج في قميص ما عليه إزار ولا رداء عجلاً حتّى بايعه، ثمّ استدعى إزاره ورداءه فتجلّله.

والصحيح: أنّ أمير المؤمنين ما بايع إلّا بعد ستة أشهر، والله أعلم.

وقيل: لما اجتمع الناس على بيعة أبي بكر أقبل أبو سفيان وهو يقول: إنّي لأرى عجاجةً لا يطفئها إلّا دمٌ، يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم؟

أين المستضعفان؟ أين الأذلّان عليّ والعبّاس؟ ما بال هذا الأمر في أقلّ حيّ من قريش؟ ثمّ قال لعليّ: ابسط يدك أبايعك، فوالله لئن شئتَ لأملأنّها عليه خيلاً ورجلاً، فأبى عليّ عليه السلام عليه، فتمثّل بشعر المتلمّس:

ولن يقيم على خسفٍ يُرادُ به ... إلّا الأذلّان عَيْر الحي والوَتَدُ

هذا على الخَسْفِ معكوسٌ وذا يُشَجّ فلا يبكي له أحَدُ

بل يُمتَّه

فزجره عليّ وقال: والله إنّك ما أردتَ بهذا إلّا الفتنة، وإنّك والله طالما بغيت للإسلام شرّاً! لا حاجة لنا في نصيحتك»[1].

واستطرد ابن الأثير في ذكر الحوادث والملابسات حول هذا الموضوع بما لا مجال لنقل جميعه هنا.

وجاء تمرّد الخوارج على الإمام عليّ أواخر معركة صفين لتنشأ على أساسه طائفة جديدة في تاريخ المسلمين وهم الخوارج والذين تعدّدت مذاهبهم فيما بعد كما عمّقت أحداث كربلاء الدامية ومقتل السبط الشهيد الحسين بن علي خطّ التشيع والموالاة لأهل البيت عليهم السلام.

هذا عن العامل السياسي أمّا العامل المصلحي المحض فيمكننا الاستشهاد بفرقة «الواقفة» في أوساط الشيعة.

---

(١) الكامل في التاريخ ٢: ٣٢٥ - ٣٢٦.

فالشيعة الإمامية يعتقدون باثني عشر إماماً، والإمام موسى الكاظم هو السابع منهم وحيث إنّه قضى فترة طويلة من حياته في السجون، فقد نصب له وكلاء لاستلام الحقوق الشرعية فاجتمعت أموال ضخمة عند بعضهم، فكان عند زياد بن مروان القندي سبعون ألف دينار، وعند علي بن أبي حمزة ثلاثون ألف دينار.

وهكذا عند غيرهما[١]، فلما توفّي الإمام موسى الكاظم عليه السلام، صعب على هؤلاء أن يتخلّوا عن تلك المبالغ ويضعونها تحت تصرّف الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، وهو الإمام المُطاع بعد أبيه الإمام موسى الكاظم عليه السلام، ولكي يبرّروا احتفاظهم بالأموال وتصرّفهم فيها ابتدعوا فكرة خلود الإمام الكاظم وأنّه القائم المُنتظَر وأنكروا موته. وتبعهم على ذلك نفر من الناس وأصبحوا فرقة ضمن الشيعة لكنّهم انقرضوا بعد مدّة من الزمن[٢].

ثالثاً: العامل الخارجي: يسعى أعداء كلّ دين أو تجمّع لتشجيع حالة الاختلاف والانشقاق في ذلك الدين أو المجتمع لإضعاف وحدته وشلّ فاعليته، ومن ثمّ فهم يعملون على تسريب وترويج الأفكار التي من شأنها تفريق المجتمع الواحد، كما يجتهدون في تأليب بعض القوى ضد البعض الآخر. ومن ناحية ثانية فإنّ اتساع رقعة الدين وتفاعل مجتمعات جديدة معه يُسبِّب دخول بعض العادات والأفكار والتقاليد غير المألوفة عند الأتباع السابقين فيحصل تعدّد في الفهم والأساليب.

وفي هذا المجال يرصد الباحثون الدور الذي قام به اليهودي «شاؤل»

---

(١) الإمامة والتبصرة لابن بابويه القمي: ٧٥.

(٢) حياة الإمام موسى بن جعفر للقرشي ٢: ٢٠٤.

اتّجاه المسيحية فقد كان يهودياً متعصّباً ضد المسيحيين حسب اعترافه وكما يقول عنه تلميذه المناصر له «لوقا» لأنّه كان راضياً بقتل المسيحيين، وكان يسطو على الكنيسة ويدخل البيوت، ويجرّ رجالاً ونساء ويسلّمهم إلى السّجن ولم يزل ينفث تهديداً وقتلاً على تلاميذ الرّبّ. هذا العدو الحاقد على المسيحية والمسيحيين تحوّل فيما بعد إلى رسول مجدّد ومؤسّس في الدّيانة المسيحية وأصبح اسمه «بولس الرّسول» وعلى يده دخلت في المسيحية تغييرات وتحريفات واسعة أثارت الخلاف والتمزّق في أوساط المسيحيين، فكيف حصل التحوّل والتغيّر في شخصية (شاؤل بولس)؟

يقول تلميذه (لوقا): وعندما كان بولس قريباً من دمشق، فبغته برق حوله نور من السّماء فسقط على الأرض، وسمع صوتاً قائلاً له: شاؤل لماذا تضطهدني؟

فقال: من أنت يا سيّد؟

فقال: الرّبُّ: أنا يسوع الذي تضطهده، فقال وهو مرتعد ومتحيّر: يا ربّ ماذا تريد أن أفعل؟

فقال له: قم وكرز بالمسيحية.

ويقول لوقا في خاتم هذه القصّة جملة ذات بال غيّرت وجه التاريخ هي: «وللوقت جعل يكرز في المجامع بالمسيح إنّ هذا هو ابن الله» ولم تكن هذه الفكرة قد عرفت من قبل فأصبحت نقطة التحوّل في الدّراسات المسيحية وقد حدث هذا التطوّر لشاؤل وهو في الطريق من أورشليم إلى دمشق.

وهكذا أخذ شاؤل - بولس الزمام في يده، فهو لم يرَ المسيح قط ولا

سمعه يتكلّم ولكنّه قال بصلة مباشرة بينه وبين المسيح. وبهذه الدّعوى لم يعد لأحدٍ حقّ في أن يناضله فيما ينشره من تعاليم ما دام يقول إنّه تلقّاها مباشرة من السّيّد المسيح.

وفي وسط المحنة التي كان يمرُّ بها المسيحيون استخفّ الطرب المسيحيين عندما رأوا بولس أكبر أعدائهم ينضمُّ إليهم، وقد تشكّك بعضهم في أمره ولكن (برنابا) دافع عنه وأحسن تقديمه إلى هؤلاء، وبعد أن أعلن بولس فكره الذي يتنافى مع المسيحية الحقيقية نفر منه زملاؤه وتلاميذه ولم يبق معه إلّا تلميذه لوقا[١].

وبولس هو الذي ابتدع عقيدة التثليث، وكوّن عيسى ابن الله أنزله ليضحّي بنفسه تكفيراً عن خطيئة البشر، وأمثالها من المعتقدات الجديدة[٢].

ويرى كثير من الباحثين أنّ عداوة بولس للمسيحية هي التي دفعته ليتظاهر بالدخول فيها ليستمرّ في حربها بسلاح جديد، سلاح التهديم من الداخل[٣].

أمّا في تاريخ الإسلام فيبدوا أنّ خططاً ومؤامرات كثيرة قد وضعت لتصنع بالإسلام ما صنعه بولس - شاؤل في المسيحية، وقد نجد بعضها إلى حدّ ما، في إثارة الخلافات بين المسلمين، وتشويه بعض معالم الفكر الإسلامي.

---

(١) المسيحيّة للدكتور أحمد شلبي: ٩٨ – ١٠٠.

(٢) المصدر السابق: ١٠٤.

(٣) المسيحية للدكتور أحمد شلبي: ١١٣.

فعندما قويت شوكة الرّسالة واشتدّ ساعدها، وتحطّمتْ أمامها كلّ قوّةٌ تنازعها، لم يرَ من كانوا يقفون أمامها ويصدّون عن سبيلها، إلّا أن يكيدوا لها عن طريق الحيلة والخداع. ولمّا كان أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود[١]، لأنّهم بزعمهم شعب الله المختار، فلا يعترفون لأحدٍ غيرهم بفضل، ولا يقرّون لنبيّ بعد موسى برسالة، فإنّ رهبانهم وأحبارهم لم يجدوا بُدّاً من أن يستعينوا بالمكر، ويتوسّلوا بالدهاء، لكي يصلوا إلى ما يبتغون فهداهم المكر اليهودي إلى أن يتظاهر بعضهم بالإسلام حتّى يخفى كيدهم، ويجوز على المسلمين مكرهم، وقد كان أقوى هؤلاء الكهّان دهاءً وأشدّهم مكراً: كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام، ولما وجدوا أنّ حيلهم قد راجت بما أظهروه من كاذب الورع والتقوى، وأنّ المسلمين قد سكنوا إليهم، وذلك بأن يدسّوا إلى أصوله التي قام عليها ما يريدون من أساطير وخلافات وأوهام وترهات[٢].

وكعب الأحبار هو كعب بن ماتع الحميري من كبار أحبار اليهود، قدم من اليمن، وأسلم في خلافة عمر بن الخطاب، وسكن المدينة، ثمّ تحوّل إلى الشّام في زمن الخليفة عثمان فاستصفاه معاوية وجعله من مستشاريه، ومات بحمص سنة ٣٤هـ بعدما ملأ الشّام وغيرها من البلاد الإسلامية برواياته وقصصه اليهوديّة[٣].

---

(١) إشارة لقوله تعالى (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ) المائدة (٥): ٨٢.

(٢) أضواء على السنّة المحمّدية لمحمود أبو رية: ١٤٥.

(٣) المصدر السابق: ١٤٨، ولاحظ نسبه وترجمته في المصادر التالية: تاريخ ابن معين ١: ١٨ و٣٥، العلل لابن حنبل ٢: ٥٢١، الجرح والتعديل للرازي ٧: ١٦١، الثقات لابن حبّان ٥: ٣٣٣، مشاهير علماء الأمصار: ١٩٠.

ويؤكّد العلّامة الشيخ جعفر السبحاني أنّ بعض الأفكار التي أصبحت مجالاً للاختلاف العقيدي بني المسلمين هي من صنع وبثّ كعب الأحبار هذا، فالمطالع في مروياته يقف على أنّه يركّز على القول بأمرين: التجسيم والرؤية رؤية الله[١].

أما وهب بن منبه فقد ذكر المؤرّخون أنّه فارسي الأصل جاء جده إلى اليمن في جملة من بعثهم كسرى لنجدة اليمن على الحبشة وكان يهودياً بعد أن كان مجوسياً ولد سنة ٣٤هـ وتوفّي بصنعاء سنة ١١٤هـ ويظهر من تاريخ حياته ومروياته أنّه أحد المصادر لانتشار نظرية نفي الاختيار والمشيئة عن الإنسان[٢]، هذه النظرية التي حدث حولها صراع عقيدي شديد بين المسلمين.

وإلى جانب العناصر اليهوديّة المندسّة كانت هناك عناصر مسيحية تظاهرت بالإسلام ولعبت دوراً فكريّاً في أوساط المسلمين ببثّ بعض المفاهيم واختلاق الأحاديث والروايات، ومن أبرز تلك العناصر المشبوهة: تميم بن أوس الداري وهو من نصارى اليمن أسلم سنة ٩هـ وسكن المدينة، والتحق بمعاوية في الشّام بعد مقتل عثمان ومات سنة ٤٠هـ وهو أوّل من استخدم أسلوب القصص بين المسلمين لعرض أخبار الأُمم السّالفة وروّج عبرها الأساطير والأفكار المسيحية.

ومنهم عبد الملك بن جريح الرومي وكان نصرانياً ولد سنة ٨٠ هـ وتوفّي سنة ١٥٠هـ وعنه صدرت أحاديث كاذبة موضوعة كثيرة.

---

(١) بحوث في الملل والنحل ١: ٨٣ - ٨٤.

(٢) المصدر السابق ١: ٩٠ – ٩١، ولاحظ ترجمته في المصادر التالية:

الطبقات الكبرى لابن سعد ٥: ٥٤٣، العلل لابن حنبل ٢: ٥٢٢، التاريخ الصغير للبخاري ١: ٣٠٩.

كما ويشير الأُستاذ محمّد أبو زهرة إلى أنّ مسألة خلق القرآن أو قدمه هي من المسائل التي أثارها المندسّون في المسلمين، وكم عانى المسلمون من صراع حول هذه المسألة؟

يقول أبو زهرة: «كثر القول حول القرآن الكريم في كونه مخلوقاً أو غير مخلوق، وقد عمل على إثارة هذه المسألة النصارى الذين كانوا في حاشية البيت الأموي وعلى رأسهم يوحنا الدمشقي الذي كان يبثّ بين علماء النصارى في البلاد الإسلامية طرق المناظرات التي تشكّك المسلمين في دينهم، وينشر بين المسلمين الأكاذيب عن نبيهم»[١].

ويرى الدكتور مصطفى الرّافعي أنّ مذهب «القدريّة» كانت بدايته في البصرة وأوّل من دعا إليه رجل يهودي وأخذه عنه غيلان الدمشقي ومعبد الجهمي، فهذا كان يدعو إلى القدرية في البصرة وقد قتله الحجاج، وغيلان كان يدعو إليها في الشام وقد قتله هشام بن عبد الملك[٢].

تلك كانت النماذج التي تكشف عن وجود عامل خارجي لعب دوراً مؤثّراً في حصول الانقسامات المذهبية في الأُمّة.

---

(١) بحوث في الملل والنحل ٢: ٢٥٣ نقلاً عن تاريخ المذاهب الإسلامية.

(٢) إسلامنا في التوفيق بين السنة والشيعة: ٥٩.

العلاقة بين المذاهب

وإذا كانت تعدّدية المذاهب والفِرَق ظاهرة طبيعية في جميع الأديان والمبادئ، فكيف كان يتمّ التّعامل والعلاقة بين المذاهب المختلفة ضمن الدين الواحد؟

بالطبع إنّ مستوى وعي الإنسان بالقيم ومدى التزامه بالأخلاق الفاضلة هو الذي يحدّد طريقة تعامله مع من يخالفه في الدين أو المذهب. ذلك أنّ الإيمان بقيمة الإنسان كإنسان وحقّه في أن يعيش حرّاً كريماً حسبما يشاء ويختار، هذا الإيمان يفرض على صاحبه احترام إرادة الآخرين والاعتراف بحرّيتهم في اختيار أديانهم ومذاهبهم ومعتقداتهم. وللتربيّة الأخلاقية دورها الفعّال والحاسم في تنظيم علاقة الإنسان بالآخرين وخاصّة من يختلف معهم.

ومؤلم حقّاً ما يحتفظ به التاريخ من سجلّات داميّة لحالات الصّراع والاضطهاد المتبادل بين أبناء الدين الواحد عند اختلاف مذاهبهم في فترات انحطاط الوعي وتدنّي المستوى الأخلاقي.

وإذا كانت هناك أعذار تلتمس ومبرّرات تفتعل للصراع والعداء بين أتباع الأديان المختلفة المتناقضة فما هي مبرّرات الصّراع بين أبناء الدين الواحد مع انتمائهم لعقيدة واحدة تجمعهم وإيمانهم بزعيم روحي واحد، ومع وجود القواسم المشتركة ومجالات الاتفاق التي هي أوسع وأكبر من مساحة الاختلاف فيما بين مذاهبهم؟

بالتأكيد لا سبب ولا مبرّر إلّا تفشّي الجهل وتدنّي الأخلاق وتحريك المغرضين المصلحين من الخارج أو الداخل.

ولقد عانت المجتمعات المسيحية في سالف الزّمان الأهوال والويلات من جرّاء الصّراعات والنزاعات الطائفية بين الاتجاهات المسيحية المختلفة، فالمسيحية التي ظهرت وأصبحت ذات سلطان بتبنّي الإمبراطور قسطنطين لها في مطلع القرن الرابع كانت مسيحية بولس والتي ابتدعت أشياء لا يرضى بها المسيحيون الأصليّون كإلوهية المسيح والتثليث وغيرهما، فبدأ صراع جديد اعتبر فيه المسيحيون الأصليّون متمرّدين، وأوقعت بهم المسيحية الإغريقية أو مسيحية بولس ألواناً من العنت والاضطهاد.

أمّا في تاريخنا الإسلامي ورغم إقرار الإسلام لحرّيّة العقيدة والفكر حيث يهتف قرآنه العظيم ﴿ **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾[1]، ورغم تأكيد التعاليم والتوجيهات الإسلامية على حسن الأخلاق والتعامل حتّى مع المخالفين في الدين ﴿**وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا**﴾[2]، ورغم كلّ النّداءات القرآنية والمحمّديّة التي تدعوا المسلمين للاتّحاد والتعاون والتآلف ونبذ حالة التنازع والتقاطع، رغم كلّ ذلك فقد شوّهت تاريخنا الإسلامي صفحات سوداء قاتمة من الخلافات والصّراعات الطائفية بين أتباع المذاهب الإسلامية وذوي الاتجاهات الفكريّة المختلفة في الأُمّة، ولا تزال تلقي بظلالها السلبية المقيتة على واقع الأُمّة المعاصر.

---

(١) البقرة (٢): ٢٥٦.

(٢) لقمان (٣١): ١٥.

بيد أنّ من الملاحظ حصول تلك الأوضاع الشّاذة في فترات التخلّف وانحطاط الوعي وسيطرة الجهل وتغلّب القوى الانتهازية والفاسدة على مقدّرات الأُمّة، وأمّا في أوساط الواعين المخلصين وعندما كانت أمّتنا الإسلامية في أوج عزّتها وتقدّمها الحضاري فقد كانت روح التسامح وحرّيّة الفكر ومنطق الحوار والتعامل الإيجابي هي اللغة السّائدة بين المذاهب والتيّارات المختلفة في الأُمّة.

وسنحاول فيما يلي من البحوث تسليط الأضواء ورصد مسيرة هذه الخطّين المتقابلين في الأُمّة: خطّ التسامح وحرّيّة الرّأي والفكر بين المذاهب والفِرَق والاتّجاهات، وخطّ العصبيّة الطّائفية والتّصادم والإرهاب الفكري.

المذاهب الإسلامية / أصول مشتركة

وإذا كانت هناك أسباب وعوامل أدّت إلى تعدُّد المذاهب والفِرَق في الأُمّة الإسلامية فإنّ هناك ضمانات مطمئنّة لحفظ وحدة الأُمّة وتماسك صفوفها ولمعالجة مضاعفات حالة الاختلاف والتعدّد، لتكون التعدّدية في الرّأي والخلاف في الموقف عاملاً إيجابياً يستثير العقول ويحرّك القوى ويدفع نحو التنافس الشريف والوصول للرأي الأفضل والموقف الأصوب.

ومن أهمّ تلك الضّمانات وأبرزها:

١ - الوعي والتوجيهات الأخلاقية: حيث يؤكّد الإسلام على ضرورة الاهتمام بالمصلحة العامة ومواجهة العدو الرئيسي، ويربّي أبناءه على الأخلاق الفاضلة للتعامل فيما بينهم وخاصّة عند الاختلاف والنزاع.

٢- الأُسس والأصول المشتركة: فرغم تعدّد المذاهب والفرق الإسلامية، ورغم أنّ الخلاف بينها أخذ منحى سلبياً في بعض الفترات، ووصل إلى حدّ التنازع والتقاتل، إلّا أنّ من نعم الله تعالى على هذه الأُمّة اتفاقها على أُسس الدين وأصوله، وعلى أكثر قضاياه وأحكامه، فالاختلاف بين المذاهب الإسلامية حاصل في جزئيات العقائد، وتفاصيل القضايا وتطبيقاتها وفي الفروع والأحكام الجانبية.

وهذا الاتفاق على الأُسس والأصول يشكّل ضمانة كبيرة لحفظ وحدة الأُمّة وتماسك كيانها، كما يشكّل أرضية مناسبة لمعالجة نقاط الاختلاف

وموارد الافتراق.

لكن ذلك مشروط بتوجه الأُمّة وتركيزها على هذا الاتفاق والاشتراك في الأصول والأُسس، والانطلاق منه للتعامل مع مسائل الاختلاف بروح وحدوية إيجابية، أمّا حين تتغافل الأُمّة وتتناسى موضوع الاتفاق الأهم في الأصول، وتتوجّه لتضخيم قضايا الاختلاف على الفروع والجزئيات فإنّ ذلك يهدّد وحدة الأُمّة بالتزلزل والاهتزاز.

ونستعرض هنا أهم الأُسس والأصول التي تجمع الأُمّة وتتفق عليها بشكل إجمالي مع وجود اختلاف بين المذاهب في جزئيات وتفاصيل تلك الأُسس.

أولاً: أصول العقيدة:

حيث يتفق المسلمون على أنّها ثلاثة لا يتحقّق الإسلام بدونها ولا يضرّ الاختلاف فيما عداها، وهي الإيمان بالله وبالنبوّة وبالمعاد يوم القيامة، فليس مسلماً من أنكر وجود الله ووحدانيته، ولا من جهل نبوّة النبي محمّدﷺ، ولا من شكّك في البعث والمعاد بعد الموت في القيامة، أمّا تفاصيل كلّ أصل من هذه الأُصول الثلاثة، كصفات الله الثبوتية والسلبية، وخصائص الرسول وجوانب حياته، وجزئيّات قضايا الآخرة والمعاد، فهي ساحة واسعة للبحث والنقاش واختلاف الرأي بين المذاهب بل بين اتباع المذهب الواحد في كثير من الأحيان.

ذلك أنّ القضايا العقيدية في الأصول تعتمد على عقل الإنسان وإدراكه ولا مجال فيها للاتباع والتقليد دون برهان ودليل.

ثانياً: القرآن الكريم:

فهو الكتاب الإلهي الوحيد الذي بقي مصاناً محفوظاً من أن تمسه يد التحريف والتغيير، كما حدث للكتب السماوية السابقة - التوراة والإنجيل وغيرهم - وإذا كان اليهود يختلفون فيما بينهم على أسفار كتابهم المقدّس المعروف بالعهد القديم، فبعض أحبار اليهود يضيفون أسفاراً لا يقبلها أحبار آخرون... وإذا كان النصارى يختلفون في أسفار إنجيلهم المعروف بالعهد الجديد ويلغون بعضها حسب قرارات مجمع نيقية سنة٣٢٥م ثمّ يتفقون على أربعة أناجيل (إنجيل متى - إنجيل مرقس - إنجيل لوقا - إنجيل يوحنا) بالإضافة إلى مجموعة رسائل، ولا تتّحد هذه الأناجيل نصّاً ومضموناً. إذا كان هذا حال اليهود والنصارى مع كتبهم المقدّسة، فليس الأمر كذلك عند المسلمين والحمد لله، فهم يؤمنون جميعاً بالقرآن الكريم، على اختلاف مذاهبهم وفرقهم، وهو هذا القرآن المتداول عندهم دون تشكيك في أيّ سورة أو آية أو حرف منه زائداً أو ناقصاً لأنّ الله تعالى يقول: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[1].

أمّا بعض الروايات الواردة في كتب الأحاديث كصحيح البخاري والكافي وغيرهما[2]، والتي تشير إلى حدوث تحريف وتغيير في القرآن

---

(١) الحجر (٥): ٩.

(٢) (آية الرجم عن عمر): صحيح البخاري ٨: ٢٦، صحيح مسلم ٥: ١١٦.

(رضاع الكبير عشراً عن عائشة): سنن ابن ماجة ١: ٦٢٥، ح١٩٤٤.

(سقوط آيتين من المصحف): الإتقان في علوم القرآن ٢: ٦٨، ح٤١٢٨.

(روايات التحريف عن طرق الشيعة):

(...ائتمنوا على كتاب الله فحرّفوه وبدّلوه): الكافي ٨: ١٢٥، ح٩٥.

(وان كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا »في علي« فأتوا بسورة من مثله) الكافي ١: ٤١٧، ح٢٦.

الحكيم فهي مرفوضة عند جميع المسلمين.

نعم هناك اختلاف في تفسير بعض آيات القرآن وتحديد مقاصدها ليس بين المذاهب فقط وإنّما بين العلماء والمفسّرين حتّى المنتمين منهم لمذهب واحد.

ثالثاً: معالم الشريعة:

فالفرائض والعبادات الإسلامية هناك اتفاق على أصولها وهيكليتها العامة وإن كان هناك اختلاف في بعض الجزئيات والتفاصيل، فالصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان، والحجّ، والزكاة، والخمس، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كلّها متفق على إجمالها وكذلك أصول المعاملات والعقود كالزواج والطلاق والإرث والقضاء وسائر مجالات الشريعة غالباً ما يتّفق المسلمون على معالمها وكلّياتها وقد يختلف الفقهاء حتّى من اتباع المذهب الواحد في الجزئيات والتفاصيل.

ولو قمنا بدراسة تفصيلية لتحديد مساحات الاتفاق والافتراق بين المذاهب الإسلامية عقيدياً وفقهياً، لوجدنا أنّ الاختلاف هو الأضيق مساحة والأقلّ شأناً، بينما يشمل الاتفاق أغلب المسائل وأهمّها، ولكن مشكلة المسلمين تكمن في وجود من يثير ويضخم مسائل الاختلاف لأهداف مغرضة مشبوهة.

وتأكيداً لهذه الحقيقة المهمّة نستعرض آراء وكلمات بعض العلماء

(يقول المصحف: يا ربّ حرّفوني ومزّقوني): الخصال: ١٧٤، ح٢٣٢

(اللهمّ العن الذين كذّبوا رسلك وهدموا كعبتك وحرّفوا كتابك): كامل الزيارات: ٣٦٢، الحديث١، باب٧٩.

والمفكّرين المخلصين الذين انبروا للدفاع عن وحدة الأُمّة، والتأكيد على الجوامع والقواسم المشتركة بين فرقها ومذاهبها.

كتب الإمام الشيخ محمّد الحسين كاشف الغطاء[١]، في مجلّة رسالة الإسلام ما يلي:

«إنّ المسلمين جميعاً مهما اختلفوا في أشياء من الأصول والفروع فإنّهم قد اتفقوا على مضمون الأحاديث المقطوع عندهم بصحّتها من أنّ من شهد الشهادتين، واتخذ الإسلام ديناً له، فقد حرم دمه وماله وعرضه، والمسلم أخو المسلم، وأنّ من صلّى إلى قبلتنا، وأكل من ذبيحتنا، ولم يتديّن بغير ديننا فهو منّا، له مالنا وعليه ما علينا...

وكفى بالقرآن جامعاً لهم مهما بلغ الخلاف بينهم في غيره، فإنّ رابطة القرآن تجمعهم في كثير من الأصول والفروع، تجمعهم في أشدّ الروابط من التوحيد والنبوّة والقبلة وأمثالها من الأركان والدعائم واختلاف الرأي فيما يستنبط أو يفهم من القرآن في بعض النواحي اختلاف اجتهادي لا يوجب التباغض والتعادي»[٢].

وكتب العلامة الشيخ محمّد جواد مغنية يقول:

«المسلم من صدق مقتنعاً بكل ما اعتبره الإسلام من الأصول والفروع، والأصول ثلاثة: التوحيد، والنبوّة، والمعاد، فمن شكّ في أصل منها أو ذهل عنه قاصراً فليس بمسلم، ومن آمن بها جميعاً جازماً فهو مسلم...

---

(١) من أشهر مراجع الشيعة المصلحين، ولد سنة ١٢٩٤هـ وتوفّي ١٣٧٣هـ في النجف الأشرف، وله العديد من الكتب العلمية والأدبية والمواقف السياسية الشجاعة.

(٢) مجلة رسالة الإسلام، السنة الثانية، العدد الثالث تحت عنوان: ((بيان للمسلمين)).

ويكفي من التوحيد الإيمان بوحدة الله تعالى، وقدرته وعلمه وحكمته، ولا تجب معرفة صفاته الثبوتية والسلبية بالتفصيل، ولا أنّها عين ذاته أو غيرها.

ويكفي من النبوّة الإيمان بأنّ محمّداًﷺ رسول من الله صادق فيما أخبر به، معصوم في تبليغ الأحكام...

ويكفي من المعاد الاعتقاد بأنّ كلّ مكلف يحاسب بعد الموت على ما اكتسبه في حياته وأنّه ملاق جزاء عمله، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرٌّ، أمّا أنّه كيف يحاسب العبد؟ وعلى أيّة صورة بالتحديد يكون ثواب المحسن وبأيّ لون يعاقب المسيء؟ فلا يجب التديّن بشيء من ذلك، فالتوحيد والنبوّة والمعاد، دعائم ضرورية لدين الإسلام، فمن أنكر واحداً منها، أو جهله فلا يعدّ مسلماً شيعياً ولا سنياً.

أمّا الفروع التي هي من ضرورات الدين، فهي كلّ حكم اتفقت عليه المذاهب الإسلامية كافّة من غير فرق بين مذهب ومذهب، كوجوب الصلاة والصوم، والحجّ والزكاة، وحرمة الزواج من الأُمّ والأُخت وما إلى ذلك مما لا يختلف فيه رجلان من المسلمين فضلاً عن طائفتين منهم، فإنكار حكم من هذه الأحكام إنكار للنبوّة وتكذيب لما ثبت في دين الإسلام بالضرورة...

فالتديّن بالأصول أمر لابدّ منه للمسلم، ولا يعذر فيها الجاهل، أمّا إنكار الأحكام الفرعية الضرورية فضلاً عن الجهل بها، فلا يضرّ بإسلام المسلم إلّا مع العلم بأنّها من الدين، فالإمامة ليست أصلاً من أصول دين الإسلام وإنّما هي أصل لمذهب التشيّع، فمنكرها مسلم إذا اعتقد بالتوحيد والنبوّة والمعاد ولكنّه ليس شيعياً»[1].

وقد أصدر الإمام الأكبر محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر فتواه

---

(١) الشيعة في الميزان: ٢٦٧ – ٢٦٨.

التاريخية بالمساواة بين المذاهب الإسلامية وجواز التعبّد بأيّ منها وقال في جزء منها:

«إنّ مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الاثنى عشرية مذهب يجوز التعبدّ به شرعاً كسائر مذاهب أهل السنّة فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك وأن يتخلّصوا من العصبيّة بغير حقّ لمذاهب معيّنة فما كان دين الله وما كانت شريعته بتابع لمذهب معين أو مقصورة على مذهب فالكلّ مجتهدون مقبولون عند الله تعالى»[١].

ويقول الشيخ محمّد خليل الزين: «مهما تعدّدت الفرق الإسلامية وتباينت في العقائد فإنّ مرجع تلك العقائد واحد فجميع الفرق تعتقد أنّ الإسلام أفضل الأديان وأكملها وأتمّها وأنّ محمّداًﷺ أفضل الرسل وسيّدهم وخاتم الأنبياء وأنّ القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه بواسطة جبرائيل آية للعالمين.

فالفِرَق بأسرها متفقة على أصول العقائد الإسلامية وكلّها ترمز نحو حقيقة وهدف واحد واختلاف في التطبيق والاتّجاه لا يخرجها عن كونها مسلمة تتمسّك بالأصول الإسلامية واختلاف الفرق في فهم أصول العقائد ليس بحديث بل يرجع تاريخه إلى عصر الخلفاء الراشدين»[٢].

وكتب العالم الكبير الشيخ محمّد الغزالي يقول: «ولم تنج العقائد من عقبى الاضطراب الذي أصاب سياسة الحكم ؛ ذلك أنّ شهوات الاستعلاء والاستئثار أقحمت فيها ما ليس منها فإذا المسلمون قسمان كبيران شيعة وسنّة مع أنّ الفريقين يؤمنان بالله وحده وبرسالة محمّدﷺ، ولا يزد أحدهما على

(١) السنّة والشيعة حجّة مفتعلة: ١٩ -٢٠.

(٢) تاريخ الفرق الإسلامية : ٧.

الآخر في استجماع عناصر الاعتقاد التي يصلح لها الدين وتلتمس النجاة... فإنّ الفريقين يقيمان صلاتهما بالإسلام على الإيمان بكتاب الله وسنّة رسوله ويتفقان اتفاقاً مطلقاً على الأصول الجامعة في هذا الدين فإن اشتجرت الآراء بعد ذلك في الفروع الفقهية والتشريعية فإنّ مذاهب المسلمين كلّها سواء في أنّ للمجتهد أجره أخطأ أم أصاب...

وعندما ندخل مجال الفقه المقارن ونعيش الشقة التي يحدثها الخلاف الفقهي بين رأي ورأي أو بين تصحيح حديث وتضعيفه نجد أنّ المدى بين الشيعة والسنّة كالمدى بين المذهب الفقهي لأبي حنيفة والمذهب الفقهي لمالك أو الشافعي»[1].

وقد كتب الأستاذ عميد زنجاني بحثاً جميلاً حول وفاق المذاهب الإسلامية على الصعيد الفقهي نقتبس من بحثه القيّم المقاطع التالية:

الأحكام الفقهية على قسمين:

الأوّل: وهو الحجر الأساس للفقه الإسلامي وهو أصول العبادات، وأصول المعاملات وساير الأُسس المتفق عليها في شتّى أبواب الفقه من القضاء والحدود والديات، وهذه دعائم الفقه ومحكماته التي لم يختلف فيها أساطين الفقه وفقهاء المذاهب الإسلامية.

الثاني: الفروع التي لا يضرّ الاختلاف فيها سواء أكانت في الشؤون العملية أم في المسائل النظرية.

---

(١) السنة والشيعة حجّة مفتعلة: ٢٠ نقلاً عن كتاب كيف نفهم الإسلام للشيخ محمّد الغزالي: ١٤٢ – ١٤٥.

من الضروري أن نعرف أنّه هل الوفاقيات هي العمدة في الأهمّيّة والقيمة أم الخلافات بعد تسليط الضوء على المسائل الفقهية نرى وفاق جميع فقهاء السنّة والشيعة في الصلوات الواجبة وعددها، وأصول أوقاتها، وأركانها، وأجزائها الرئيسية، وعمدة الشرائط المعتبرة فيها، وأمّا الخلاف فقد وقع في مثل التكتّف هل هو راجح أو جائز أم لا؟

وأنّ المأكول والملبوس هل يجوز السجود عليهما أم لا؟

ونرى في صيام شهر رمضان كذلك أنّ وجوبه والمحرّمات الرئيسية والمبطلات الأصلية مشتركة بين الفقهاء، وموقع الخلاف في فروع: مثل بقايا الغذاء المتخلّفة بين الأسنان إن ابتلعها عامداً نهاراً.

ومن العبادات الهامة الحجّ فأعمال العمرة من الإحرام والطواف وصلاة الطواف والسعي والتقصير وكذا أعمال الحجّ من الإحرام والوقوف بعرفة والمزدلفة وأعمال منى وغيرها ممّا اتّفق الكلّ عليه وكذا كثير من محرّمات الإحرام وإن اختلفوا في أنّ المحرم هل يجوز له خطبة النساء في حال الإحرام أم لا؟

كما أنّ الأقوال الفقهية المتفق عليها بين جميع المذاهب الفقهية من مذاهب السنّة والشيعة تبلغ حدّاً موفوراً بحمد الله، كذلك حين نقارن فتاوى الشيعة من مذاهب السنّة نجد أكثرها موافقة لأحد الأقوال من فقهاء أحد المذاهب الأربعة. وقد نرى من تلك الوفاقيات حتّى في أصول الأدلّة الفقهية، مثلاً الشيعة لا تستند على القياس عند اليأس من العثور على النصّ في الكتاب والسنّة، بل تنتقل رأساً إلى الإباحة في الشبهات البدوية وإلى الاحتياط في الشبهات المقرونة بالعلم الإجمالي ونرى ابن حزم يوافق الشيعة وصنف كتاباً

في أبطال القياس والرأي والاستحسان.

يرى فقهاء الإمامية اشتراط الاجتهاد في القاضي وقد وافق عليه الإمام الشافعي، وقال الشيعة بجواز شهادة الصبيان إذا بلغوا عشر سنين في الجراح والشجاج بشرط عدم تفرّقهم وبشرط اجتماعهم على المباح وقد وافق الإمام مالك على هذا الرأي.

من الجدير بالذكر أنّا نجد في التاريخ شخصيات عديدة من فقهاء الشيعة قد تصدّوا كرسي التدريس والإفتاء على المذاهب الأربعة وغيرها، وكان منهم شيخ الفقهاء أبو جعفر الطوسي وقد تصدى لكرسي التدريس بدعوة من الخليفة العباسي القائم بأمر الله المتوفّي٤٦٧هـ.

وكتابه الخلاف في الأحكام لنموذج من عمله الوافر وإحاطته بالأقوال والمذاهب الفقهية تتلمذ عليه ٣٠٠ من مجتهدي عصره من السنّة والشيعة.

اتفق جمهور فقهاء الإسلام في قواعد تبتني عليها شتّى الأحكام الشرعية ويستقي كثير من الآراء الفقهية من ينابيعها:

منها: القاعدة المتّخذة عن قوله ﷺ: «كلّ شيء لك حلال حتّى تعلم أنّه حرام بعينه»[١].

ومنها: قاعدة الرفع المأخوذة عن حديث الرفع[٢].

ومنها: قاعدة لا ضرر ولا ضرار في الإسلام[٣].

---

(١) الكافي ٥: ٣١٣، باب النوادر، ح ٤٠.

(٢) التوحيد: ٣٥٣، باب الاستطاعة، ح ٢٤، كنز العمال ٤: ٢٣٣، ح١٠٣٠٧.

(٣) الكافي ٥: ٢٨٠، باب الشفعة، ح ٤ بدون قيد «الإسلام» ومع قيد «في الإسلام» في معاني الأخبار: ٢٨١، وفي المستدرك للحاكم النيسابوري ٢: ٥٨ بدون قيد في الإسلام وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٤: ١١٠ مع قيد «في الإسلام».

ومنها: قاعدة نفي العسر والحرج[١].

المتخذة من قوله تعالى ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾[٢].

ومنها: قاعدة اليد المأخوذة من قوله صلى الله عليه وآله: «على اليد ما أخذت حتّى تؤدي»[٣].

ومنها: قاعدة من ملك شيئاً ملك الإقرار به[٤].

هنا مساحة كبيرة من الاتّفاق في مجال الحديث والعلوم النقلي المأثور:

إنّ المطالع لكتب الحديث المتداولة والموثوق بها لدى كلّ من أهل السنّة والشيعة يجد أن الأحاديث التي تتفق في اللفظ أو المعنى أكثر من الأحاديث التي ينفرد بها مذهب خاص. هذا الاتفاق لا يختصّ بموضوع دون آخر بل يتّسع وينسحب إلى شتّى الموضوعات والمجالات. فنرى طائفة كبيرة من الروايات المشتركة في الفقه، كما نجد قسماً عظيماً منها في العقائد والأخلاقيات والآداب وغيرها من الموضوعات الإسلامية، وقد ثبت أن أئمة الحديث والفقه من أهل السنّة كانوا يروون عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ومحدّثي الشيعة وكبار علمائهم، روى أصحاب الصحاح الستة عن رجال من الشيعة

---

(١) الكافي ٣: ٤.

(٢) الحج (٢٢): ٧٨، واستدل على قاعدة نفي العسر والحرج أيضاً:
بقوله تعالى: (مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ) المائدة (٥): ٦.
وبقوله تعالى (لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا) البقرة (٢): ٢٨٦

(٣) عوالي اللئالي ١: ٢٢٤، مسند أحمد ٥: ١٣ لكن نصه: »على اليد ما أخذتْ حتّى تؤديه«.

(٤) لا توجد روايات تدل بالصراحة عليها بل تمسّك الفقهاء بها كالشيخ الطوسي (في المبسوط ٣: ١٩) وابن إدريس الحلّي (في السرائر ٢: ٥٧) والعلامة الحلّي (في تذكرة الفقهاء ١٤: ١٦٩) وغيرهم.

كأبان بن تغلب وجابر الجعفي ومحمّد بن حازم وعبيد الله بن موسى وغيرهم، وكان المقياس في العمل بالحديث ورواية الراوي هو الثقة بصدق الراوي وأمانته في النقل ـ سنياً كان أو شيعياً ـ كالحكمة التي يأخذها المؤمن متى وأنى وجدها.

وهذا هو نفس المقياس الذي يعتمد عليه عند الشيعة الإمامية . وكان محدّثوا الشيعة كثيراً ما يروون الأحاديث النبوية بطرق غير أئمّة الشيعة كثيراً ما يروون الأحاديث النبوية بطرق غير أئمّة أهل البيت وأصحابهم، وفقهاء الشيعة يستندون في الأحكام الشرعية إلى الأحاديث المروية ممن خالفهم في المذهب إذا توفّرت شرائط الحديث واسموا أخبارهم بالموثّقات[1].

لا.. للتكفير:

أراد الإسلام لمجتمعه أن يكون مجتمعاً قائماً على التسامح والرحمة، وأن تكون أبواب المجتمع المسلم مفتوحة مشرعة على أبناء البشرية جمعاء لا استقطابهم واحتوائهم تحت راية الإيمان بالله والخضوع لشريعته. لذلك لم يتشدّد الإسلام في وضع شرائط ومؤهّلات الانتماء لكيانه الاجتماعي. فمجرّد إعلان الشهادتين (لا إله إلّا الله محمّد رسول الله) كاف لقبول عضوية الفرد في مجتمع المسلمين، بأن يصبح جزءاً منهم له ما لهم وعليه ما عليهم . ثمّ يبقى المجال مفتوحاً لتفاوت مستوى الإخلاص ودرجات الإيمان والتقوى بين أفراد المجتمع.

ولأنّ في الناس من يحاول إلباس الدين ثوب أنانيته ونظرته الضيّقة أو

(١) مجلة التوحيد، العدد٧، السنة الثانية: ٥٠ – ٥٥.

المصلحية فقد حارب الإسلام ورفض أيّ دور «بوليسي» على بوّابة الإسلام، بأن ينصب أحد من نفسه شرطياً يطرد الراغبين في الدخول إلى رحاب المجتمع الإسلامي، أو يحكم بإخراج أحد ممن يعيش في ظلال الإسلام.

فبنصّ قاطعٍ صريح ينهى الله سبحانه وتعالى عن رفض من يتظاهر بقبول الإسلام وإن كان ذلك المتظاهر قد خاض لتوّه معركة ضدّ الإسلام وقاتل المسلمين، يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾[1].

ففي الحرب إذا وجّه أحد المحاربين الكافرين تحيّة الإسلام (السلام عليكم) لأحد من المسلمين كإعلان منه بالانتماء للإسلام وجب على المسلمين قبوله واعتباره فرداً منهم مهما كانت دوافعه وخلفيّاته وسوابقه.

ونستعرض فيما يلي بعض الأحاديث والنصوص وآراء العلماء التي تؤكّد تسامح الإسلام وسعة رحاب كيانه الاجتماعي:

يقول الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق أحد أعلام السلفيين المعاصرين:

إنّنا نحكم لشخص ما أو لقوم ما بالإسلام إذا ظهر لنا من أحوالهم أو في إشارة ترشد إلى ذلك كأن نجدهم يصلّون أو يسيرون في طرقات المسلمين، أو يلبسون ملابسهم، أو يسمّون على طعامهم كالمسلمين، أو يشهدون أمامنا أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله.

والدليل على ذلك أنّ الله تعالى يقول: ﴿**وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ**

(١) النساء (٤): ٩٤.

السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾[١]، وهذا من الله إنكار على بعض المسلمين الذين قتلوا في الحرب رجلاً مع رفع يديه مستسلماً للمسلمين شاهداً شهادة الإسلام، ولذلك قال رسول اللهﷺ لأسامة بن زيد الذي قتل في الحرب رجلاً بعد أن قال لا إله إلّا الله: «أقتلته بعد أن قال لا إله إلّا الله! وما تفعل بلا إله إلّا الله إذا جاءت يوم القيامة»! فقال أسامة يا رسول الله، أنما قالها متعوّذاً! فقالﷺ: «هلا شققت عن قلبه»! وذلك أنّ هذا الرجل الذي قتله أسامة كان قتل طائفة من المسلمين فلمّا علاه أسامة بالسيف قال: لا إله إلّا الله! وفي هذه قرينة أكيدة تبلغ درجة الدليل أنّ مثل هذا كافر القلب وأنّه لم يقل ذلك إلّا خوفاً من السيف ومع ذلك أمرنا الرسول أن نكفّ عنه حتّى مع عدم أمننا من انقلابه علينا بعد ذلك وقتاله لنا. وهذا من أعظم الأدلّة على أنّ لا إله إلّا الله تحرّم علينا دم قائلها حتّى لو قطعنا بيقين أنّه كاذب في هذه الكلمة.

ومن الأدلّة أيضاً على وجوب معاملة الرجل معاملة المسلمين حتّى لو لم يقم عندنا الدليل على إسلامه حقيقةً قولُ النبيﷺ: «وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»[٢].

ولهذا قبل رسول اللهﷺ من كافّة الوفود التي جاءته إسلامها وشهد لها بذلك وعاملهم معاملة المسلمين مع أنّ كثيراً منهم لم يكن الإيمان قد دخل قلوبهم بعد، وكثير منهم كان يجهل حقائق الإيمان، كما قال تعالى: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾[٣].

---

(١) النساء (٤): ٩٤.

(٢) صحيح البخاري ١: ٩ و١٣.

(٣) الحجرات (٤٩): ١٤.

وهذه شهادة من الله سبحانه على أناس أنّهم لم يدخل الإيمان في قلوبهم بعد ومع ذلك أمرهم سبحانه أن يقولوا: أسلمنا، ولا شكّ أنّ قولهم أسلمنا يلزم المؤمنين أن يعاملوهم بالإسلام فيكفّوا عن دمائهم ويلقوا عليهم السلام ونحو ذلك من حقوق المسلم على المسلم.

بل أمرنا الكتاب والسنّة بالحكم بالإسلام لكلّ من أظهر شيئاً من الدين وأعلن الدخول في الإسلام حتّى لو كان منافقاً كاذباً كالأعراب الذين أعلنوا الإسلام ولم يفهموه ولم يعلموا حقائق الإيمان بعد، وكالمتعوّذين الخائفين الذين قد يعلنون الإسلام ويخفون من الكفر ما الله به عليم، وكلّ أولئك أمرنا الله أن نقبل علانيتهم وندع سرائرهم إلى الله سبحانه وتعالى، كما قبل النبيﷺ علانية المنافقين وعاملهم بذلك، ولم يعاملهم بما أظهر الله سبحانه وتعالى للنبي من أسرارهم، وبما وقف عليه الرسول نفسه من أخبارهم بل ترك معاقبتهم على سوء نيتهم لله سبحانه وتعالى[١].

وفي صحيح البخاري بسنده قال رسول اللهﷺ:

«مَنْ شهد أن لا إله إلّا الله، واستقبل قبلتنا، وصلّى صلاتنا، وأكل ذبيحتنا فهو المسلم، له ما للمسلم، وعليه ما على المسلم»[٢].

وفيه أيضاً بالإسناد إلى أنس قال: قال رسول اللهﷺ: «مَن صلّى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله فلا تخفروا الله في ذمته»[٣].

---

(١) فصول من السياسة الشرعية في الدعوة إلى الله: ٩٦ – ١٠٠.

(٢) صحيح البخاري ١: ١٠٣

(٣) المصدر السابق: ١٠٢.

وأخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول اللهﷺ إلى الحرقة فصبّحنا القوم فهزمناهم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلّا الله، فكفّ الأنصاري عنه فطعنته برمحي حتّى قتلته، فلمّا قدمنا بلغ النبيﷺ ذلك فقال : يا أسامة أقتلته بعدما قال لا إله إلّا الله؟ قلت: كان متعوّذاً.

قال: فما زال يكرّرها حتّى تمنّيت أنّي لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم[١].

وفي الصحيحين - واللفظ للبخاري - بالإسناد إلى المقدار بن عمرو أنّه قال: يا رسول الله، أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفّار فاقتتلنا فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها ثمّ لاذ منّي بشجرة فقال: أسلمت لله، أأقتله يا رسول الله، بعد أن قالها؟ فقال رسول اللهﷺ: لا تقتله فإن قتلته فإنّه بمنزلتك قبل أن تقتله - أي أصبح مؤمناً - وأنك بمنزلته قبل ان يقوم كلمته التي قال - أي تكون كافراً حرباً -[٢].

ويعلق السيّد شرف الدين رحمه الله على هذا الحديث قائلاً:

ليس في كلام العرب ولا غيرهم عبارة هي أدلّ على احترام الإسلام وأهله من هذا الحديث الشريف، وأي عبارة تكايله في ذلك أو توازنه وقد قضى بأنّ المقدار على سوابقه وحسن بلائه لو قتل ذلك الرجل لكان بمنزلة الكافرين المحاربين لله ولرسوله، وكان المقتول بمنزلة واحد من أعاظم السابقين وأكبر البدريين الأحديين، وهذه أقصى غاية يؤمها المبالغ في احترام

(١) المصدر السابق: ج٨، ٣٦ »بتلخيص« وصحيح مسلم ١: ٦٨ »بتلخيص«..

(٢) صحيح البخاري ٥: ١٩ وصحيح مسلم ١: ٦٦ - ٦٧.

أهل التوحيد فليتق الله كلّ مجازف عنيد[١].

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في خبر سفيان بن السمط قال: «الإسلام هو الظاهر الذي عليه الناس، شهادة لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأنّ محمّداً رسول الله صلى الله عليه وآله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وحجّ البيت وصيام شهر رمضان»[٢].

وقال سلام الله عليه في خبر سماعة: «الإسلام شهادة ان لا إله إلّا الله، والتصديق برسول الله صلى الله عليه وآله، وبه حقنت الدماء، وعليه جرت المناكح والمواريث، وعلى ظاهره جماعة الناس»[٣].

وقال الإمام محمّد الباقر عليه السلام في صحيح حمران بن أعين من جملة حديث: «والإسلام ما ظهر من قول أو فعل، وهو ا لذي عليه جماعة الناس من الفرق كلّها، وبه حقنت الدماء، وعليه جرت المواريث، وجاز النكاح، واجتمعوا على الصلاة والزكاة والصوم والحجّ، فخرجوا بذلك من الكفر وأضيفوا إلى الإيمان»[٤].

قال مغنية: قال «صاحب مصباح الفقيه» الآغا رضا الهمداني في الجزء الثالث من كتاب الطهارة ص٤٩: من أقر بالشهادتين يعامل معاملة المسلمين من جواز المخالطة والمناكحة والتوارث حتّى ولو علم نفاقه وعدم اعتقاده»[٥].

---

(١) الفصول المهمّة في تأليف الأمّة: ١٨ -١٩.

(٢) الكافي ٢: ٢٤.

(٣) المصدر السابق: ٢٥.

(٤) الكافي ٢: ٢٦، الحديث٥، باب «الإيمان يشرك الإسلام والإسلام لا يشرك الإيمان».

(٥) الشيعة في الميزان: ١١٦.

وهكذا أراد الإسلام لأبنائه أن يتربّوا على سعة الأفق ورحابه الصدر وروح التسامح ليستوعبوا ما قد يحدث بينهم من اختلاف في الرأي وتفاوت في الأفكار.

فما دام الجميع يرفعون شعار الإسلام ويعلنون الالتزام به فهم مسلمون مهما تعدّدت مذاهبهم وتنوّعت فرقهم. كيف والأصول واحدة متفق عليها بين المذاهب، والأُسس واحدة ينطلق منها الجميع؟!

بيد أنّ مرضاً خبيثاً تفشّى في بعض الأوساط الإسلامية هو مرض التسرّع في تكفير من يخالفهم في المذهب أو الرأي، فالإسلام عند هؤلاء المرضى محدود النطاق ضيق الإطار يتلخّص فيما يرونه ويعتقدونه ومن حادّ عنه قيد شعرة خلعوا عنه رداء الإسلام وحكموا بكفره وزندقته!

الخوارج أوّل من ابتدع التكفير:

بعدما اضطرّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام إلى قبول التحكيم في حربه بصفين ضد تمرّد معاوية بن أبي سفيان سنة٣٧هـ، تكتّل جماعة من جيش الإمام علي معلنين مخالفتهم للصلح مع معاوية وقبول التحكيم، وخرجوا على طاعة الإمام وبدؤوا بتكوين نظرية وفلسفة لخروجهم ورفضهم التحكيم، وتطرّفوا في موقفهم إلى حدّ الحكم بكفر الإمام علي، وشنّ الحرب ضد حكومته وقتل أتباعه وأصحابه[1].

ويذكر التاريخ بعض موارد تطرّفهم منها: «أنّهم أصابوا في طريقهم مسلماً ونصرانياً فقتلوا المسلم لأنّه عندهم كافر إذ كان على خلاف معتقدهم

(١) الكامل في التاريخ ٣: ٣٣٤.

واستوصوا بالنصراني وقالوا: أحفظوا ذمة نبيّكم[١]!

وأقبل واصل بن عطاء مسافراً مع رفقه له فاحسّ بالخوارج متمركزين في أحد منعطفات الطريق، فأصاب الهلع رفاقه من بطش الخوارج لكنّه طمئنهم بأنّه سيؤمّن لهم النجاة بادعائه أنّه وأصحابه مشركون أمام الخوارج، وبالفعل لم يعتد الخوارج عليهم بل طبّقوا عليهم قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ**﴾[٢]!

«قيل: لما أقبلت الخارجة من البصرة حتّى دنت من النهروان رأى عصابة منهم رجلاً يسوق بامرأة على حمار، فدعوه فانتهروه فأفزعوه وقالوا له: من أنت؟ قال: أنا عبد الله بن خبّاب صاحب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقالوا له: أفزعناك؟ قال: نعم. قالوا: لا روع عليك، حدّثنا عن أبيك حديثاً سمعه من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تنفعنا به. فقال: حدّثني أبي عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيها بدنه، يمسي فيها مؤمناً ويُصبح كافراً، ويُصبح كافراً ويمسي مؤمناً. قالوا: لهذا الحديث سألناك، فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى عليهما خيراً. قالوا: ما تقول في عثمان في أوّل خلافته وفي آخرها؟ قال: إنّه كان محقّاً في أوّلها وفي آخرها. قالوا: فما تقول في علي قبل التحكيم وبعده؟ قال : إنّه أعلم بالله منكم وأشدّ توقّياً على دينه وأنفذ بصيرة. فقالوا: إنّك تتّبع الهوى وتوالي الرجال على أسمائها لا على أفعالها، والله لنقتلنّك قتلة ما قتلناها أحداً.

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢: ٢٨٠.

(٢) التوبة (٩): ٦ شرح نهج البلاغة ٢: ٢٨١ »بتصرف«.

فأخذوه وكتفوه ثمّ أقبلوا به وبامرأته وهي حُبلى متم، حتّى نزلوا تحت نخل مواقير، فسقطت منه رطبة، فأخذها أحدهم فتركها في فيه، فقال آخر: أخذتها بغير حلّها وبغير ثمن، فألقاها. ثمّ مرّ بهم خنزير لأهل الذمّة فضربه أحدهم بسيفه، فقالوا: هذا فساد في الأرض، فلقي صاحب الخنزير فأرضاه، فلمّا رأى ذلك منهم ابن خبّاب قال: لئن كنتم صادقين فيما أرى فما عليّ منكم من بأس، إنّي مسلم ما أحدثتُ في الإسلام حدثاً، ولقد آمنتموني قلتم: لا روع عليك. فأضجعوه فذبحوه، فسال دمه في الماء، وأقبلوا إلى المرأة فقالت: أنا امرأة ألا تتّقون الله! فبقروا بطنها، وقتلوا ثلاث نسوة من طيّء، وقتلوا أمّ سنان الصيداويّة»[1].

هكذا ابتلى الخوارج بمرض تكفير المسلمين المخالفين لهم في الرأي، وكانت ظاهرة جديدة في الأُمّة، حيث لم يتجرّأ عليها أحد قبلهم مع حصول الاختلاف في الرأي والموقف والذي قد يصل إلى حدّ الاقتتال كمقتل الخليفة عثمان وحرب الجمل وحرب صفين دون أن يكفّر أحد من الطرفين الآخر.

وتسرّب هذا الداء الوبيل من الخوارج لغيرهم، وصار التكفير سلاحاً في معارك الخلاف المذهبي والفكري لدى الفئات المتعصّبة المتطرّفة، حيث تعتبر كلّ جهة متعصبة أنّ الإسلام محصور في عقيدتهم وفهمهم، وأنّ من خالف ذلك الفهم ولو أدنى مخالفة فهو خارج عن حظيرة الإسلام محكوم بالكفر أو الشرك!

فمثلاً ينقل عن محمّد بن موسى الحنفي قاضي دمشق المتوفي سنة٥٠٦هـ

---

(١) الكامل في التاريخ ٣: ٣٤١.

قوله: «لو كان لي أمر لأخذت من الشافعية الجزية»[١].

كما ينقل عن أبي حامد الطوسي المتوفي سنة٥٦٧هـ قوله: «لو كان لي أمر لوضعت عليهم [الحنابلة] الجزية»[٢].

ومعنى وضع الجزية اعتبارهم غير مسلمين يعاملون كأهل الكتاب.

وحينما طرح ابن تيمية الدمشقي المتوفّى سنة٨٦٧ هـ آراءه المخالفة لآراء سائر العلماء والمذاهب نودي في دمشق: «من اعتقد عقيدة ابن تيمية حل دمه وماله خصوصاً الحنابلة»[٣].

يعني أنّهم كفرة محاربون.

على أنّ الشيخ ابن حاتم الحنبلي يقول: «من لم يكن حنبلياً فليس بمسلم»[٤].

وعكسه الشيخ أبو بكر الواعظ البكري المتوفى ٤٧٦هـ في جوامع بغداد ذهب إلى تكفير الحنابلة[٥].

وهذا الشيخ الملقّب بسيف الدين الآمدي المتوفى سنة٦٣١هـ كان حنبلياً ثمّ صار شافعياً وتعصّب عليه جماعة من فقهاء البلاد وحكموا عليه بالكفر والزندقة[٦].

---

(١) تاريخ الإسلام ٣٥: ١٤٨.

(٢) المصدر السابق ٣٩: ٣٩٨.

(٣) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ١: ٨٩.

(٤) تذكرة الحفاظ ٣: ١١٨٧، وفي الوافي بالوفيات جاء اسمه هكذا «عتيق بن عبد الله البكري» ج١٩:٢٩٥.

(٥) شررات الذهب ٤: ٤٩.

(٦) لاحظ وفيات الأعيان ٣: ٢٥٦ – ٢٥٧.

ولعلّ من أعظم تلك الفتن التي وقعت بين المذاهب هي فتنة ابن القشيري الشافعي عندما ورد بغداد سنة٤٦٩هـ وجلس في النظامية وأخذ يذمّ الحنابلة وينسبهم إلى التجسيم، وكتب إلى الوزير يشكو الحنابلة ويسأله المعونة، وهجم أصحاب القشيري على زعيم الحنابلة عبد الخالق بن عيسى، ووقع قتال بين الطرفين وأغلق أتباع القشيري الشافعيون أبواب سوق مدرسة النظام، وغضب أبو إسحاق الشيرازي وكاتب فقهاء الشافعية نظام الملك غضباً لتسلّط الحنابلة واتسعت الفتنة وفكر الخليفة في حلّ هذه المشكلة واهتدى إلى سعيه في الصلح، فجمع القشيري وأصحابه وأبا جعفر الشريف زعيم الحنابلة وأصحابه بمحضر الوزير، فقام القشيري رئيس الشافعية والتفت إلى الوزير عندما طلب منه الصلح وقال: أيّ صلح يكون بيننا؟! إنّما يكون الصلح بين مختصمين على ولاية أو دين أو تنازع في ملك، فأمّا هؤلاء القوم فإنّهم يزعمون إنّا كفّار ونحن نزعم أنّ من لا يعتقد ما نعتقده كان كافراً فأيّ صلح يكون بيننا[1]؟!

محنة خلق القرآن:

وفي أواخر القرن الثاني الهجري أُثيرت مسألة على بساط البحث بين علماء المسلمين وهي تحديد هوية القرآن هل هو مخلوق محدث أوجده الله أو هو قديم لانتسابه لله سبحانه[2]؟

بالطبع ليس لنتيجة البحث هذا أيّ تأثير على أصول العقيدة ولا برامج التشريع ولا مصالح الحياة، بل هو بحث هامشي لا داعي له لذلك امتنع الأئمّة

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ١: ٦ »بتصرّف«.

(٢) لاحظ شرح الأصول الخمسة: ٥٢٧، ولاحظ بحوث في الملل والنحل ٢: ٢٥٣.

الهداة من الخوض فيه، فقد سأل الرّيّان بن الصلت الإمام علي بن موسى الرضاعليه السلام: ما تقول في القرآن؟ فقال: كلام الله لا تتجاوزوه، ولا تطلبوا الهدى في غيره فتضلوا»[١].

فالمهمّ هو الالتزام بالقرآن وعدم الضلال عنه.

وحدّث سليمان بن جعفر الجعفري قال: «قلت لأبي الحسن موسى بن جعفرعليهما السلام: يا ابن رسول الله ما تقول في القرآن؟ فقد اختلف فيه من قبلنا، فقال قوم: إنّه مخلوق، وقال قوم: إنّه غير مخلوق؟ فقالعليه السلام: أما إنّي لا أقول في ذلك ما يقولون، ولكنّي أقول: إنّه كلام الله»[٢].

إنّ امتناع الأئمّة من إعطاء رأيهم الصريح في الموضوع آنذاك إنّما هو ابتعاد منهم عن المشاركة في فتنة مشبوهة كما أشار إلى ذلك الإمام علي الهاديعليه السلام حيث كتب إلى بعض شيعته ببغداد الرسالة التالية: «بسم الله الرحمن الرحيم. عصمنا الله وإيّاك من الفتنة فإن يفعل فقد أعظم بها نعمة، وإن لا يفعل فهي الهلكة. نحن نرى: أنّ الجدال في القرآن بدعة اشترك فيها السائل والمجيب، فيتعاطى السائل ما ليس له، ويتكلّف المجيب ما ليس عليه، وليس الخالق إلّا اللهعزوجل، وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله، لا تجعل له اسماً من عندك فتكون من الضالين جعلنا الله وإيّاك من ﴿**الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ**﴾[٣].

ولكن هذه المسألة الجزئية الهامشية أصبحت ملاكاً وحدّاً فاصلاً بين

---

(١) عيون أخبار الرضاعليه السلام ٢: ٦٢.

(٢) توحيد الصدوق: ٢٢٤ باب القرآن ما هو، ح٥.

(٣) المصدر السابق: ج٤، الأنبياء (٢١): ٤٩.

الإيمان والكفر لدى المتعصّبين والمتطرّفين فهذا أبو عبد الله محمّد بن يحيى الذهلي (ت سنة٢٥٥) يقول: «من زعم أنّ القرآن محدثٌ فهو عندنا جهمي لا يشك فيه ولا يمترى»[١].

وشاع التكفير حتّى عند النساء يحدثنا الخطيب في تاريخ بغداد إنّ امرأة تقدّمت إلى قاضي الشرقية عبد الله بن محمّد الحنفي، فقالت: إنّ زوجي لا يقول بمقالة أمير المؤمنين في القرآن، ففرّق بيني وبينه[٢].

واتسع الخلاف بين المسلمين، من تكفير البعض للبعض فطائفة تقول إنّ من قال القرآن غير مخلوق فهو كافر، وعليه ابن أبي داود (ت٢٤٠هـ) وجماعته[٣]، حتّى إنّ الخليفة الواثق استفكّ من الروم أربعة آلاف من الأسارى، ولكنّه اشترط أنّ من قال القرآن مخلوق يخلى من الأسر، ويعطى دينارين ومن امتنع عن ذلك فيترك في الأسر ولا يفكّ، بمعنى أنّه رتّب آثار الكفر على من لم يقل بخلق القرآن[٤].

ولما قدم أحمد بن نصر إليه قال له الواثق: ما تقول في القرآن؟ [وكان أحمد ممن يذهب إلى أنّ القرآن غير مخلوق] فقال: كلام الله، وأصرّ على رأيه غير متلعثم فقال بعض الحاضرين: هو حلال الدم! وقال ابن أبي داود: هو شيخ مختل لعل له عاهة أو تغيّر عقله، يؤخّر أمره ويستتاب! فقال الواثق: ما أراه إلّا داعياً للكفرة، ثمّ دعا بالصمصامة فقال: إذا قمت إليه فلا يقومنّ أحد

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢: ٢٨٩.

(٢) تاريخ بغداد ١٠: ٧٤.

(٣) الكامل في التاريخ ٧: ٢٢.

(٤) لاحظ تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٣٩، ولاحظ الكامل في التاريخ ٧: ٢٤.

معي فإنّي احتسب خطاي إلى هذا الكافر الذي يعبد ربّاً لا نعرفه، ثمّ أمر بالنطع فأجلس عليه وهو مقيّد، وأمر أن يشدّ رأسه بحبل، وأمرهم أن يمدّوه، ومشى إليه برجله وضرب عنقه، وأمر بحمل رأسه إلى بغداد[١]!

أليس مؤلماً أن يسبّب الخلاف في الرأي مثل هذه الجرائم المرعبة؟

وأليس عجيباً أن يحدث مثل ذلك في أمُة يقوم دينها على التسامح ويدعو إلى الرحمة ويؤكّد على حريّة الإنسان وكرامته وحرمة المسلم ومكانته؟

وقد نال مذهب الشيعة الإمامية حصّة الأسد في فتاوى التكفير التي يصدرها المتعصّبون البعيدون عن روح الإسلام وأخلاقه وكان من أواخرهم الشيخ (نوح الحنفي) فقد أفتى بتكفير الشيعة وأوجب قتلهم وأباح سبي ذراريهم ونسائهم سواء تابوا أم لم يتوبوا[٢]!

المتعصّبون يشهّرون سلاح التكفير:

كان مؤمّلاً أن تتجاوز الأُمّة الإسلامية هذه التفاهات وتتخلّص من أمراض القرون الماضية في هذا العصر الحديث، وحيث تواجهها تحدّيات عظيمة، وتعيش في عصر التقدّم العلمي والتكنولوجي، ولكن ما يدعو إلى التألّم والأسف ظهور حركات وتوجّهات متعصّبة تريد إعادة ما حدث في التاريخ من صراعات طائفية مريرة تمزّق صفوف الأُمّة في وقت أحوج ما

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ١: ٢٨٦ »بتصرّف«.

(٢) العقود الدرّية في تنقيح الفتاوى الحامدية ٢: ١٧٨ باب البردّة والتعزير نقل نص فتوى الشيخ نوح صاحب الفتوى الحامدية لحامد بن علي العمادي الحنفي (ت١١٧١هـ) ونقّحه محمّد أمين بن عمر ابن عبد العزيز (ت١٢٥٢هـ) وسمّاه بـ»العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية«.

تكون فيه إلى الوحدة والتماسك لتدافع عن مقدّساتها المغتصبة وثرواتها المنهوبة، وعاد سلاح التكفير من جديد تشهرّه هذه الفئات في وجه من يخالفها المعتقد أو الرأي من المذاهب الإسلامية .

ويستنتج الشيخ محمّد جواد مغنية بعد مطالعته لأهم كتب المتعصّبين ما يلي:

«وأهم ما يلفت النظر في هذه الكتب هو الحرص الشديد على تكفير أُمّة محمّدﷺ - غيرهم - حرصاً بلغ حدّ الشهوة أو الانتقام، فمبدأهم الديني والاجتماعي والسياسي هو: أمّا أن تكون وهابياً وأمّا القتل لك، والنهب لأموالك والسبي لذراريك»[1].

كما يشير إلى ذلك الدكتور محمّد البهي عند دراسته لهؤلاء بقوله:

«وهنا في هذه المبالغة يكمن عامل الفرقة بينهم [المتعصّبين] وبين بقيّة المسلمين، فبينما هم يرون أنفسهم موحّدين أو أهل توحيد، ويرون غيرهم - ممن لا يسلك سبيلهم في المبالغة - مشركين، إذا بغيرهم ينظرون إليهم على أنّهم أهل تشدّد وتزمّت، وأصحاب ضيق في الأفق والفهم لهذا الأصل الإسلامي وهو أصل التوحيد، لأنّ زيارة القبور، أو إقامتها على وجه الأرض سوف لا يعيد الآن بحال وضع الوثنية العربية الأولى على عهد الدّعوة الإسلامية ومن ثمّ لا وجه لخشية الشرك، فضلاً عن وقوعه ممن يقيم القبر أو يزوره.

والوثنية التي يمكن أن توجد في القرن العشرين ليست وثنية الأحجار أو

---

(١) هذه هي الوهابية: ٧.

الأموات، إنّما هي وثنية الأحياء أصحاب السلطان والنفوذ. ولا يُقضى على هذه الوثنية بالدعوة إلى هدم القبور، وتحريم زيارتها وإنّما بتحقيق شعور المساواة بين الحاكم والمحكوم، وبتحقيق الإخاء والتعاون في الإسلام بين الفرد والمجتمع، وتحقيق بقيّة المبادئ الإسلامية الأُخرى في المجتمع الإسلامي»[1].

خطورة التكفير:

منحى التكفير واتهام الناس في أديانهم أمر مرفوض شرعاً وعقلاً، والذين كانوا يسلكون هذا المنحى إنّما ينطلقون من جهلهم بحقائق الإسلام ومن ابتعادهم عن أخلاقه وتعاليمه الحضارية السامية، وبالتالي فهم يشكّلون خطّاً شاذّاً منحرفاً في ثقافة الأُمّة وتاريخها.

وبمراجعة عابرة لأحكام الإسلام وآدابه، ولسيرة ومواقف أئمة الهدى وعلماء الأُمّة المخلصين الواعين نكتشف مدى انحرافية ذلك المنحى وأنّه مظهر لحالات التخلّف والانحطاط التي عصفت بالأُمّة، في الوقت الذي تتجلّى حضارية الفكر الإسلامي ، وتقدّمية مناهجه وسمو أخلاق الملتزمين به.

فهذا علي بن أبي طالب عليه السلام حينما تمرّد عليه الخوارج، وهو الحاكم الشرعي المنتخب من جماهير الأمّة، رغم أنّ الخوارج تجرأوا على الإمام برميه بالكفر والشرك، إلّا أنّه وانطلاقاً من بصيرته الدينية النافذة، وخلقه الإسلامي الرفيع، رفض أن يعتبر الخوارج الذين كفّروه كفّاراً، أو أن يحكم بخروجهم عن الإسلام.

---

(١) الفكر الإسلامي في تطو]ره: ٨١

فضلاً عن موقفه وتعامله مع سائر المخالفين المحاربين له.

يقول الإمام محمّد الباقر عليه السلام : «إنّ عليّاً عليه السلام لم يكن ينسب أحداً من أهل حربه إلى الشرك ولا إلى النفاق ولكنّه كان يقول: هم إخواننا بغوا علينا»[١].

وسئل الإمام علي عن قتلى الجمل: أمشركون هم؟

قال: من الشرك فرّوا.

قيل: فمنافقون؟

قال: لا أن المنافقين لا يذكرون الله إلّا قليلا.

قيل: إخواننا بغوا علينا[٢].

«وعن كثير بن نمر: بينما أنا في الجمعة وعلي بن أبي طالب على المنبر إذ جاء رجل [من الخوارج] فقال: لا حكم إلّا لله، ثمّ قام آخر فقال: لا حكم إلّا لله، ثمّ قاموا من نواحي المسجد يحكّمون الله. فأشار عليهم بيده: أجلسوا. نعم لا حكم إلّا لله، كلمة حق يبتغى بها باطل، حكم الله ينتظر فيكم، ألا إنّ لكم عندي ثلاث خلال ما كنتم معنا: لن نمنعكم مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، ولا نمنعكم فيئاً ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتّى تقاتلوا. ثمّ أخذ في خطبته»[٣].

وروى أنّه عليه السلام كان جالساً في أصحابه، فمرت بهم امرأة جميلة، فرمقها

---

(١) قرب الإسناد: ٩٤، ح٣١٨.

(٢) شرح الأخبار ١: ٣٩٩.

(٣) المصنّف لابن أبي شيبة الكوفي ٨: ٧٤١.

القوم بأبصارهم فقال عليه السلام: إنّ أبصار هذه الفحول طوامح، وإنّ ذلك سبب هبابها فإذا نظر أحدكم إلى إمرأة تعجبه فليلامس أهله، فإنّما هي امرأة كامرأة. فقال رجل من الخوارج: قاتله الله كافراً ما أفقهه؟ فوثب القوم ليقتلوه لسبّه الإمام وتكفيره له. فمنعهم الإمام علي قائلاً: رويداً إنّما هو سبّ بسبّ أو عفو عن ذنب[١].

ونقل الغزالي في المستصفى أنّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه استشارهُ قضاته في البصرة في القضاء بشهادة أهل البصرة من الخوارج أو عدم قبول شهادتهم؟ فأمرهم بقبولها[٢].

وموقف الإمام علي هذا إنّما هو انعكاس وتجسيد لأخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله ولتوجيهاته حيث كان يربّي أصحابه واتباعه على احترام حقوق الإنسان بشكل عام ورعاية حرمة الفرد المسلم بشكل خاص، وعدم التسرّع في اتهامه في دينه.

ففي الصحيح بالإسناد إلى ابن عمر قال: «قال النبي صلى الله عليه وآله أتدرون أيّ يوم هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم . قال: فإنّ هذا يوم حرامٌ.

أتدرون أيّ بلدٍ هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: بلدٌ حرامٌ.

أتدرون أيّ شهر هذا ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال شهر حرام. قال: فإنّ الله حرّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»[٣].

---

(١) نهج البلاغة ٤: ٩٩ قصار الحكم: ٤٢٠.

(٢) المستصفى: ٢٩٧.

(٣) صحيح البخاري ٧ : ٨٣.

وأخرج البخاري في باب بعث علي وخالد إلى اليمن: إنّ رجلاً قام فقال: يا رسول الله، اتقِ الله قالﷺ ويلك أولستُ أحقُ أهل الأرض أن يتقي الله؟ فقال خالد: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟ قالﷺ لا، لعلّه أن يكون يصلي[١]!

ومثله ما نقله العسقلاني في الإصابة في ترجمة سرقوحة المنافق من أنّه لما أتي به ليقتل قال رسول اللهﷺ: «هل يُصَلّي»؟ قالوا: إذا رآه الناس. قال: «إنّي نُهيتُ أن أقْتلَ المُصَلّينَ»[٢]!

وفي صحيح البخاري أيضاً عن عتبان بن ملك الأنصاري أنّه أتى النبيﷺ فسأله ان يأتي بيته فيصلي فيه ليتخذه مصلّى. قال عتبان: فغدا رسول اللهﷺ فصلّى بنا ركعتين وحبسناه على خزيرٍ صنعناه فثاب في البيت رجال ذوو عدد فقال قائل منهم: أين مالك بن الدّخْشُن؟ فقال بعضهم: ذلك منافق لا يحبّ الله ورسوله. فقال رسول اللهﷺ: لا تقل ذلك ألا تراه قد قال «لا إله إلّا الله» يريد بذلك وجه الله. قال: فإنّا نرى وجهه ونصيحته إلى المنافقين. قال رسول الله: فإنّ الله قد حرّم على النّار من قال «لا إله إلّا الله» يبتغي بذلك وجه الله[٣].

وكان أبو حامد الغزالي من كبار علماء القرن الخامس الهجري قد عدل عن مذهب الأشاعرة فقامت قيامتهم ضده حتّى اتّهموه في دينه وحكم بعضهم بكفره، ممّا دفعه إلى تأليف كتاب ضد منحى التكفير والإرهاب الفكري سمّاه

---

(١) المصدر السابق ٥: ١١٠.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ٣: ٣٧، (٣١٢٨).

(٣) صحيح البخاري ٦: ٢٠٢ »بتصرف وتلخيص«.

(فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) ومما جاء فيه الفقرات التالية:

(فاطلب من مناظرك من أيّ طائفة من طوائف المتكلمين بيان حدّ الكفر، فإن زعم أنّ حدّ الكفر هو ما يخالف مذهب الأشعري، أو مذهب المعتزلي، أو مذهب الحنبلي ، أو غيرهم فاعلم أنّه غر بليد، قد قيّده التقليد، وناهيك حجّة على إفحامه مقابلة دواه بدعوى خصومه لأنّه لا يجد بين طائفة وأُخرى فرقاً.

واعلم أنّ شرح ما يكفّر يستدعي تفصيلاً طويلاً فاقنع الآن بوصية وقانون. أمّا الوصية فهي أن تكفّ لسانك عن أهل القبلة ما داموا قائلين: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله غير مناقضين لها. والمناقضة تحصل بنحو تجويزهم الكذب على رسول الله ﷺ. أمّا القانون فهو أن تعلم أنّ النظريات قسمان قسم يتعلّق بأصول العقائد وقسم يتعلّق بالفروع.

وأصول الإيمان ثلاثة: هي الإيمان بالله، والإيمان برسوله، والإيمان باليوم الآخر، وما عدا ذلك فروع.

واعلم أنّه لا تكفير في الفروع إلّا في مسألة واحدة وهي أن ينكر حكماً ثبت عن النبي ﷺ بالتواتر القاطع، وأجمعت عليه الأُمّة بسائر طوائفها كإنكار وجوب الصلوات الخمس أو صوم رمضان. أمّا ما يظنّ أنّه تواتر وهو في الحقيقة ليس منه فهو كثير ، حصل في عصور مختلفة، ولكنّه لم يحصل به العلم القاطع لدى الجميع... من ذلك ادعاء بعض الشيعة أنّ هناك نصّاً من الله سبحانه على أحقيّة علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالإمامة وأنّها فيه وفي ذريته فقط. ويقابل ذلك ما تواتر عند خصومهم بخلاف ما يزعمون.. ومع أنّنا ننكر قول

الشيعة ذلك فإنّنا لا نكفّرهم...»[١].

ويقول حسن البنّا: « لا نكفّر مسلماً أقرّ بالشهادتين ، وعمل بمقتضاهما وأدّى الفرائض، برأي أو معصية إلّا أن أقرّ بكلمة الكفر أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة، أو كذّب صريح القرآن، أو فسّره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال ، أو عمل عملاً لا يحتمل تأويله غير الكفر»[٢].

أمّا الشيخ رشيد رضا فيقول: «إنّ من أعظم ما بليت به الفرق الإسلامية رمي بعضهم بعضاً بالفسق والكفر مع أنّ قصد الكل الوصول إلى الحق بما بذلوا جهدهم لتأييده واعتقاده والدعوة إليه فالمجتهد وإن أخطأ معذور»[٣].

وقال ابن حزم حيث تكلّم فيمن يكفّر ولا يكفّر في صفحة٢٤٧ من أواخر الجزء الثالث من كتاب الفصل في الأهواء والملل والنحل ما هذا لفظه:

«وذهبت طائفة إلى أنّه لا يكفر ولا يفسق مسلم بقول قاله في اعتقاد أو فتيا، وإنّ كلّ من اجتهد في شيء من ذلك فدان بما رأى أنّه الحق فإنّه مأجور على كلّ حال، إن أصاب الحق فأجران، وإن أخطأ فأجره واحد. وهذا قول ابن أبي ليلى وأبي حنيفة والشافعي وسفيان الثوري وداود بن علي...، وهو قول كلّ من عرفنا له قولاً في هذه المسألة من الصحابة... لا نعلم منهم خلافاً في ذلك أصلاً»[٤].

---

(١) ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين : ١٢١..

(٢) التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا: ١٢٠.

(٣) تفسير المنار ١٧: ٤٤.

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٣: ٢٤٧.

وعن الأوزاعي: والله لئن نشرت لا أقول بتكفير أحد من أهل الشهادتين.

وعن ابن سيرين: أهل القبلة كلّهم ناجون.

وعن أبي عيينة: لأن تأكل السباع لحمي أحبّ إليّ من أن ألقى الله تعالى بعداوة من يدين له بالوحدانية ولمحمّدﷺ بالنبوة[١].

(١) الفصول المهمّة في تأليف الأمّة: ٤٤.

التعصب والإرهاب الطائفي

كان «أبان بن تغلب» من خواص تلامذة الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وقد أمره أستاذه الإمام أن يجلس للإفتاء في مسجد المدينة، ولأنّ السائلين والمستفتين كانوا يختلفون في مذاهبهم ومراجعهم، فقد وجّهه الإمام إلى أن لا يقتصر على نقل رأي مذهب أهل البيت أو فتاواهم ، بل يفتي السائلين حسب مذاهبهم ، يقول له الإمام الصدق عليه السلام: «انظر ما علمت أنّه من قولهم فأخبرهم بذلك»[١].

وينقل الشيخ أبو زهرة قصة مشابهة عن تلميذ آخر للإمام جعفر الصادق عليه السلام وهو مسلم بن معاذ الهروي أنّه كان يجلس في المسجد ويفتي الناس بأقوال الأئمّة جمعاً حتّى قال له يومياً سيّدنا جعفر: بلغني أنّك تجلس في المسجد وتفي الناس.

أجاب: نعم وكنت أودّ أن أسالك عن ذلك إذ يأتيني الرجل فأعرفه على مذهبكم فأفتيه بأقوالكم، ويأتيني الرجل فأعرفه على غير مذهبكم فأفتيه بأقوال مذهبه، ويأتيني الرجل فلا أعرف مذهبه. فأذكر له أقوال الأئمة وأدخل قولكم بين الأقوال، فأشرق وجه سيدنا الإمام جعفر رضوان الله عليه وقال: «أحسنت أحسنت هكذا أنا أفعل» لأنّه كان إذا سئل عن مسألة ذكر كلّ أقوال العلماء فيها[٢].

---

(١) اختيار معرفة الرجال ٢: ٦٢٢.

(٢) الإسلام بين السنة والشيعة ٢: ٦٩.

وبالفعل كان الإمام جعفر الصادق عليه السلام إذا طرحت عليه مسألة ذكر آراء مختلف العلماء فيها كما ينقل ذلك باكبار الإمام أبو حنيفة يقول: «ما رأيت أفقه من جعفر بن محمّد لمّا أقدمه المنصور بعث إليّ فقال: يا أبا حنيفة إنّ الناس قد افتتنوا بجعفر بن محمّد فهيئ له من المسائل الشداد، فهيّأت له أربعين مسألة، فجعلت ألقي عليه فيجيبني، فيقول: أنتم تقولون كذلك وأهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا فربّما تابعهم وربّما خالفنا جميعاً حتّى أتيت على الأربعين مسألة، ثمّ قال أبو حنيفة: ألسنا روينا أنّ أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس»[1].

إنّ الإمام جعفر الصادق هو أحد أئمة أهل البيت عليهم السلام ولا شكّ أنّه يعتقد الصواب في رأيه والحق في فتواه ولكنّ ذلك لا يمنعه من نقل آراء الآخرين وفتاواهم ليعطي للأمّة درساً في التسامح وفي احترام الرأي الآخر مهما اختلفت معه.

وهناك حديث آخر عن الإمام الصادق نفسه يرويه عن جدّه علي بن أبي طالب عليه السلام، يفيد مضمونه أنّ أبواب الجنّة مشرعة لجميع المسلمين مهما اختلف مذاهبهم يقول عليه السلام: «إنّ للجنّة ثمانية أبواب باب يدخل منه النبيّون والصدّيقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبونا...، وباب يدخل منه سائر المسلمين ممّن شهد أنْ لا إلَه إلّا الله ولم يكن في قلبه مقدار ذرة من بغضنا أهل البيت»[2].

هكذا كان يفكّر الخطّ الواعي في الأُمّة ويتعامل مع الاختلافات المذهبية

---

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ١: ٥٣ نقلاً عن جامع أسانيد أبي حنيفة ١: ٢٢٢.

(٢) الخصال: ٤٠٨.

بسعة أفق ورحابة صدر، بينما عانت الأُمّة الويلات والمآسي من تصرّفات وممارسات خطّ التعصّب المذهبي والإرهاب الطائفي، أولئك الذين كانوا يعتقدون أنّ الحق منحصر في آرائهم، والجنّة لا تتسع لغيرهم، ويجيزون لأنفسهم محاسبة الناس ومحاكمتهم على اعتقاداتهم وانتماءاتهم، ويعتبرون الرأي الآخر جريمة لا يطيقون سماعه فضلاً عن نقله وإحترامه.

ولكي ندرك خطر هذا الاتّجاه وويلاته ومآسيه، ولتتحصن أجواء الأمة من وجوده وانبعاثه المقيت نلتقط من التاريخ البعيد والقريب بعض تلك الجرائم والآلام.

تحدّث العلّامة ابن قدامة (ت ٦٢٠هـ) في مقدّمة كتابه المغني عن وجود خطّين في الأُمّة للتعامل مع الاختلاف المذهبي خطّ التسامح وخطّ التعصّب ومن جملة ما قال:

ثمّ إنّ كثيراً من العلماء حاولوا أن يجعلوا اختلاف العلماء في مسائل الأحكام رحمة بهذه الأُمّة، وتحقيقاً ليسر دينها الذي ثبت بنصوص الكتاب والسنّة، واتقوا ما حذّر الله في كتابه من مضارّ التفريق والاختلاف الذي أفسد على الأُمم السابقة دينها ودنياها، وحذّرنا سبحانه وتعالى من أن نكون مثلهم بقوله: ﴿**اعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ**﴾[1]... إلى أن قال ﴿**وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[2].

ولكن المتعصّبين للمذاهب أبوا أن يكون الاختلاف رحمة، وتشدّد كلّ منهم في تحتيم تقليد مذهبه ، وحرّم على المنتمين إليه أن يقلّدوا غيرهم ولو

(١) آل عمران (٣): ١٠٣.

(٢) آل عمران (٣): ١٠٥.

لحاجة فيها مصلحتهم، وكان من طعن بعضهم في بعض ما هو معروف في كتب التاريخ وغيرها كالإحياء للغزالي حتّى صار بعض المسلمين إذا وجد في بلد يتعصّب أهله لمذهب غير مذهبه، ينظرون إليه نظرتهم إلى البعير الأجرب بينهم!

ومن ذلك أن بعض الأحناف من الأفغانيين سمع رجلاً يصلّي بجواره مأموماً يقرأ الفاتحة فضربه بيده على صدره ضربة قويّة وقع منها على ظهره حتّى كاد يموت!

وإنّ بعضهم كسر سبابة مصلّ لأنّه رفعها في التشهد[١]!

وسئل بعض المتعصّبين من الشافعي عن حكمة الطعام الذي وقعت عليه قطرة نبيذ فقال عفا الله عنه: يرمى لكلب أو حنفي! ويقابله قول متعصّب آخر حنفي لمن سأله: هل يجوز للحنفي أن يتزوّج المرأة الشافعية؟ فقال : إنّ ذلك لا يجوز لأنّها تشكّ في إيمانها يشير بذلك إلى أنّ الشافعي يجيز أن يقول المسلم «انا مؤمن إن شاء الله»! ويفتي حنفي آخر بأنّه يجوز للحنفي أن يتزوّج الشافعية لا على أنّها مؤمنة بل بقياسها على الكتابية (اليهوديه أو النصرانية) التي تجوز للمسلم بالاتفاق![٢].

ويذكر الرحّالة المغربي (ابن بطوطة):

«لما دخلنا هذه المدينة [صنوب] رآنا أهلها ونحن نصلي سبلي أيدينا، وهم حنفية لا يعرفون مذهب مالك ولا صلاته، والمختار من مذهبه هو إسبال

---

(١) ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين: ٧٩.

(٢) الإسلام بين السنّة والشيعة ١: ٤٩.

اليدين ، وكان بعضهم يرى الروافض بالحجاز والعراق سابلي أيديهم فاتّهمونا بمذهبهم. وسألونا عن ذلك ، فأخبرناهم أنّنا على مذهب مالك فلم يقنعوا بذلك عناء.

واستقرت التهمة في نفوسهم حتّى بعث إلينا نائب السلطان بأرنب، وأوصى بعض خدامه أن يلازمنا حتّى يرى ما نفعل به. فذبحناه وطبخناه وأكلنا، وانصرف الخديم إليه وأعلمه بذلك، فحينئذٍ زالت التهمة وبعثوا لنا بالضيافة والروافض لا يأكلون أرنب»[١].

أمّا ياقوت الحموي فقد ذكر في معجمه أنّه في سنة٦١٧هـ مر على مدينة «ري» فوجد أكثرها خراباً، ولما سأل بعض عقلائها عن السبب أجاب بأنّه كان في المدينة ثلاث طوائف: شيعة وأحناف وشافعية. فتظاهر الأحناف والشافعية على الشيعة، ثمّ وقعت الحرب بين الأحناف والشافعية، فتغلّب هؤلاء على أولئك ، وهذا الخراب هو في ديار الشيعة والأحناف فقط[٢]!

ويصل التعصّب المذهبي بالبعض إلى حدّ يدفعه للابتعاد عن بعض السنن والأعمال رغم شرعيتها لتداولها عند أهل مذهب آخر خلافاً لقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾[٣]، فقد ذكر الزرقاني في المواهب اللدنيّة في صفة عمامة النبيﷺ على رواية عليعليه السلام في إسدالها على منكبه حين عمّمه رسول اللهﷺ ثمّ ذكر قول الحافظ العراقي أنّ ذلك أصبح شعار كثير من فقهاء الإمامية فينبغي تجنّبه لترك التشبّه بهم[٤]!

---

(١) رحلة ابن بطوطة: ٣٣٢.

(٢) لاحظ معجم البلدان ٣: ١١٧.

(٣) الزمر (٣٩): ١٨.

(٤) لاحظ شرح العلاّمة الزرقاني على المواهب اللدنية ٦ : ٢٧٦.

وقال الزمخشري في كيفية الصلاة على النبي محمّدﷺ: « وأمّا إذا أفرد غيره من أهل البيت بالصلاة كما يفرد هو فمكروه لأنّ ذلك صار شعاراً لذكر رسول اللهﷺ، ولأنّه يؤدّي إلى الاتهام بالرفض[١]!

وضمن هذا السياق يقول ابن تيمية في منهاجه عند بيان التشبّه بالشيعة:

«ومن هنا ذهب من ذهب من الفقهاء إلى ترك بعض المستحبّات، إذا صارت شعاراً لهم ، فإنّه وإن لم يكن الترك واجباً لذلك لكن في إظهار ذلك مشابهة لهم، فلا يتميّز السنّي من الرافضي، ومصلحة التمييز عنهم لأجل هجرانهم ومخالفتهم أعظم من مصلحة هذا المستحب[٢]!

هكذا يفعل التعصّب بأهله: ترك ما ندب إليه الشرع، إصراراً على إيجاد الحواجز والفواصل بين المسلمين، والدعوة الصريحة إلى التنافر والتهاجر المنهي عنه شرعاً بين أبناء الأُمّة الواحدة.

وقال مصنّف الهداية من الحنفية: إنّ المشروع التختّم باليمين ولكن لمّا اتخذته الرافضية جعلناه في اليسار[٣]!

ويقول آخر: إنّ تسطيح القبور هو المشروع، ولكن لما جعلته الرافضة شعاراً لها، عدلنا عنه إلى التسنيم[٤]!

وكذلك ينزلق المتعصّبون إلى خطأ جسيم بدافع من طائفيتهم بأن يبتدعوا من أنفسهم حكماً مخالفاً لما شرّعه الله غافلين عن قوله تعالى: ﴿وَلَا

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ٣: ٢٧٢.

(٢) منهاج السنّة النبويّة ٤: ١٥٤.

(٣) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ١: ٣٢٥.

(٤) المصدر السابق ١: ٣٢٦.

تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾[1].

وكم من عالم مسلم دفع حياته ثمناً لابدائه رأيا يعتقده أو فتوى استنبطها لتسلّط سيف الإرهاب الطائفي على المجتمع فهذا المولى ظهير الدين الأردبيلي، حكم عليه بالإعدام واتّهم بالتشيّع - وهو لم يكن شيعياً - وذلك ؛ لأنّه ذهب إلى عدم وجوب مدح الصحابة على المنبر وأنّه ليس بفرض، فقبض عليه وقدّم للمحاكمة وحكم عليه بالاعدام ونفّذ الحكم في حقه فقطعوا رأسه ، وعلّقوه على باب زويلة بالقاهرة[2]!

وهذا سليمان بن عبد القوي المعروف بأبي العباس الحنبلي ٦٥٧- ٧١٦هـ ، كان من علماء الحنابلة، ومن المبرّزين في عصره ، ودرس في أكثر مدارس الحنابلة في مصر، ولكن ؛ لأنّه مدح الإمام علي بقصيدة، وأبدى رأيه حول منع الخليفة عمر لكتابة الأحاديث بأنّ ذلك صار سبباً لعدم انضباط الأحاديث وضياعها، لذلك اتهم بالرفض وعزّر في القاهرة وناله الضرب والسجن والتبعيد عن وطنه، وفصل عن وظيفة التدريس، وكان يستغرب ممّا نسب إليه قائلاً:

حنبلي رافضي ظاهري... أشعري إنّها احدى الكبر[3].

وذكروا أن محمّد بن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ ألّف كتاباً في اختلاف الفقهاء ولم يتعرّض فيه لآراء الإمام أحمد بن حنبل ؛ لأنّه يعتبره محدّثاً أكثر منه فقيهاً فأساء ذلك الحنابلة ، فسألوه عن حديث الجلوس على

---

(١) النحل (١٦): ١١٦.

(٢) شذرات الذهب ٨: ٢١٥.

(٣) لاحظ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٢: ٩١.

العرش فقال: إنّه محال وانشد:

سبحان من ليس له أنيس ولا له في عرشه جليس

فمنعوا الناس من الجلوس إليه، ومن الدخول عليه، ورموه بمحابرهم، فلمّا لزم داره، رموه بالحجارة حتّى تكدست...[1].

تلك كانت بعض مقتطفات من مآسي خطّ التعصّب والإرهاب الطائفي والذي كاد يغطّي صفحات تاريخ الأُمّة، لولا وعي وتضحيات المخلصين الذين يشكلون خطّ الوعي والتحرّر والانفتاح في تاريخنا الإسلامي، ونحن الآن مطالبون بمتابعة هذا الخطّ وإحيائه في الواقع المعاصر، والوقوف أمام من يريدون إعادة وتكرار تلك المآسي الطائفية في وقت تشتدّ فيه حاجة الأُمّة إلى التمسك والالتحام لمواجهة التحدّيات الحضارية والأخطار المعادية.

نحو انفتاح فكري:

ما الذي يشدّ الإنسان المسلم إلى مذهب من المذاهب، أو إمام من الأئمّة؟

وما الذي يدفعه إلى اعتناق هذه الفكرة أو الالتزام بذلك المنهج؟

المفروض إنّ الدافع وعنصر الانسداد هو طلب الحقيقة والوصول إلى الرأي الأصحّ والأصوب عقائدياً وتشريعياً لإحراز براءة الذمّة ورضا الله سبحانه وتعالى، حيث يتفتّح وعي الإنسان المسلم في هذه الحياة فيرى أمامه عدّة مناهج وطرق في فهم عقائد الإسلام وتحديد جزئيات أحكامه، وعند الاختلاف فإنّ الحقّ لا يتعدّد خلافاً لما يراه المصوّبة، فإذا ما كان هناك أكثر

---

(١) الوافي بالوفيات ٢: ٢١٣.

من رأي حول قضية واحدة فلابدّ أنّ بعضها مصيب والآخر مخطئ، كما أنّ نسبة الصواب والخطأ قد تكون نسبية بين الآراء وعلى أحسن الفروض فإنّ هناك صحيح وأصحّ وصائب وأصوب، مع قطع النظر عن معذورية المخطئ بل وثوابه ما دام مجتهداً قد بذل غاية وسعه فإنّ المجتهد إذا أصاب فله أجران وإذا أخطأ فله أجر واحد.

وهنا يفترض في المسلم أن يدرس ويتأمّل المذاهب والمناهج المطروحة في الساحة الإسلامية ويعتمد على عقله وتفكيره وعوامل الاستدلال والاطمئنان المتوافرة لديه لكي يختار أحد تلك المناهج والمذاهب.

وهذا يعني أمرين:

الأوّل: إتاحة الفرصة وتوفّر المجال للاطّلاع على مختلف الآراء والمذاهب بأن تسود أجواء المجتمع حريّة فكرية ثقافية ، يتمكّن الإنسان عبرها من التعرّف عل جميع الأطروحات والآراء، وهذا ما كان متداولاً ومعروفاً في العصور الإسلامية الأولى، حيث كانت تتعدّد حلقات الإفتاء والتدريس في المساجد العامة وفقاً لتعدّد المذاهب واختلاف الأئمّة، كما كانت تنعقد جلسات المناظرة والحوار وتتداول كتب العقائد والحديث والفقه على رأي مختلف المذاهب والمدارس.

بالطبع فإنّ حريّة الفكر والثقافة حقّ طبيعي للإنسان ومبدأ أساسي من مبادئ الإسلام، وإذ ما انعدمت هذه الحرّية الفكرية واستبدّ بالساحة مذهب واحد ورأي فكري واحد مع حظر باقي المذاهب وقمع سائر المدارس فإنّه لا يمكن للمسلم أن يطمئنّ إلى صحّة اختياره وانتخابه للمذهب المفروض عليه بشكل غير مباشر.

الثاني: اهتمام المسلم بالبحث الموضوعي وتجرّده عن دواعي التعصّب والمصلحة، ذلك أنّ الكثيرين لا يجدون دافعاً للبحث والاهتمام مكتفين بما يجدون عليه عوائلهم وأهاليهم، وما يسود في مجتمعهم وبيئتهم.

وإذا ما تجاوزنا المسألة الذاتية ومسؤولية الإنسان اتّجاه نفسه بالبحث عن الحقّ لاعتناقه والتزامه، فإنّ هناك قضية أُخرى ترتبط بموقف الإنسان اتّجاه الآخرين وإصداره الأحكام على معتقداتهم ومذاهبهم حيث لا يصحّ له الانطلاق من الجهل والتسرّع دون معرفة واطّلاع للحكم على الآخرين، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[1].

إنّ من أهم عوامل الصراع وسوء التفاهم بين أتباع المذاهب الإسلامية هو الجهل المتبادل وعدم الانفتاح الفكري فيما بينهم حتّى على مستوى العلماء والقيادات، حيث يحتفظ كلّ طرف لنفسه بانطباع وموقف سلبي اتّجاه الطرف الآخر، دون أن يكلّف نفسه عناء البحث والتأكّد من صحّة انطباعه وموقفه وكأنّه ليس مسؤولاً أمام الله عن سوء ظنّه بالآخرين وخطأ حكمه عليهم، أو غير مدرك لما ينتجه هذا الموقف الجاهلي من أخطار وتبعات على وحدة الأُمّة وتماسك صفوفها.

وهذا الجهل وعدم الانفتاح بين المذاهب هو الذي يتيح الفرصة للأعداء والمغرضين ليصطادوا في الماء العكر، وليشوّهوا سمعة كلّ مذهب أمام المذاهب الأخرى، وليعبئوا كلّ طائفة اتّجاه الطوائف الأخرى.

يقول أحد العلماء اللبنانيين وهو يتحدّث عن دور الجهل في تعميق

---

(١) الإسراء (١٧): ٣٦.

الخلاف الطائفي بين السنّة والشيعة ما يلي: «وظنّي أنّ الكثير من المسلمين لو اطّلعوا على ما عليه الشيعة لم يكن منهم إلّا المودّة والإخاء، حدّثني بعض أهل العراق فقال ما مضمونه: لما جاء الترك بجيشهم لمقابلة الإنجليز محاماةً عن العراق من جهة البصرة في الحرب الكبرى وكان في جيشهم من ديار بكر والموصل من لا يعرف الشيعة فلمّا رأوا من علماء الشيعة ورجالها ما رأوا من التزامهم بالصلاة وغيرها من العبادات وإخلاصهم في المدافعة عن بيضة الإسلام وكيان المسلمين، وتفانيهم في المحاماة عن دينهم أخذ يقول بعضهم لبعض العراقيين، إنّا ما كنّا نعرف الشيعة، فإن كان أنتم شيعة فنحن كلّنا شيعة».

وأعجب من ذلك ما حدثني به بعض الفضلاء عن أحد أعلام الشيعة عن رجل من علماء نابلس أنّه قال له: «كنا نتقرب إلى الله بدم الشيعي والآن صرنا نتقرب إلى الله بحبّ الشيعي»[1].

ويبدو أنّ هناك إشكالاً عميقاً يكمن في مناهج الدراسة في الحوزات والجامعات والمعاهد الدينية، حيث تقتصر كلّ مؤسسة على تدريس اتّجاه معين في العقائد والفقه والعلوم الدينية، متجاهلة سائر الاتّجاهات والمذاهب، والأخطر من ذلك هو تعبئة الطلّاب في كلّ معهد ديني ضدّ ما يخالف مذهبه ومنهجه عبر أسلوب التهريج والإسقاط والدعاية السوداء، فيتخرّج طلّاب العلوم الدينية بفكر منغلق وعقلية ضيقّة جاهلين بالرأي الآخر منحازين بتعصّب ضدّه.

ولقد حدّثنا التاريخ أنّ الأستاذ الإمام الشيخ محمّد عبده رأى - قبل

(١) الحقائق في الجوامع والفوارق للشيخ حبيب آل إبراهيم: ١٨.

أخذه شهادة التدريس - أن يطالع مع بعض الطلّاب كتباً منها (شرح العقائد النسفيّة) للتفتازاني مع حواشيه ، وسوّغ لنفسه في أثناء ذلك أن يرجّح مذهب المعتزلة في بعض المسائل الكلامية، على مذهب الأشعرية، فقامت لذلك ضجّة كبرى في الأزهر ووصل الأمر إلى المرحوم الشيخ عليش الكبير، وكان رجلاً حديد المزاج، سريع الغضب، شديد الغيرة على ما يعتقد، فهاج وماج، وأرسل إلى الشيخ محمّد عبده، وكلّمه في ذلك كلاماً شديداً، وتعصّب للشيخ عليش في ذلك طلّاب من الأزهر وعلماء حتّى كان الشيخ عبده يضطرّ إلى اصطحاب عصا معه وهو يقرأ الدرس خوفاً على نفسه من اعتداء ذوي العصبية[1].

ويشير العلّامة الشيخ محمّد جواد مغنية إلى هذه الملاحظة الهامّة في مقالة نشرتها مجلة (رسالة الإسلام) المصرية عدد تشرين ١٩٢٥م بقوله (إن الشريعة الإسلامية لم تستخرج من الوهم والخيال بل لها أصول مقررة لا يختلف عليها مسلمان، مهما كان مذهبهما، وإنّما الخلاف والجدال بين المذاهب حصل فيما يتفرّع عن تلك الأصول، وما يستخرج منها، فالعلاقة بين أقوال المذاهب الإسلامية هي العلاقة ين الفرعين المنبثقين عن أصل واحد.

ونحن إذا أردنا معرفة أنّ هذا المذهب على حق في أسلوبه واستخراج الحكم من مصدره دون سائر المذاهب، فعلينا أن نلاحظ جميع الأقوال المتضاربة حول الحكم، وندرسها بطريقة حيادية، بصرف النظر عن كلّ قائل وعن منزلته العلمية والدينية، ثمّ نحكم بما يؤدّي إليه الأصل والمنطق على

(١) مجلة رسالة الإسلام العدد ٤ السنة ٢ ، ص ٣٥٧.

نحو لو أطلع معه أجنبي على حكمنا لاقتنع بأنّه نتيجة حتمية للأصل المقرر، وبهذا نكون من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه[١].

أمّا من يطّلع على قول مذهب من المذاهب، ويؤمن به ويتعصّب له، لا لشيء إلّا لأنّه مذهب آبائه، ويحكم على سائر المذاهب بأنّها بدعة وضلاله فهو مصداق للآية الكريمة: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ** ﴾[٢].

وأي فرق بين رجل أفنى العمر في حفظ معتقدات أبيه ودرسها، لا يتجاوزها قيد أنملة ، ورجل لم يقرأ، ولم يكتب ، ولم يدرس شيئاً، ولكن تكوّنت له من بيته وبيئته عادات ومعتقدات؟ أيّ فرق بين الرجلين حتّى يقال: ذاك عالم، وهذا جاهل؟!

ليس العالم من وثق برأيه ومعتقدات آبائه، وكانت له المقدرة التامة على المحاورة والمداورة، وإنما العالم من فصل الواقع عن ذاته وعاطفته، وفكّر تفكيراً حرّاً أو مطلقاً، لم يتعصّب لرأي على رأي، بل يقف من كلّ قول موقف الشك والتساؤل، وإن كثر به القائلون ، وآمن به الأقدمون.

إنّ احترام العالم يقاس باحترامه للحقيقة ، فهي ضالته أينما وجدت.

لقد أثبتت التجارب أنّ الاختصاص بعلم من العلوم يحتاج إلى ثقافة عامة، ومعرفة نظريات ومبادئ علوم شتّى، فكيف يكون الإنسان متخصّصاً

---

(١) إشارة لقوله تعالى (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ) الزمر (٣٩): ١٨.

(٢) البقرة (٢): ١٧٠.

بعلم، وهو لا يعرف عنه إلّا قول عالم يخالفه فيه كثير من العلماء؟ واستطيع التوكيد أنّ من الأجانب من يعرف عن الإسلام وتاريخه وشريعته ورجاله وعقائدهم ما لم يعرفه كثير من متخرّجي الأزهر والنجف. وإنّه لغريب أن تقوم جامعتان لهما تاريخهما وعظمتهما، إحداهما في العراق، والثانية في مصر، يبحثان في موضوع واحد، ويهدفان إلى شيء واحد: إلى نشر الشريعة الإسلامية ثمّ لا يكون بينهما أي نوع من أنواع التعارف والتعاون.

إنّ في كتب الشيعة الإمامية اجتهادات لا يعرفها الخواص من علماء السنّة، ولو اطلعوا عليها لقويت ثقتهم بالشيعة وتفكيرهم، وكذا الشأن بالقياس إلى كتب السنة وعلماء الشيعة، إنّ اطلاع كلّ فريق على ما عند الآخر من أقوى البواعث على تمهيد السبيل للتقريب بين الإخوة، من حيث يدرون أو لا يدرون[١].

وقبل الشيخ مغنية بعدّة قرون كان العلامة الشاطبي (ت٧٩٠هـ) يقرع جرس الإنذار هذا بقوله: «إنّ تعويد الطالب على ان لا يطلع إلّا على مذهب واحد ربما يكسبه ذلك نفوراً وإنكاراً لكل مذهب غير مذهبه ما دام لم يطلع على أدلّته، فيورثه ذلك حزازة في الاعتقاد في فضل أئمّة أجمع الناس على فضلهم»[٢].

ووصل الجهل بين المسلمين ببعضهم البعض إلى حدّ اعتقد فيه بعض المتعصّبين من أهل السنّة أنّ هناك فوارق تكوينية بين الشيعة وباقي المسلمين،

---

(١) مجلة رسالة الإسلام العدد٤، ص٣٦٦.

(٢) ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين: ٥٧.

وأنّ للشيعة ذنباً في أسفل أجسامهم؟! فهل يضحك الإنسان أم يبكي لهذا الجهل المفرط والتعصّب الحاقد. وهناك طريفة ينقلها الاصفهاني في كتابه (المحاضرات) إذْ يقول: سئل رجل كان يشهد على آخر بالكفر عند جعفر بن سليمان ، فقال: إنّه معتزلي ناصبي حروري جبري رافضي، يشتم علي بن الخطاب، وعمر بن أبي قحافة، وعثمان بن أبي طالب، وأبا بكر بن عفان، ويشتم الحجّاج الذي هدم الكوفة على أبي سفيان، وحارب الحسين بن معاوية، ويوم القطائف؟ فقال له جعفر بن سليمان قاتلك الله ما أدري على أي شيء أحسدك؟ أعلى علمك بالأنساب؟ أم بالأديان؟ أم بالمقالات[1]؟

وقد لعب بعض الكتّاب والمفكّرين دوراً مثيراً في تكريس حالة الجهل والتضليل الإعلامي لدى كلّ مذهب اتّجاه سائر المذاهب، حيث يقدم أولئك الكتّاب صورة خاطئة تنطوي على الجهل والمغالطات عن هذا المذهب أو تلك الطائفة، إمّا لغرض في نفس الكاتب أو لاعتماده على المصادر المعادية والمناوئة للجهة التي يكتب عنها، أو لتقصيره في البحث والمراجعة.

فمثلاً: حينما يطّلع القارئ على كتاب (كشف الظنون على أسامي الكتب والفنون) لمؤلفه الشيخ مصطفى بن عبد الله الحنفي (١٠١٧هـ ١٠٦٧هـ) والمعروف بالحاج خليفة ؛ فإنّه سيعتبره مرجعاً ومصدراً في موضوعه، لما فيه من دلالة على سعة اطلاع المؤلف وتقصيه للكتب وفنون المعارف، ولكن القارئ سيصاب بالدهشة حينما يقرأ ما كتبه المؤلف عن المذهبين الإمامي الشيعي والشافعي حيث مزج بينهما بشكل غريب ولننقل جزءاً من نصّه:

قال: «والكتب المؤلفة على مذهب الإمامية الذين ينتسبون إلى مذهب

---

(١) أصل الشيعة وأصولها: ١٧٨ نقلاً عن محاضرات الأدباء ٤: ٤١٨.

ابن إدريس، اعني الشافعي رحمه الله، كثرة، منها شرائع الإسلام وحاشيته، والبيان والذكرى والقاعد، والنهاية...»[١].

وقال عند تفسير الشيخ الطوسي، فقيه الشيعة: «هو أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسي فقيه الشيعة الشافعي ، كان ينتمي إلى مذهب الشافعي (ت٤٦٠هـ) سماه مجمع البيان لعلوم القرآن»[٢].

هذا الخلط والخطأ الذي وقع فيه مؤلف كشف الظنون لضعف اطلاعه أو عدم دقته في البحث أصبح نظرية يتناقلها بعض الكتّاب المعاصرين دون بحث أو تمحيص كالمحامي صبحي محمصاني الذي كتب عن المذهب الشيعي قائلاً: (وهذا المذهب لا يختلف كثيراً عن المذهب الشافعي في فروع الفقه)[٣].

وحتّى الذين كتبوا في الفِرقَ والمذاهب لم تأت أغلب كتاباتهم وفقاً لقواعد التحقيق والموضوعية والبحث، كما هو الحال في كتاب (الفَرْقُ بين الفرَق) لأبي منصور البغدادي، وكتاب (الملل والنحل) للشهرستاني: إنّه كتاب حكى فيه مذاهب أهل العالم بزعمه، إلّا أنّه غير معتمد عليه ؛ لأنّه نقل المذاهب الإسلامية من الكتاب المسمى بـ(الفَرْق بين الفرَق) من تصانيف الأستاذ أبي منصور البغدادي، وهذا الأستاذ كان شديد التعصّب على المخالفين، ولا يكاد ينقل مذهبهم على الوجه الصحيح، ثمّ إنّ الشهرستاني

---

(١) كشف الظنون ٢: ١٢٨١. ولعله خلط بين ابن إدريس الحلي (ت٥٩٨هـ) من كبار علماء الشيعة وبين محمّد بن إدريس الشافعي (ت٢٠٤هـ) مؤسس المذهب الشافعي.

(٢) كشف الظنون ١: ٤٥٢.

(٣) المبادئ الشرعية والقانونية : ٣١.

نقل مذاهب الفرق الإسلامية من ذلك الكتاب، فلهذا السبب وقع فيه الخلل في نقل هذه المذاهب[١].

ويسجل الشيخ محمّد شلتوت شيخ الجامع الأزهر هذه الملاحظة على كتب الفرق بقوله:

«لقد كان أكثر الكاتبين عن الفرق الإسلامية متأثرين بروح التعصب الممقوت، فكانت كتاباتهم مما تورث نيران العداوة والبغضاء بين أبناء الملة الواحدة، وكان كلّ كاتب لا ينظر إلى من خالفه إلا من زاوية واحدة، هي تسخيف رأيه، وتسفيه عقيدته بأُسلوب شرُّه أكثر من نفعه، ولهذا كان من أراد الإنصاف لا يكون رأيه عن فرقة من الفرق إلّا من مصادرها الخاصّة، ليكون هذا أقرب إلى الصواب وأبعد عن الخطأ»[٢].

وقال السبكي في الطبقات عند ذكره لكتاب (الملل والنحل) للشهرستاني: «ومصنف ابن حزم وإن أبسط منه، إلّا أنّه مبدّد، ليس له نظام، ثمّ فيه من الحطّ على أئمة السنّة ونسبة الأشاعرة إلى ما هم بريئون منه ما يكثر تعداده ، ثمّ ابن حزم نفسه لا يدري علم الكلام حق الدراية، على طريق أهله»[٣].

كما أنّ لكتابات المستشرقين دوراً سيئاً في تضليل أفكار المسلمين وتشويه نظرتهم اتّجاه بعضهم البعض، وكما هو معروف فإنّ هناك أهدافاً سياسية مغرضة وراء حركة الاستشراق، لابدّ أن يكون تمزيق شمل الأُمّة

---

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ٣: ٣٥ نقلاً عن المناظرات للرازي: ٢٥.

(٢) مقدمة إسلام بلا مذهب: ٢٩.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٣: ٣٧٦.

الإسلامية وتعميق الخلافات في صفوفها واحداً من أبرز تلك الأهداف التي تسعى حركة الاستشراق لتنفيذها ثقافياً، من هنا جاءت كتاباتهم عن المذاهب والفرق تخدم هذا التوجّه ، ومؤسف جدّاً أن تكون كتاباتهم مصدراً ومرجعاً يعتمدها بعض المؤلّفين المسلمين لتقييم التيارات والمدارس الإسلامية.

ومما يثير الدهشة والاستغراب أنّ بعض الكتّاب يعترفون بعدم اطلاعهم على آراء وكتب الطرف الآخر، ولكنهم مع ذلك يسمحون لأنفسهم بإصدار الحكم واتخاذ الموقف المضادّ من ذلك الطرف الذي لم يسمعوا منه ، ولم يطّلعوا على حجّته، فالعلّامة ابن خلدون في مقدمته الشهيرة يعلن إعراضه وعدم قراءته لكتب بعض المذاهب كالشيعة والخوارج، ولكنه مع ذلك يكيل لهم القدح والتهم والطعن، قال ما نصّه:

«وشذ بمثل ذلك الخوارج، ولم يحتفل الجمهور بمذاهبهم بل أوسعوها جانب الإنكار والقدح، فلا نعرف شيئاً من مذاهبهم، ولا نروي كتبهم، ولا أثر لشيء منها إلّا في مواطنهم، فكتب الشيعة في بلادهم، وحيث كانت دولتهم قائمة في المغرب والمشرق واليمن، والخوارج كذلك، ولكلّ منهم كتب وتآليف وآراء في الفقه غريبة»[1].

إنّنا نعيش الآن عصر العلم والمعرفة، وازدياد حالة الفضول لدى الإنسان للاطلاع على خبايا الكون والحياة ، والتعرّف على أوضاع الشعوب والقبائل النائية والبعيدة، فهل يصحّ لنا أن نجهل بعضنا البعض، وينغلق كلّ منّا على مذهبه ومعتقداته دون أن يوسع أفق معلوماته بدراسة سائر الآراء والمذاهب، والاطلاع على مختلف التيارات والمدارس الإسلامية؟!

---

(١) تاريخ ابن خلدون ١: ٤٤٦.

وكما ينبغي لكلّ قادر واع أن يسعى للمعرفة والاطلاع، فإنّ على اتباع المذاهب أن يعملوا لتعريف مذاهبهم وتبيين وجهات نظرهم دفعاً للتهّم والشبهات، فالناس أعداء ما جهلوا[1].

إنّ ساحتنا الفكرية تعاني من الجمود والتقوقع والإرهاب فلابدّ لنا من نهضة ثقافية فكرية نرتفع بها إلى مستوى الانفتاح العلمي والتحرّر الفكري والتنافس المعرفي الهادف، حتّى تتفجّر الطاقات والمواهب وتتبلور الأفكار والآراء، ونستفيد من إيجابيات كلّ المذاهب الإسلامية لتقديم صورة مشرقة عن الإسلام العظيم للعالم ، ولبناء أسس حضارة إسلامية جديدة ترتقبها كلّ جماهير أمّتنا بشوق ورجاء.

إنّنا بحاجة إلى مؤسّسات علمية فكرية تدرّس قضايا الدين والحياة على ضوء مختلف المذاهب الإسلامية، والى معاهد ومؤتمرات وندوات تخصّصية لمناقشة موارد الاتفاق والاختلاف بين طوائف المسلمين بروح موضوعية أخوية.

(١) عن الإمام علي عليه أنّه قال: »المرءُ عدُوُّ ما جهل« غرر الحكم للآمدي: ٢٩٤ الحكمة ٨٢٤٩.

الباب الثالث

أصالة الوحدة

تمهيد

إنّ الوحدة أصل ثابت من أصول مقاصد الإسلام ، وهدف أساس للأُمّة الإسلامية التي أرادها الله تعالى أُمّة واحدة ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾[1]، والاختلاف والنزاع حالة مضادّة، ومناقضة لأساس الدين وغايته. يقول تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ**﴾[2]. ويقول تعالى: ﴿**وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾[3].

ولسنا بحاجة للوقوف طويلاً للحديث حول ضرورة الوحدة، وأهمّيتها، وموقعيتها، على المستوى الديني، فذلك أمر مفروغ منه ، واضح لدى كلّ مسلم واعٍ.

لكن، وبالنظر إلى الواقع التجزيئي الذي تعيشه الأُمّة، فإنّ السؤال الذي يفرض نفسه بإلحاح هو: ما هي الخطوة الأولى في طريق الوحدة؟

منذ أكثر من نصف قرن، كان هناك من يراهن على دور الأنظمة والحكومات، في العالم العربي والإسلامي، لكي تصنع واقع الوحدة، من خلال الأُطُر والمؤسّسات الرسمية، وعبر العلاقات والتحالفات الثنائية بينها...

---

(١) الأنبياء (٢١): ٩٢.

(٢) آل عمران (٣): ١٠٣.

(٣) الأنفال (٨): ٤٦.

وكانت جماهير الأُمّة تهلّل فرحاً لكلّ مؤسّسة رسمية ترفع راية الوحدة ، أو إطار إقليمي يتبنّى التعاون والتنسيق، أو أيّ صيغة تبشر بتوجّه وحدوي، ولو بين دولتين وقطرين من أقطار المسلمين.

لكن هذا الرهان باء بالفشل والخيبة، وتأكّد لجماهير الأُمّة أنّ معظم الأنظمة والحاكمين، لا يتوقّع تحقيق وحدة الأُمّة على أيديهم.

فأكثر هذه الأنظمة تدور ضمن أفلاك دولية ، لا ترى أنّ من مصلحتها وحدة الأُمّة ، بل تعمل لإبقائها مجزّأة ممزّقة.

وأغلب الحاكمين تسيطر عليهم نزعة التسلّط والتفرّد، وليسوا مخلصين لمصلحة الأُمّة ، ولا جادّين في تحقيق آمالها وتطلّعاتها، كما لا يمتلكون مستوى من الوعي السياسي الحضاري الذي يدفعهم للتعاون فيما بينهم.

من هنا، أصبحت المؤسّسات الرسمية ذات الطابع الوحدوي هياكل شكلية، وبقيت الأُطُر دون محتوى ومضمون حقيقي. وانتهت أغلب مشاريع الوحدة إلى التفكّك والخلاف والنزاع.

وهناك من يرى أنّ الوحدة يجب أن تبدأ من جماهير الأُمّة ، وذلك بتعبئة الجمهور، ودفعه لفرض الوحدة، وأن يمارس الناس السلوك الوحدوي، ويجسّدون عملية الوحدة في تعاملهم الاجتماعي.

وإذا ما أصبحت الوحدة مطلباً للناس، وتحرّكوا لتحقيقه، فإنّ إرادتهم ستنتصر على القوى والعناصر المناوئة والمضادّة للتوجّه الوحدوي.

ولكن ، كيف يمكن تعبئة الناس باتّجاه الوحدة، وهناك واقع من التمايز والتنوّع القومي والعرقي والمذهبي والإقليمي والسياسي والطبقي...؟ وكلّ لون

من ألوان التمايز قد صنع له فلسفة وتنظيراً، وأشاد عليهما مواقف وهياكل ومؤسّسات، بهدف الدفاع عن الذات، والخصائص المميّزة، في مواجهة ما يعتبره تهديداً لتلك الخصائص، ومحاولة لفرض الذوبان، وتجاوز الحقوق.

كانت الأُمّة في سالف عصورها الأولى ، تعيش حالة حضارية ونموذجية للوحدة، حيث انصهرت في بوتقة الإسلام شعوب مختلفة ومتمايزة، عرقياً وقومياً وقبيلياً، ومع انبثاق مدارس اجتهادية متعدّدة دينياً وسياسياً، إلّا أنّ الأجواء العامّة للأُمّة، كانت تنعم بمشاعر الوحدة، وكانت الأنظمة والقوانين السياسية والاجتماعية قائمة على هذا الأساس.

ومع حصول الكثير من الانحرافات السياسية والإدارية، على الصعيد الرسمي، من قبل الحاكمين، إلّا أنّ الحالة الشعبية كانت تعيش واقع الوحدة والاندماج، ولم يكن هناك شعور بالتناقض والتعارض، ما بين الخصائص والميزات العرقية والقومية، التي لم تكن ممارستها تثير أيّ حسّاسية، ولا كان يترتّب عليها أيّ أثر، في الحقوق العامّة، يميّز بين ذوي تلك الانتماءات، وما بين الانتماء إلى الكيان الواحد للأُمّة الواحدة.

لكن المؤسف والمؤلم هو ما حصل في هذه العصور المتأخّرة، من حصول زخم من المشاعر والأحاسيس العميقة في نفوس أبناء الأُمّة ، باتّجاه التأكيد على جوانب التمايز القومي والعرقي والطائفي والمذهبي.

مما يجعل عملية التوعية والتعبئة باتّجاه الوحدة، تحتاج إلى جهد خارق، وبرمجة دقيقة، لكي تتجاوز حالة الشعار والمشاعر، وتتحوّل إلى أطروحات فكرية، وبرامج عملية، تعالج المخاوف والتحفّظات، وتعطي الاطمئنان لمختلف الجهات، بأنّ الوحدة لا تعني مصادرة خصائصها وميزاتها، بل تفسح

لها المجال لتشارك في بناء الكيان الشامل، ولتتكامل مع سائر الجهات والأطراف.

ومشكلة أخرى تواجهنا في طريق تعبئة جمهور الأُمّة باتّجاه الوحدة، هي وجود الدعاوى والمدّعين، من حاملي رايات الوحدة، ورافعي شعاراتها، من حكّام وأحزاب، ومراكز قوى وفعاليات، في الوقت الذي تجيز فيه هذه الدعوات وتستثمر لأغراض مصلحية مناقضة للهدف الوحدوي، فكم من تجزئة وتفرقة ونزاع جرى تحت رايات الوحدة، وعلى أنغام شعاراتها؟ ممّا أحدث شيئاً من اليأس وردّة الفعل والتشكيك في الدعوات الوحدوية لدى قطاع عريض من جماهير الأُمّة.

كذلك كلّما حصل الالتباس والخلط، يصعب على الناس التمييز بين الدعوات الصادقة والأخرى الزائفة.

دور العلماء:

يبدو أنّ علماء الدين هم الجهة الأكثر تأهيلاً وقدوة على شقّ طريق الوحدة أمام الأُمّة وذلك للأسباب التالية:

أولاً: لما يفترض فيهم من أنّهم الأكثر تمسّكاً بتعاليم الإسلام، والأحرص على تطبيق مبادئه ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[1]. والوحدة، كمبدأ ونظام، ينبثقان من عمق الدين، عقيدة وتشريعاً، لابدّ وأن يحتضنها العلماء، ويهتمّون بتنفيذ أوامر الله حولها.

ثانياً: والعلماء مدعوون ومطالبون من قبل الله تعالى، قبل أيّ جهة أخرى،

---

(١) فاطر (٣٥): ٢٨.

بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأيّ معروف أكبر من الوحدة؟ وأيّ منكر أخطر من التجزئة والتفرقة؟

ثالثاً: وللعلماء رصيد كبير من الثقة في نفوس الناس، ممّا يجعل دعوتهم أكثر مقبولية، ويمكّنهم من التغلّب على حالات اليأس والتشكيك والالتباس، وأن يتعاطى الجمهور مع دعوتهم بثقة وجدية.

نشأة الاختلاف في الأمم السابقة:

ولأهمية موضوع وحدة الأُمّة، فإنّ القرآن الكريم يتناوله في العشرات من الآيات والسور ، ويعالجه من زوايا متعدّدة وجوانب مختلفة.

فبعض الآيات الكريمة تؤكّد على أهميّة الوحدة وضرورتها في حياة الأُمّة، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ**﴾[٢].

وآيات آخر في القرآن الكريم، تبين أضرار وأخطار الفرقة والخلاف، وتحذّر منها. يقول تعالى: ﴿**وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾[٣].

بينما تشير مجموعة من الآيات القرآنية إلى الجهات الداخلية والخارجية، التي تعمل على تمزيق المجتمع، وتغذي حالة النزاع والتمزق في الأُمّة ، منها قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء**﴾[٤]، وقوله

---

(١) الأنبياء (٢١): ٩٢.

(٢) آل عمران (٣): ١٠٣.

(٣) الأنفال (٨): ٤٦.

(٤) المائدة (٥): ٩١.

تعالى: ﴿**لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ**﴾[١]، والمقصود في الآية الكريمة المنافقون أو الطابور الخامس.

ومن المسارات التي سلكها القرآن الحكيم، في تناول موضوع الوحدة، التوجيه إلى قراءة أحوال الأُمم السابقة، في هذا المجال، وأخذ العبر والدروس من التحوّلات السلبية، التي حصلت لها، وعصفت بوحدتها وتماسكها، وجعلتها عرضة للتفرّق والتمزّق.

فمن أيّ وسط بدأ الخلاف في الأُمم السابقة؟ ومن أيّ شريحة اجتماعية انطلق وانتشر؟

الملفت للنظر ما يؤكّد عليه القرآن الكريم، في هذا السياق، من أنّ سبب الاختلاف في تلك الأُمم، ليس الجهل بالحقائق، ومنطلق الخلاف ليس من الأوساط الجاهلة بالدين والبعيدة عنه، وإنّما جاء الاختلاف من واقع العلم والمعرفة، وانبثق من الأوساط العالمة بالدين، والتي تحتضن الدعوة والكتب السماوية المقدّسة.

وهذا ما يظهر من آيات قرآنية عديدة. يقول تعالى: ﴿**وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا**﴾[٢]. ﴿**وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾[٣]. ﴿**وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ**﴾[٤].

---

(١) التوبة (٩): ٤٧.

(٢) البقرة (٢): ٢١٣.

(٣) آل عمران (٣): ١٩.

(٤) آل عمران (٣): ١٠٥.

وقد استوقفت هذه الملاحظة العديد من العلماء المفسرين للقرآن، عند تناولهم لبعض هذه الآيات الكريمة.

يقول السيد محمّد حسين الطباطبائي، عند تفسيره للآية رقم٢١٣ من سورة البقرة: «إنّه تعالى يخبرنا أنّ الاختلاف نشأ بين النوع في نفس الدين، وإنّما أوجده حملة الدين ممن أوتي الكتاب المبين: من العلماء بكتاب الله، بغياً بينهم وظلماً وعتوّاً»[١].

ويتحدّث السيّد عبد الأعلى السبزواري بتوضيح أكثر حول الموضوع عند تفسيره للآية٢١٣ من سورة البقرة فيقول: «والمعنى أنّ الاختلاف إنّما حصل من حملة الكتاب العالمين به، بغياً بينهم وتجاوزاً، فحرّفوا كتاب الله تعالى، وضيّعوه وتعدّوا حدوده.

ويُستفاد من قوله تعالى: ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ**﴾[٢] أنّ الاختلاف الحاصل في الكتاب والشريعة، لا يكون إلّا من حملة الكتاب الذين قد استبانت لهم الآيات، وهم الأصل في الاختلاف الواقع في الأديان الإلهية، وأنّ غيرهم، وإن كانوا على الخلاف، ولكنّهم منحرفون عن الصراط وليسوا بغاة، ويشهد لذلك الاختلاف في كلّ علم، فإنّه يكون من العالمين به دون غيرهم ممن لا علم له به.

كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿ **بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ**﴾[٣]، أنّ الكتاب إنّما نزل لرفع الاختلاف، والتوفيق بين الناس، وإسعادهم بما فيه من الحجج

---

(١) تفسير الميزان ٢: ١٢٢.

(٢) البقرة (٢): ٢١٣.

(٣) البقرة (٢): ٢١٣.

الواضحة والبراهين القويمة، ولكن يشوب الحق أهواء العالمين به، وأغراضهم الفاسدة، وزيغهم بتحريف الكتاب، أو تأويله بما لا يرتضيه، عزّ وجلّ، أو بتبديل آياته، والأخذ بمتشابهاته، والإعراض عن محكماته»[١].

وحول تفسير الآية١٠٥ من سورة آل عمران يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي:

«ثمّ نهاهم عن سلوك مسلك المتفرّقين، الذين جاءهم الدين والبينات الموجب لقيامهم به، واجتماعهم، فتفرقوا واختلفوا، وصاروا شيعاً، ولم يصدر ذلك عن جهل وضلال، وإنما صدر عن علم وقصد سيء، وبغي من بعضهم على بعض»[٢].

ويؤكّد نفس الحقيقة الدكتور وهبة الزحيلي عند تفسيره للآية٢١٣ من سورة البقرة فيقول: «ثمّ ذكر الله تعالى أنّ بعض أهل الكتاب، جعلوا كتابهم مصدر الاختلاف عدواناً وتجاوزاً للحقّ، فقال: لقد اختلف الرؤساء والأحبار وعلماء الدين في الكتاب الذي أنزله الله للحقّ بعدما جاءتهم البينات الواضحة، والأدلّة على سلامة الكتاب، وعصمته من إثارة الخلاف، وإنّه لإسعاد الناس، لا لإشقائهم والتفريق بينهم، ولم يكن ذلك الاختلاف من أولي العلم القائمين على الدين، الحافظين له بعد الرسل، والمطالبين بتقرّر ما فيه، إلّا حسداً وبغياً - جوراً - منهم، وتعدّياً لحدود الشريعة التي أقامها حواجز للناس»[٣].

---

(١) مواهب الرحمن ٣: ٢٨٧ – ٢٨٨.

(٢) تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان: ١٤٦.

(٣) التفسير المنير ٢: ٢٤٨.

ولعلّ القرآن الكريم، من خلال إثارته وطرحه المكرّر، للدور السلبي الذي لعبه علماء الدين في الأُمم السابقة، الذين اتّخذوا الدين مطيّة المصلحية، مع بعضهم البعض، فمزّقوا وحدة أُممهم، وحوّلوها إلى أحزاب متناحرة، وشيع متصارعة باسم الدين.

لعلّ القرآن يريد بذلك تنبيه الأُمّة وتحذيرها ، لتنظر إلى علمائها بعقول واعية، ولتتعامل معهم بعيون مفتوحة، لا بثقة عمياء وتقديس مطلق.

إذا اختلف علماء الدين:

قد يحدث الاختلاف والنزاع داخل أيّ شريحة من شرائح المجتمع، وعلى أيّ مستوى من مستوياته، وهو أمر سيء ضارّ، لكن أضراره تبقى ضمن حدود معيّنة، أمّا إذا حدث الاختلاف والنزاع في وسط علماء الدين، فإنّ الإضرار ستكون أشدّ، والخطر أعظم، وذلك ؛ لأنّه ينطوي على الأبعاد التالية:

استغلال الدين:

في الخلاف بين علماء الدين، يصبح الدين هو ميدان الصراع، وتكون القضايا الدينية هي أدوات النزاع والخلاف، حيث يسعى كلّ طرف للتحصّن بالدين، في مقابل الطرف الآخر، وتعزيز موقفه في النزاع بمبرّرات دينية، وقد يكون، كما هو الغالب، جوهر الصراع اختلافاً مصلحياً، لكنّه ما يلبث أن يأخذ المنحى الديني، أو يكون في البداية اختلافاً محدوداً، ضمن مسألة من المسائل الدينية، لكن حالة الصراع توسّع رقعة الخلاف، وبشكل مفتعل متكلّف، يطال أغلب المسائل والقضايا الدينية، حتّى يصبح الدين الواحد دينين، والمذهب مذهبين، والمدرسة الفكرية تنشطر إلى مدرستين.

ثمّ يزايد كلّ طرف على الآخر في التمسّك بالدين، ويتهمه في دينه

وعقيدته والتزامه، ويعطي لنفسه الحقّ في إصدار أحكام التكفير والتفسيق والمروق والخروج من الدين.

وهكذا يصبح الدين ساحة صراع، وخنادق للقتال، ومواقع للمهاجمة والرمي وتصويب السهام، فتتمزّق الأُمّة وتحترب وتتشرذم باسم الدين، وتحت رايات تحمل شعاراته، وخلف قيادات تلبس مسوحه.

طمس الحقائق الدينية وتحريفها:

لعلّ من أسوأ وأخطر آثار الصراع والخلاف بين علماء الدين، انعكاسه على طرح وتبيين الحقائق الدينية.

فقد يلجأ بعض طرفي الصراع، أو كلاهما، إلى إنكار حقيقة دينية، أو طمسها، لأنّ الطرف الآخر يستفيد منها، أو يقول بها.

وقد يحرّف شيئاً من مفاهيم الدين، أو ينسب للدين ما ليس منه، نكاية بالطرف الآخر، وكم حصل في الديانات السابقة، وحتّى في الإسلام، تحريف وتزوير وإضافة وإنقاص، بسبب حالات الخلاف والصراع، بين المذاهب والمدارس والجهات الدينية.

وفي أكثر من آية في القرآن الكريم، جاء التحذير من التحريف والتزوير، والطمس للحقائق الدينية، بدوافع مصلحية، وعلى خلفية التعصّب والاختلاف. يقول تعالى: ﴿**مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ**﴾[1]، أيّ يصرفونه عن المعنى المقصود منه، وينسبونه إلى معنى آخر.

وحينما يجد عالم الدين نفسه في مقابل عالم آخر، فإن الدوافع الذاتية

---

(١) النساء (٤): ٤٦.

قد تدفعه لإثبات تميزه، أو تفوقه على مقابله، وإن كان ذلك على حساب الحق والحقيقة، إلا من عصم الله تعالى من الورعين المخلصين الأتقياء.

من هنا جاءت تعاليم الإسلام، وتوجيهات أئمّة الهدى، للتحذير من الدخول في أي نقاش أو مناظرة تشوبها الدوافع الذاتية، فالحوار والجدال مع الآخرين المختلفين مع الإنسان دينياً، يجب أن يكون خالصاً لخدمة الحقّ، واستكشاف الحقيقة، وضمن الآداب والضوابط، التي ترتقي بالحوار والجدال إلى أفضل مستوى، وأحسن أسلوب، كما يقول تعالى: ﴿**وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[١]، ﴿**وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[٢].

روي أنّ رجلاً قال للإمام الحسين بن علي عليه السلام: «اجلس حتّى نتناظر في الدين فقال: يا هذا أنا بصير بديني، مكشوف عليّ هداي، فإن كنت جاهلاً بدينك، فاذهب فاطلبه، مالي وللمماراة؟! وإنّ الشيطان ليوسوس للرجل ويناجيه ويقول: ناظر الناس في الدين لئلا يظنّوا بك العجز والجهل»[٣].

إنّ الإخلاص للحقيقة والموضوعية في الحوار والمناظرة عند الاختلاف، تستلزم القبول بالحقّ، وإن جاء على لسان الخصم، وحتّى لو كان الطرف الآخر مبطلاً في أصل دعواه واتّجاهه، لكنّه أورد برهاناً صحيحاً في معرض جداله، فإنّه لا يصحّ رفض البرهان الصحيح بسبب العجز عن مقابلته.

وهذا ما يشير له حديث رائع مروي عن الإمام جعفر بن محمّد

---

(١) العنكبوت (٢٩): ٤٦.

(٢) النحل (١٦): ١٢٥.

(٣) منية المريد: ١٧١.

الصادق عليه السلام قال فيه: «أمّا الجدال بغير التي هي أحسن، أن تجادل مبطلاً، فيورد عليك باطلاً، فلا تردّه بحجّة قد نصبها الله، ولكن تجحد قوله، أو تجحد حقاً، يريد ذلك المبطل أن يعين به باطله، فتجحد ذلك الحقّ مخافة أن يكون له عليك فيه حجة، لأنّك لا تدري كيف المخلص منه».

وفي فقرة أخرى من نفس الحديث: «وأمّا الجدال بغير التي هي أحسن، بأن تجحد حقاً لا يمكنك أن تفرق بينه وبين باطل من تجادله، وإنّما تدفعه عن باطله بأن تجحد الحقّ، فهذا هو المحرّم لأنّك مثله، جحد هو حقاً، وجحدت أنت حقاً آخر»[١].

وقد أفرد الإمام أبو حامد الغزالي باباً في موسوعته إحياء علوم الدين، لبيان آفات المناظرة، وما يتولّد منها من مهلكات الأخلاق[٢].

والغريب أن بعض العلماء يجاهر بتخليه عن الموضوعية، ومخالفته للحقيقة والأحكام الشرعية، بمبرّر التمايز عن الطرف الآخر، ومخالفته فيما ذهب إليه.

وكمثال عن ذلك، ما ذكره الزرقاني في المواهب اللدنية، في صفة عمّة النبي صلى الله عليه وآله على رواية علي في إسدالها على منكبه حين عمّمه رسول الله صلى الله عليه وآله، ثمّ ذكر قول الحافظ العراقي أن ذلك أصبح شعار كثير من فقهاء الإمامية، فينبغي تجنّبه لترك التشبّه بهم[٣].

وفي تفسيره للآية الكريمة: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا**

---

(١) الاحتجاج ١: ١٤ -١ذ٥ فصل »في ذكر طرف مما جاء عن النبي صلى الله عليه وآله من الجدال...«.

(٢) إحياء علوم الدين ١: ٦٨.

(٣) لاحظ شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللدنية ٦: ٢٧٦.

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[١]، يتحدث العلّامة الآلوسي البغدادي عن الصلاة على غير الأنبياء والملائكة عليهم السلام، فيقول: «اضطربت فيها أقوال العلماء، فقيل تجوز مطلقاً، قال القاضي عياض: وعليه عامة أهل العلم، واستدل له بقوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ** ﴾[٢]، وبما صحّ من قوله صلى الله عليه وآله: «اللهّم صل على آل أبي أوفى»[٣]، وقوله صلى الله عليه وآله وقد رفع يديه: «اللهّم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة»[٤]. وصحّح ابن حبّان خبره أنّ امرأة قالت للنبي صلى الله عليه وآله: «صل علي وعلى زوجي ففعل»[٥]، وفي خبر مسلم رضي الله عنه، أنّ الملائكة تقول لروح المؤمن: صلّى الله عليك وعلى جسدك»[٦]، وقيل لا تجوز مطلقاً، وقيل لا تجوز استقلالاً وتجوز تبعاً فيما ورد فيه النصّ كالآل أو ألحق به كالأصحاب».

ثمّ يذكر أدلّة أحد المانعين من الصلاة على غير الأنبياء والملائكة، وهو محل الشاهد في بحثنا فيقول عنه: «هو أمر لم يكن معروفاً في الصدر الأول، وإنّما أحدثه الرافضة في بعض الأئمّة والتشبه بأهل البدع، منهي عنه فتجب

---

(١) الأحزاب (٣٣): ٥٦.

(٢) الأحزاب (٣٣): ٤٣.

(٣) صحيح البخاري ٢: ١٣٦ باب »ما يستخرج من البحر«.

(٤) سنن أبي داود ٢: ٥١٥، الحديث٥١٨٥.

(٥) صحيح ابن حبّان ٣: ١٩٧، باب»إباحة الصلاة على غير الأنبياء«..

(٦) صحيح مسلم ٨: ١٦٢، باب »عرض مقعد الميت من الجنة...« وفيه:

»عن أبي هريرة قال: إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدانها قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك قال: ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض صلّى الله عليك وعلى جسدٍ كنت تعمرينه فينطلق به إلى ربّه عزّ وجلّ ثمّ يقول انطلقوا به إلى آخر الأجل...«.

مخالفتهم»[١].

وينقل الشيخ ابن تيمية في منهاج السنّة أنّ «المعروف في العراق أنّ الجهر بالبسملة كان من شعار الرافضة، وأنّ القنوت في الفجر كان من شعار القدرية، حتّى إنّ سفيان الثوري وغيره من الأئمّة يذكرون في عقائدهم ترك الجهر بالبسملة لأنّه كان عندهم من شعار الرافضة»[٢].

ثمّ يقول ابن تيمية: «ومن هنا ذهب من ذهب من الفقهاء إلى ترك بعض المستحبات إذا صارت شعاراً لهم، (الشيعة)، فإنّه وإن لم يكن الترك واجباً لذلك، لكن في إظهار ذلك مشابهة لهم، فلا يتميّز السني من الرافضي، ومصلحة التميّز عنهم لأجل هجرانهم ومخالفتهم أعظم من مصلحة هذا المستحب»[٣].

إضعاف المصداقية والثقة في الدين وعلمائه:

يتأثّر الناس، في نظرتهم إلى أيّ فكرة أو مبدأ، بالواقع المنتسب إلى تلك الفكرة أو المبدأ، سلباً أو إيجاباً. وكما يقال، فالناس عقولهم في عيونهم، فالواقع الجميل يعتبر عامل جذب وتبشير بالفكرة التي يرتبط بها، بينما ينفر الواقع السيّء من أيّ فكرة ينتسب إليها.

والإسلام، كمنظومة قيم وتشريعات إلهية عظيمة، يجب أن تنعكس وتتجلّى في حياة المؤمنين به، ليكون ذلك دافعاً لإقبال الآخرين على اعتناقه، والالتزام به، من خلال مشاهدتهم لنموذج تطبيقي مشرّف.

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ٢٢: ٨٥.

(٢) منهاج السنّة النبوية ٤: ١٥١.

(٣) منهاج السنة النبوية ٤: ١٥٤.

أما لو حصل العكس من ذلك، وكانت حياة المتديّنين سيئّة متخلفّة، فإنّ ذلك سيسبّب عزوفاً عند الآخرين من الدين.

لذلك يروى عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام، قوله مخاطباً تلامذته وأتباعه: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم، ليروا منكم الورع والاجتهاد والصّلاة والخير، فإنّ ذلك داعية»[١].

وفي حديث آخر يخاطب أتباعه قائلاً: «أنّكم قد نسبتم إلينا، كونوا لنا زيناً، ولا تكونوا علينا شيناً»[٢].

وعلماء الدين هم قمّة المجتمع الإسلامي، وطليعته، فإذا ما كان واقعهم مشرقاً نقيّاً، يعكس صفاء قيم الإسلام ، فإنّ ذلك يقدّم للآخرين صورة مشرقة عن الدين، مما يزيد من الاندفاع والإقبال على الدين، والالتزام بمبادئه.

أما إذا ظهر الخلاف والصراع بين علماء الدين، ونشط كلّ واحد منهم في إظهار معايب الآخر وأخطائه، فسيعطي ذلك صورة مشوّهة عن الإسلام، وسيتسائل الكثيرون: إذا كانت تعاليم الدين سليمة ومجدية فلماذا لا يظهر أثرها على حملته والمبشّرين به؟

وعلماء الدين يفترض أن يكونوا قادة المجتمع المسلم، ومحل ثقته ومحور التفافه، وكيف تتوفّر فيهم ثقة الناس، إذا ما اختلفوا وتصارعوا، وعملوا على إسقاط سمعة بعضهم بعضاً؟

لقد استفاد المخالفون للإسلام كثيراً من وجود الخلافات والنزاعات بين

---

(١) الكافي ٢: ٧٨ الحديث ١٤ باب » الورع «.

(٢) مشكاة الأنوار: ١٣٤.

الجهات الدينية، لإبعاد الناس عن العلماء، عبر التشكيك في مصداقيتهم، والتأكيد على دوافعهم الذاتية المصلحية، ونزوعهم إلى المواقع والمناصب.

عمق الخلاف وانتشاره:

نظراً لموقعية العلماء المميّزة في أوساط جماهير الأُمّة، وللتأثير الكبير الذي يمتلكونه، فإنّ اختلافهم ونزاعهم لن يبقى في حدودهم، وإنّما سيعكسه كلّ منهم على أتباعه، وسينشره في ساحة نفوذه وتأثيره، وبذلك يصبح الخلاف بين كلّ عالمِين خلافاً ونزاعاً بين جماعتين وفرقتين من المجتمع، وليس خلافاً بين شخصين، كما هو شأن الاختلاف بين الأشخاص العاديين.

وقد يجد الناس أنفسهم محشورين، ومتورّطين في صراع ونزاع بين عالمِين، تحت عنوان قضية فكرية، أو مسألة شرعية، لا يعرفون مضمونها، ولا دليلها وبرهانها، وإنّما يتمحور كلّ قسم منهم حول عالم يثقون به، أو قد توارثوا الولاء لاتّجاهه.

وإضافة إلى انتشار الخلاف، واتساع رقعته، بين أبناء المجتمع، هناك مشكلة أعقد، هي حدّة الصراع وعمقه غالباً، حيث يأخذ الخلاف صبغة دينية، ويرى كلّ طرف نفسه محقاً، والآخر مبطلاً، وقد يجيز لنفسه تكفير الآخر، أو تفسيقه، أو مقاطعته، أو إعلان الحرب عليه.

وهذا ما يحدث عادة في الخلافات الدينية، فأقسى الحروب وأبشعها تلك التي تتمّ بشعارات دينية، وأعمق النزاعات وأشدّها ما يدور منه في أوساط المتديّنين، وبتصدّي القيادات الدينية.

الانشغال بالخلافات:

العالِم يجب أن يكرّس جهودَهُ ووقته لاستنباط حقائق الدين وأحكامه، ولنشرها وبثّها في المجتمع، وللدعوة إلى الله تعالى، حتّى في أوساط غير المسلمين، ولردّ شبهات الكفّار والمخالفين للدين، وتعبئة الأُمّة لمواجهة الأخطار المحدقة بها، ولترتقي إلى مستوى السيادة بين الأُمم لتكون كما أرادها الله تعالى: ﴿ **خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَـئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ**﴾[١]، ﴿**شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ**﴾[٢].

لكن الخلافات والنزاعات بين علماء الدين تشغلهم ببعضهم بعضاً، فتتركز أذهانهم وأفكارهم في ميدان هذا الصراع، وتتجه جهودهم وأنشطتهم لتحقيق الأهداف والنقاط في ساحته، وتتمحور علاقاتهم وتحالفاتهم على أساسه.

وحينما ابتلي علماء الأُمّة في عصور التخلّف بهذا الداء الوبيل، تقلّصت جهودهم للتبشير بالإسلام، وتوسيع رقعة انتشاره، كما توقّفت لديهم حركة الإبداع العلمي والفكري، وأصبح الجهد منصبّاً على شرح المتون السابقة، والجدل حول مفاداتها، ممّا أدّى إلى انكماش دورهم القيادي في المجتمع.

ولو تصفحّنا المكتبة الإسلامية لوجدناها مليئة بكتب الخلافات والردود المتبادلة، بين الأشاعرة والمعتزلة، وبين الشيعة والسنّة، وداخل كلّ مذهب بين الاتّجاهات المختلفة.

---

(١) البقرة (٢): ٢٢١.

(٢) البقرة (٢): ١٤٣.

بينما تقلّ الكتابات التي تسبر أغوار الفكر الإسلامي، وتستجلي أبعاده، وتستنبط برامج الشريعة لمختلف جوانب الحياة، وتستنهض الأُمّة لتفجير كفاءاتها، ولمواجهة التحدّيات التي تحيط بها، وتوجّه الأنظار إلى خزائن الكون، وثروات الطبيعة، وآفاق الحياة.

وهكذا تزّيف الخلافات والصراعات اهتمامات العلماء، وتشغلهم عن القيام بمهامهم الأساسية، وأدوارهم الطليعية.

الاختلاف العلمي:

هناك تساؤل عريض يدور في أوساط الجمهور، وعامة أفراد المجتمع، هو: لماذا وكيف يحصل الاختلاف بين العلماء؟ وعادة ما يأتي السؤال بصيغة الاستغراب والاستنكار!

الاستغراب نتيجة لما يعتقده الناس من أنّ العلماء يعبّرون عن الدين، ويتحدّثون عن حقائقه وأحكامه، والدين واحد وحقائقه وأحكامه واحدة ثابتة، فكيف يختلف العلماء فيما ينقلونه عن الدين، وتتعدد فتاواهم وآراؤهم في الموضوع الواحد، والمسألة الواحدة؟ ثم كيف يدرك الناس ويعرفون الرأي الحقيقي، والحكم الواقعي للدين، مع هذا الاختلاف والتفاوت في الآراء والفتاوى؟

والاستنكار لما يتوقّعه الناس من نزاهة العلماء، وورعهم، وحسن نواياهم، والتزامهم بتعاليم الإسلام، وتخلّقهم بأخلاقه وآدابه، مما يجعلهم، وفقاً لتوقعات الناس، منسجمين متعاونين فيما بينهم، لا سبيل للشيطان عليهم، ولا تأثير للمصالح والأغراض المادية في نفوسهم، وإلّا فكيف يكونون علماء

وأئمّة للناس، وحجّة فيما بينهم وبين الله؟

هذا التساؤل الذي يدور بإلحاح، في أوساط العامة من الناس، يستوجب منّا وقفة متأنيّة، ومعالجة هادئة، للإجابة عليه باستعراض أهمّ الأسباب والعوامل، التي تنتج منها حالات الاختلاف بين العلماء، وهي في مجملها نفس الأسباب والعوامل لأيّ اختلاف آخر يجري بين أبناء البشر، ضمن مختلف الشرائح والتخصّصات.

فالعلماء، مثلهم مثل سائر الناس، والعلوم الدينية التي اكتسبوها لا تتجاوز بهم طبيعتهم البشرية، ولا تنقلهم إلى الحالة الملائكية، كما لا تمنحهم درجة العصمة التي اختصّ الله تعالى بها ، أنبياءه وأوصياءهم.

صحيح أنّ العلماء يعتمدون في آرائهم الدينية، وفتاواهم الشرعية، على مصدرين أساسيين، هما الكتاب والسنّة، لكن ذلك لا يعني الاتفاق في الآراء والفتاوى.

فبالنسبة للقرآن الكريم، وهو المصدر الأول، والمقطوع بصدوره من قبل الله تعالى حرفاً حرفاً، دون أي زيادة أو نقصان، إلّا أنّ فهم الدلالة والمعنى في بعض الآيات الكريمة، قد يكون مجالاً للاختلاف بين العلماء والمفسّرين، إمّا لأسباب تعود للغة، كما إذا ورد في الآية لفظ مشترك، وضع لمعان متعدّدة مختلفة، كلفظ «عين» حيث تستعمل في الباصرة، والجارية، والذهب الخالص، والرقيب، ولم تكن إلى جانبها قرينة تدلّ على المراد منها، فهنا يحصل الاختلاف في حملها على أيّ معانيها.

ومن شواهد هذه الحالة قوله تعالى: ﴿**وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ**

ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ﴾[١]، ولفظ «القرء» في اللغة مشترك، بين الطهر والحيض، لذا اختلف الفقهاء في عدة المطلقة، أتكون بالحيض أم بالإطهار.

وكذلك حينما يكون للفظ استعمالان: حقيقي ومجازي، فيختلف العلماء حول المراد من ذلك اللفظ في الآية، هل هو المعنى الحقيقي أو المجازي...؟ وما شابه ذلك من موارد. كما في اختلافهم حول آية الوضوء، في سورة المائدة وهي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ**﴾[٢].

فالآية تنصّ على مسح الرأس في الوضوء، لكن حرف الباء الوارد في «برؤوسكم» هل هو للتبعيض؟ فيكفي مسح بعض الرأس، وبه قال فقهاء مذهب أهل البيت، وفقهاء المذهب الحنفي والشافعي، أم هو حرف زائد؟ أو للإلصاق؟ فيجب مسح جميع الرأس، كما هو رأي فقهاء المذهب المالكي والحنبلي.

وقوله تعالى «وأرجلكم» هل هي معطوفة على قوله تعالى: ﴿فاغسلوا وجوهكم﴾؟ فيكون حكم الرِجلين هو الغَسل، كالوجه وهو ما يراه فقهاء المذاهب الأربعة، أو أنّها معطوفة على قوله تعالى: ﴿وامسحوا برؤوسكم﴾ فيكون حكم الرجلين المسح كالرأس، وهو ما ذهب إليه فقهاء مذهب أهل البيت ويستند أهل كلّ رأي لدليل يعتمدون عليه.

وقد ينشأ الاختلاف حول مفاد النصّ القرآني، لتفاوت مستويات المعرفة

---

(١) البقرة (٢): ٢٢٨.

(٢) المائدة (٥): ٦.

والإدراك، أو نظراً لعلاقة النصّ بنصوص أخرى من القرآن أو السنّة.

وبالنسبة للسنّة النبوية، وهي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، فإنّ مجال الاختلاف فيها بين العلماء أوسع، وأسبابه أكثر، لأنّ القرآن الكريم يتّفق المسلمون على قطعية صدوره من قبل الله تعالى، ثمّ قد يختلفون في مداليل ومعاني بعض آياته كما سبق ؛ أمّا السنّة، فإنّ كلّ حديث من أحاديثها يحتاج إلى بحث، للتأكّد من صحّة سنده أولاً، ومن ثمّ يكون البحث في مدلوله ومعناه، وكلا الجانبين يتسع لاختلاف وتعدّد وجهات النظر.

فالعالِم لا يقبل حديثاً، إلا إذا كان مطمئناً من صدق راويه، وصحّة سند روايته، وهنا يتفاوت تقويم العلماء للرواة، وقبولهم لأسانيد الروايات.

ثمّ قد يحصل الاتّفاق على صحّة حديث، لكن يختلف في تحديد معناه ودلالته، وكمثال على ذلك حديث غدير خم وهو: «قوله صلى الله عليه وآله يوم غدير خم: (موضع بالجحفة)، مرجعه من حجّة الوداع، بعد أن جمع الصحابة، وكرّر عليهم: ألست أولى بكم من أنفسكم، ثلاثاً، وهم يجيبون بالتصديق والاعتراف، ثمّ رفع يد علي، وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهّم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحبّ من أحبّه، وابغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وادر الحق معه حيث دار»[1].

وهذا الحديث أجمع علماء الشيعة على صحّته وقبوله، ورأوه دالا على تنصيب علي بن أبي طالب كإمام وولي وخليفة من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله، ووافقهم على قبول الحديث والتسليم بصحّته أكثر علماء السنّة، ولكنّهم

(١) الصواعق المحرقة ١: ١٠٦.

خالفوهم في تحديد دلالة الحديث.

وأورده المحدّث السلفي المعاصر، الشيخ محمّد ناصر الدين الألباني، في كتابه سلسلة الأحاديث الصحيحة، وعدّد له أكثر من عشرين طريقاً، ثمّ أضاف قائلاً: «وللحديث طرق أخرى كثيرة، جمع طائفة منها الهيثمي في المجمع (٩/ ١٠٣ - ١٠٨) وقد ذكرتُ وخرّجتُ ما تيسّر لي منها ممّا يقطع الواقف عليها، بعد تحقيق الكلام على أسانيدها، بصحّة الحديث يقيناً، وإلّا فهي كثيرة جدّاً، وقد استوعبها ابن عقدة في كتاب مفرد. قال الحافظ ابن حجر: منها صحاح ومنها حسان»[١].

يقول ابن حجر: «أنّه حديث صحيح لا مِرْية فيه، وقد أخرجه جماعة كالترمذي والنسائي وأحمد، وطرقه كثيرة جداً، ومن ثمّ رواه ستة عشر صحابياً، وفي رواية لأحمد أنّه سمعه من النبيﷺ ثلاثون صحابياً، وشهدوا به لعلي لما نوزع أيام خلافته، كما مرّ وسيأتي، وكثير من أسانيدها صحاح وحسان، ولا التفات لمن قدح في صحّته ولا لمن ردّه»[٢].

لكنّه يخالف علماء الشيعة في الاستدلال بالحديث على إمامة علي وخلافته بقوله: «لا نسلم أنّ معنى الولي ما ذكروه ، بل معناه الناصر، لأنّه مشترك بين معان، كالمعتق والعتيق، والمتصرّف في الأمر، والناصر والمحبوب، وهو حقيقة في كلّ منها وتعيين بعض معاني المشترك من غير

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤: ٣٤٣، والصواعق المحرقة ١: ١٠٦.

(٢) الصواعق المحرقة ١: ١٠٦.

دليل يقتضيه تحكّم لا يعتدّ به»[١].

بينما يرى علماء الشيعة أنّ القرائن الحالية التي تزامنت مع النصّ من أمر رسول اللهﷺ بإيقاف حركة سير قوافل الحجيج، والذين بلغ عددهم حوالي مائة ألف، في تلك الصحراء التي يلفحها الهجير، وتلتهب رمالها بوهج الظهيرة، ومن أخذهﷺ بيد علي، ورفعها أمام الناس، وكذلك القرائن اللفظية كقولهﷺ: «ألست أولى بكم من أنفسكم»، ثلاثاً، وهم يجيبونه بالتصديق، ودعائه لعلي بتلك الدعوات المميّزة، اللهُمَّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله».

إضافة إلى العديد من النصوص والإشارات والمؤشّرات، والتي يرى فيها علماء الشيعة تحديداً وتأكيداً لدلالة هذا النصّ على تنصيب الإمام علي للخلافة والإمامة.

فهنا اتفاق على النصّ وصحّة صدوره عن النبيﷺ لكن الاختلاف هو في تحديد دلالة النصّ.

وهناك مصادر أخرى يختلف العلماء في مدى وحدود حجيّتها للتشريع الإسلامي، كالإجماع والعقل، وما يتفرّع عنه من قياس واستحسان.

فالإجماع مثلاً هل حجّة بذاته، وكأصل مستقل، من أصول التشريع، كما يقول بذلك جمهور فقهاء المذاهب الأربعة؟ أم أنّه حكاية عن أصل، فحجيّته تتوقّف على كاشفيته عن رأي المعصوم كما يقول فقهاء الشيعة؟

---

(١) المصدر السابق: ١٠٧.

ثمّ ما هي حدود الإجماع الذي يحتجّ به؟ هل هو إجماع مطلق الأُمّـة؟ أو خـصوص المجتهـدين مـنهم فـي عـصر؟ أو اتفـاق أهـل المدينـة؟ أو اتفـاق مجتهدي المذهب خاصّة؟

ظاهرة الاختلاف العلمي:

الاختلاف في الرأي والفتوى بين العلماء، مع وحدة المصدر، هو أمـر لـه أسبابه، ومبرّاته المعقولة، وهي جزء من ظاهرة الاختلاف الطبيعية، بـين أبنـاء البشر، في مختلف مجالات المعرفـة، وميـادين الحيـاة. فالأطبـاء والمهندسـون والاقتصاديون والفنّيون، وسائر الشرائح العلمية والعمليـة فـي المجتمـع، تتعـدّد في أوساطهم المدارس والمناهج، والآراء والنظريات.

وقد يضيق البعض ذرعاً بهذا الاختلاف بين العلماء، في الفتـوى والـرأي، ويتساءلون عن إمكانية تلافي حالة الاختلاف، والخروج منها، بأن يتّفق علمـاء الإســلام علــى آراء وفتــاوى موحــدّة، فــي الأصــول والفــروع، للعبــادات والمعاملات، فلا تكون هناك مذاهب متعدّدة، ولا مدارس مختلفة، ولا أحكام متضاربة.

لكن هـذه أمنيـة لا تنـسجم مـع طبيعـة الـدين، والـذي أراد الله تعـالى أن تكـون فيـه مـساحة للاجتهـاد، وشـحذ العقـول والأذهـان، وعبـر ذلـك يبتلـى الإنسان، ويمتحن إخلاصه في البحث عـن الحقيقـة والتـسليم لهـا، ولـو كانـت كلّ الأحكام منصوصة واضحة، لا تحتمـل خلافـاً، لمـا كـان هنـاك بحـث ولا اجتهاد، ولا استلزم الأمر ابتلاءً وامتحاناً.

ولعـل فـي قولـه تعـالى: ﴿**هُوَ الَّذِيَ أَنـزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَـابَ مِنْـهُ آيَـاتٌ مُّحْكَمَـاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَـابِ وَأُخَـرُ مُتَـشَابِهَاتٌ فَأَمَّـا الَّـذِينَ فـي قُلُـوبِهِمْ زَيْـغٌ**

فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[1]، لعلّ في ذلك إشارة إلى هذا المعنى.

كما أنّ طبيعة اللغة تنتج شيئاً من الاختلاف، فالقرآن الحكيم نصوص قولية لفظية، والسنّة المنقولة كذلك، ألفاظ وأقوال، والأقوال لدى أبناء البشر، يرد فيها الاختلاف، لوجود الألفاظ المشتركة، التي تحتمل أكثر من معنى، لوجود المعاني الحقيقية والمجازية، ولإمكانية الدلالة بالمنطوق والمفهوم ولذا تتعدّد الشروح والتفسيرات لأقوال الأدباء والعلماء والحكماء، ويحصل الاختلاف في تفسير مواد القوانين والمعاهدات، والوثائق الرسمية والنقل التاريخي.

وأخيراً، فإنّ طبيعة البشر، في تفاوت مستويات علومهم وأفهامهم، واختلاف توجهاتهم، وحالاتهم النفسية، تنعكس ولا شك على استنتاجاتهم وآرائهم ومواقفهم.

لكلّ ذلك يكون الاختلاف العلمي في الرأي والفتوى أمراً طبيعياً لا مفرّ منه ولا يمكن تجاوزه.

إيجابيات الاختلاف العلمي:

على أنّ هذا الاختلاف العلمي قد أسهم في تنشيط حركة الفكر والاجتهاد، وأنتج هذه الثروة المعرفية الكبيرة للأُمّة، فلو كان هناك رأي واحد ثابت، في تفسير الآيات القرآنية، لما كانت لدينا هذه المكتبة القرآنية الواسعة من التفاسير، حيث يسعى كلّ مفسّر لإمعان النظر والتدبّر في الآيات الكريمة،

---

(١) آل عمران (٣): ٧.

واكتشاف الجديد والمزيد من آفاقها ومعانيها، دون أن يقيّد حركة فكره برأي مفسِّر سابق.

ولو كان هناك سقف في الفتوى برأي محدّد، في جميع الأحكام، لا يمكن تجاوزه، لما توفّرت للأُمّة هذه الثروة الفقهية التشريعة الضخمة، والتي نوّهت بها المجامع والمؤتمرات العلمية مثل مؤتمر لاهاي للقانون المقارن سنة١٩٣٦م، ومؤتمر باريس سنة١٩٥١م.

ويدرك العلماء المفكّرون أهمّية هذه الثروة العلمية، وما فيها من تنوّع في الأفكار والاجتهادات، تتيح المجال لتقديم البرامج والأطروحات التشريعية المتكاملة، لمختلف مجالات الحياة.

حينما قام الفقيه الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر ببحثه العلمي، ودراسته القيّمة، حول نقد المذاهب الاقتصادية الماركسية والرأسمالية، ورسم معالم المذهب الاقتصادي للسلام، وجد في تنوّع الآراء الاجتهادية للفقهاء المسلمين، رصيداً هاماً، استفاد منه في تكوين صورة متكاملة عن الاقتصاد الإسلامي. يقول رحمه الله: «فالاجتهاد إذن عملية معقّدة، تواجه الشكوك من كلّ جانب. ومهما كانت النتيجة راجحة في رأي المجتهد، فهو لا يجزم بصحّتها في الواقع، ما دام يحتمل خطأه في استنتاجها، إمّا لعدم صحّة النصّ في الواقع وإن بدا له صحيحاً، أو لخطأ في فهمه، أو في طريقة التوفيق بينه وبين سائر النصوص، أو لعدم استيعابه نصوصاً أخرى ذات دلالة في الموضوع، ذهل عنها الممارس، أو عاثت بها القرون.

هذا لا يعني، بطبيعة الحال، إلغاء عملية الاجتهاد، أو عدم جوازها، فإنّ

الإسلام - بالرغم من الشكوك التي تكتنف هذه العملية - قد سمح بها، وحدّد للمجتهد المدى الذي يجوز له أن يعتمد فيه على الظنّ، ضمن قواعد تشرح عادة في علم أصول الفقه، وليس على المجتهد إثم إذا اعتمد ظنّه في الحدود المسموح بها، سواء أخطأ أو أصاب.

وعلى هذا الضوء، يصبح من المعقول ومن المحتمل أن توجد لدى كلّ مجتهد مجموعة من الأخطاء والمخالفات لواقع التشريع الإسلامي، وإن كان معذوراً فيها. ويصبح من المعقول أيضاً أن يكون واقع التشريع الإسلامي في مجموعة من المسائل التي يعالجها موزّعاً هنا وهناك، وبنسب متفاوتة في آراء المجتهدين، فيكون هذا المجتهد على خطأ في مسألة، وصواب في أخرى، ويكون الآخر على العكس...

ولكن علينا أن نتساءل: هل من الضروري أن يعكس لنا اجتهاد كلّ واحد من المجتهدين، بما يضمّ من أحكام، مذهباً اقتصادياً كاملاً، وأسساً موحّدة منسجمة مع بناء تلك الأحكام وطبيعتها؟

ونجيب على هذا السؤال بالنفي، لأنّ الاجتهاد الذي يقوم على أساسه استنتاج تلك الأحكام معرّض للخطأ، وما دام كذلك، فمن الجائز أن يضمّ اجتهاد المجتهد عنصراً تشريعياً غريباً على واقع الإسلام، قد أخطأ المجتهد في استنتاجه، أو يفقد عنصراً تشريعياً إسلامياً لم يوفّق المجتهد للظفر به في النصوص التي مارسها، وقد تصبح مجموعة الأحكام التي أدّى إليها اجتهاده متناقضة في أسسها بسبب هذا أو ذاك، ويتعذر عندئذ الوصول إلى رصيد نظري كامل يوحدّ بينها، أو تفسير مذهبي شامل يضعها جميعاً في اطار واحد...

فليس من الضروري أن تعكس الأحكام التي يضعها ذلك الاجتهاد مذهباً اقتصادياً كاملاً، وأساساً نظرياً شاملاً، ما دام من الممكن فيها أن تضم عنصراً غريباً أو تفقد عنصراً أصيلاً بسبب خطأ المجتهد.

قد يؤدّي خطأ واحد في مجموعة تلك الأحكام إلى قلب الحقائق في عملية الاكتشاف رأساً على عقب، وبالتالي إلى استحالة الوصول إلى المذهب الاقتصادي، عن طريق تلك الأحكام.

لهذا، قد يواجه الممارس لعملية اكتشافه المذهب الاقتصادي محنة، هي محنة التناقض بين وصفه مكتشفاً للمذهب، ووصفه مجتهداً في استنباط الأحكام. وذلك فيما إذا افترضنا أن المجموعة من الأحكام التي أدّى إليها اجتهاده الخاص، غير قادرة على الكشف عن المذهب الاقتصادي. فالممارس في هذه الحالة، بوصفه مجتهداً في استنباط تلك الأحكام، مدفوع بطبيعة اجتهاده إلى اختيار تلك الأحكام التي أدّى إليها اجتهاده، لينطلق منه في اكتشافه للمذهب الاقتصادي.

ولكنّه، بوصفه مكتشفاً للمذهب، يجب عليه أن يختار مجموعة منسقة من الأحكام، منسجمة في اتجّاهاتها ومدلولاتها النظرية، ليستطيع أن يكتشف على أساسها المذهب، وهو حين لا يجد هذه المجموعة المنسقة في الأحكام التي أدى إليها اجتهاده الشخصي، يجد نفسه مضطراً إلى اختيار نقطة انطلاق أخرى، مناسبة لعملية اكتشافه...

والسبيل الوحيد الذي يتحتم على الممارس سلوكه في هذه الحالة، أن يستعين بالأحكام التي أدت إليها اجتهادات غيره من المجتهدين»[1].

---

(١) اقتصادنا: ٣٩٦ – ٤٠٠.

شرعية الخيار الآخر:

قد يجد المكلّف نفسه أمام حكم شرعي يصعب عليه الالتزام به، ونقصد بذلك ما دون مرتبة العسر والحرج والاضطرار، التي لها تكليفها الخاص، وهنا في موقع الصعوبة، فإنّ اختلاف الفتاوى يتيح للمكلف خياراً آخر، يتناسب مع مصالحه وظروفه، وهو ضمن دائرة المشروعية ما دام ناتجاً عن اجتهاد مقبول.

وتبرز أهميّة هذا الأمر أكثر من المستوى الاجتماعي، بالنسبة للتشريعات التي تتعلّق بالشؤون العامّة للناس.

وكمثال على ذلك موضوع الطلاق، حيث تحصل حالات من التسرّع والانفعال عند بعض الأزواج، فيوقع الطلاق ثلاثاً على زوجته دفعة واحدة. وعلى رأي فقهاء المذاهب الأربعة، فإنّ الطلاق يقع ثلاثاً، ولا يحلّ له الرجوع إلى زوجته حتّى تنكح زوجاً غيره.

لكن الالتزام بهذا الرأي أدّى إلى الكثير من المشاكل العائلية والاجتماعية، وفي مقابله رأي آخر لفقهاء الشيعة يرى عدم وقوع الطلاق إلّا مرّة واحدة، مما يتيح فرصة الرجوع للزوج، وهو رأي الزيدية أيضاً، وقد ذهب إلى هذا الرأي من فقهاء السنة الشيخ ابن تيمية وابن القيم.

وقد أخذت بهذا الرأي عدة جهات إسلامية، وتضمّنه قانون الأحوال الشخصية الذي صدر في مصر سنة١٩٢٩م، وقد جاء في «المذكّرة التفسيرية» لهذا القانون أنّه موافق لآراء بعض فقهاء المسلمين، ولو من غير المذاهب الأربعة، وأنّه ليس هناك مانع شرعي من الأخذ بقول غيرهم خصوصاً إذا

ترتّب عليه نفع عام[١].

ويقول الدكتور وهبة الزحيلي، حول هذه المسألة: «والذي يظهر لي رجحان رأي الجمهور وهو وقوع الطلاق ثلاثاً، إذا طلّق الرجل امرأته دفعة واحدة، لكن إذا رجّح الحاكم رأياً ضعيفاً صار هو الحكم الأقوى، فإن صدر قانون، كما هو الشأن في بعض البلاد العربية، يجعل هذا الطلاق واحدة، فلا مانع من اعتماده والافتاء به، تيسيراً على الناس، وصوناً للرابطة الزوجية، وحماية لمصلحة الأولاد، خصوصاً ونحن في وقت قلّ فيه الورع والاحتياط، وتهاون الناس في التلفّظ بهذه الصيغة من الطلاق، وهم يقصدون غالباً التهديد والزجر، ويعلمون أنّ في الفقه منفذاً للحلّ ومراجعة الزوجة»[٢].

ولعلّ كثيراً من المشاكل والتحدّيات، التي يواجهها المجتمع الإسلامي في هذا العصر، يمكن معالجتها في الإطار الشرعي، إذا ما ساد منهج الانفتاح الفقهي، وتوخي التيسير على الناس.

ويشير الأستاذ الكبير، مصطفى الزرقا، إلى هذا الاتّجاه بقوله: «ويرى بعض المفكّرين من علماء العصر، أنّ مجموعة المذاهب الاجتهادية، يجب أن تعتبر كمذهب واحد كبير في الشريعة، وكلّ مذهب فردي منها، كالمذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي وغيرها، يعتبر في هذا المذهب العام الكبير، كالآراء والأقوال المختلفة في المذهب الفردي الواحد، فيرجع علماء الأُمّة ويختارون منها للتقنين في ميدان القضاء والفتيا وما هو أوفى بالحاجة

(١) المدخل للتشريع الإسلامي: ٣٧٠.

(٢) الفقه الإسلامي وأدلّته ٧: ٤١٣.

الزمنية ومقتضيات المصلحة في كلّ عصر، وهذا رأي سديد»[١].

وهذا الاتجاه في الاستفادة من تعدد آراء الفقهاء، لاختيار ما هو الأنسب، وللتوسعة على الأُمّة، ليس جديداً ولا طارئاً، بل هو اتّجاه أصيل وعريق في تاريخ التشريع الإسلامي.

قيل لعمر بن عبد العزيز: « لو جمعت الناس على شيء؟ فقال: ما يسرني أنهم لم يختلفوا. قال: ثمّ كتب إلى الآفاق وإلى الأمصار: ليقضِ كلّ قوم بما اجتمع عليه فقهاؤهم»[٢].

وعن عون بن عبد الله قال: «قال لي عمر بن عبد العزيز: ما أحبّ أنّ أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا، فإنّهم لو اجتمعوا على شيء فتركه رجل ترك السنّة، ولو اختلفوا فأخذ رجل بقول أحد أخذ بالسنّة»[٣].

وروى ابن عبد البرّ النمري بسنده إلى يحيى بن سعيد قال: «ما برح أولو الفتوى يفتون فيحل هذا، ويحرم هذا، فلا يرى المحرم أن المحل هلك لتحليله، ولا يرى المحل أن المحرم هلك لتحريمه»[٤].

وقد ألف أحد علماء القرن الثامن الهجري كتاباً بعنوان «رحمة الأمة باختلاف الأئمّة».

هو العلّامة الشيخ محمّد بن عبد الرحمن الدمشقي الشافعي، وقد طبع أخيراً من قبل إدارة إحياء التراث الإسلامي في دولة قطر سنة ١٤٠١هـ.

---

(١) المدخل للتشريع الإسلامي: ٣٧٠.

(٢) سنن الدارمي ١: ١٥١، باب »اختلاف الفقهاء«.

(٣) المصدر السابق..

(٤) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٢: ٨٠.

ويرى أكثر فقهاء الشيعة تخيير المكلّف في الأخذ بفتوى أيّ من المجتهدين المتساويين في المرتبة العلمية، بأن يلتزم بالعلم بجميع فتاواه، أو أن يأخذ ببعض الفتاوى منه، والبقية من الفقهاء الآخرين.

يقول السيّد محمّد كاظم اليزدي: «إذا كان هناك مجتهدان متساويان في العلم كان للمقلّد تقليد أيّهما شاء ويجوز التبعيض في المسائل»[1].

اختلاف المصالح والأهواء:

يفترض في رجل الدين أن يكون على درجة من الورع والتقوى، تمنعه من الانقياد للأهواء، والاستجابة للدوافع المصلحية الذاتية، على حساب القيم والمبادئ.

وبالتالي، فالمتوقع من رجل الدين الالتزام بتعاليم الدين، التي تأمر بالوحدة والتعاون والتآلف، وتنهى عن الفرقة والنزاع والتنافر.

(١)- فرجل الدين قد اطّلع، أكثر من غيره، على أحكام الدين وتعاليمه، بشكل مفصل، من خلال دراسته للقرآن الكريم، والسنّة النبوية، وسائر المناهج الدينية.

ولاحظ مدى تأكيد النصوص الشرعية على أهميّة الوحدة، وحسن التعامل مع الآخرين، وتشديدها على سوء التفرقة والنزاع والتنافر مع الآخرين.

وإنّ في الألفة والتودد بين الناس، عظيم الأجر والثواب من الله سبحانه، وفي التخاصم والتقاطع ما يوجب غضب الربّ تعالى، وسخطه وعذابه.

هذه المعرفة والاطلاع ينبغي أن تجعل رجل الدين أكثر ورعاً، وخشية

---

(١) العروة الوثقى ١: ٢٩ »مسائل التقليد« رقم٣٣ وأيضاً لاحظ رقم٦٥.

لله، وأبعد عن الانزلاق في مهاوي الفتن والبغضاء.

يقول تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء**﴾[١].

(٢)- ورجل الدين، بقراءته لسير الأنبياء والأولياء، وخاصّة سيرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسير الأئمة عليهم السلام من ذرّيته، وخيرة أصحابه، وما تنضح به تلك الصفحات المشرقة من مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، وروائع الصفات... يجب أن يكون أكثر تطلّعاً وتشوّقاً للتأسي، والاقتداء بتلك النفوس الطاهرة، والشخصيات المباركة.

ففي سورة الأنعام، وبعد أن يستعرض القرآن الحكيم بعض الصور والمشاهد من حياة الأنبياء والأولياء، يقول تعالى: ﴿**أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾[٢].

(٣)- ولأنّ رجل الدين في موقع الإرشاد والوعظ للآخرين، حيث يدعو الناس إلى تقوى الله، ويأمرهم بالتزام أحكامه وحدوده، ويحذّرهم من إغواء الشيطان، والخضوع للشهوات والأهواء، فإنّه يجب أن يكون قدوة للناس، متعظاً بما يعظ به، وملتزماً قبل غيره، ليكون كلامه مؤثّراً في الناس، مقبولاً لديهم، وليكون منسجماً مع نفسه.

كما يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «من نصب نفسه للناس إماماً، فعليه أنْ يبدأ بتعليم نفسه، قبل تعليم غيره، ويكن تأديبه بسيرته، قبل تأديبه بلسانه. ومعلِّم نفسه ومؤدِّبها، أحقّ بالإجلال من معلِّم الناس ومؤدِّبهم»[٣].

---

(١) فاطر (٣٥): ٢٨.

(٢) الأنعام (٦): ٩٠.

(٣) نهج البلاغة ٤: ١٦، الحكمة رقم ٧٣.

لكلّ ذلك، فإنّ المتوقّع أن تكون العلاقة بين رجال الدين علاقة مثالية، نابعة من قيم الإسلام، ومنسجمة مع تعاليمه. وإذا كان الاختلاف العلمي له مبرّراته وأسبابه المقبولة، فليكن الخلاف ضمن دائرته، وداخل إطاره وحدوده، واختلاف الرأي لا يفسد للود قّضية - كما يقول الشاعر.

لكن رجال الدين هم من البشر، وتعتمل في نفوسهم، كسائر البشر، مختلف النوازع الشهوانية، وقد يضعف بعضهم أمامها، وتخونه إرادته، فينحرف عن منهج الله، ويستجيب لدواعي الشهوة والأهواء، فهو ليس معصوماً عن الخطأ والانحراف.

ولأنّ هذا الاحتمال وارد، وواقع في تاريخ الرسالات الإلهية ، ولأنّه يشكّل خطورة كبرى في المجتمعات المتديّنة، لذلك تحدّثت عنه النصوص الدينية، ودعت المؤمنين لكي يتحلّوا باليقظة والانتباه، في تعاطيهم وتعاملهم مع رجال الدين، فلا يسلّمون لهم القياد دون وعي، ولا يقلّدونهم تقليداً أعمى، ولا يقدّسونهم تقديساً مطلقاً، فهم معرّضون، كغيرهم من الناس، للخطأ والانحراف، وليست لهم حصانة خاصّة، تعفيهم من تبعات الذنوب والآثام.

ولنتأمّل بعض النصوص الواردة في الكتاب والسنّة، حول التحذير من انحراف رجل الدين، ومدى الخطورة التي يشكّلها بانحرافه.

نماذج يذكرها القرآن:

يتعاطى بعض المتديّنين مع رجل الدين بمثالية ساذجة، وبساطة متناهية، فيأخذون قوله دون تفكير، ويقدّسون أعماله دون نقاش، بل ويرفضون أن يتجرّأ أحد على انتقاده أو مناقشته، وإذا ما انكشف لهم منه خطأ صارخ فاضح، استعصى عليهم تبريره، فإنّهم يصابون بهزّة عميقة وصدمة كبيرة،

وكأنّ من حدث لم يكن محتملاً ولا متوقّعاً.

لمثل هؤلاء يتحدّث القرآن الكريم عن بعض النماذج، ممن خانوا أمانة العلم والدين في الأُمم السابقة، ليكون المجتمع الإسلامي على حذر من تكرار مثل هذه النماذج.

(١)- يقول تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[1].

(٢)- إنّها قصّة عالم وصل إلى رتبة متقدّمة، من العلوم والمعارف الدينية ﴿ **آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا** ﴾ فكان العلم ملتصقاً به، محيطاً به، محيطاً بجوانب شخصيته، إحاطة الجلد بالبدن، لكنّه مع سعة معرفته، وعمق علمه، سقط في هاوية الانحراف. ويعبرّ القرآن عن خيانة العالم للمعرفة التي تحتضنه وتحيطه، بالانسلاخ ﴿ **فَانسَلَخَ مِنْهَا** ﴾ والانسلاخ خروج جسد الحيوان من جلده حينما يسلخ عنه.

وكيف ينفلت العالم، وينفصل عن مؤدّى علمه ومعرفته، مع أنّه عاش في أحضان العلم، وتشرّبت نفسه بالمعرفة؟

لأنّ العلم لا يعني العصمة، والإجبار على الطاعة، فهو خلاف إرادة الله ومشيئته، بأن يكون الإنسان حرّاً مختاراً، في سلوكه وتصرّفاته، ليكون جديراً

---

(١) الأعراف (٧): ١٧٥ - ١٧٦.

بالثواب، مستحقاً للعقاب ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا** ﴾ فالعلم يهيّئ الإنسان للتحليق والارتفاع في سماء القيم، إن أراد هو ذلك، أما إذا خانته إرادته، وسيطرت على نفسه الأهواء والشهوات، والانشدادات المادية، فـ﴿ **أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ** ﴾ فإنّه يتحمّل مسؤولية سقوطه وانحداره.

وماذا يحصل حينئذٍ؟

إنّه التورّط والتوغلّ في حضيض الانحراف والسقوط، لأنّ غير العالم قد يردعه الوعظ والتوجيه، أما العالم، فلمعرفته بالمواعظ والتوجيهات، يصبح لديه ما يشبه المناعة من تأثيرها، كما يحدث لبعض الميكروبات في الجسم، لذلك أمر الله تعالى نبيه أن يقرأ للناس، ويتلو عليهم، خبر هذا العالم المنحرف وقصته، ليكون مثلاً ونموذجاً، يدفع الناس للتفكير في تعاملهم وتعاطيهم مع رجال الدين ﴿ **فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[1].

وحديث القرآن عن انحرافات علماء اليهود والنصارى، ليس في سياق التشهير بهم فقط، وإنما ليستفيد المسلمون دروساً وعبراً من أوضاعهم. ولدقّة القرآن وموضوعيته، فإنّه لم يصدر حكماً عاماً على جميع زعامتهم الدينية، وإنّما الأكثر منهم، إنصافاً للقلة الملتزمة المتورّعة منهم.

وقد يكون في الآية الكريمة إشارة إلى ناحية مهمّة وهي أنّ رجال الدين، كطبقة متفرِّغة للعمل الديني، تأخذ نفقاتها من الناس والأموال الشرعية، إزاء قيامهم بواجب الإرشاد والهداية، والدعوة إلى المبادئ والقيم، ولكنّهم حينما يقومون بدور معاكس، بممارساتهم الفاسدة المنحرفة، فإنّهم لا

---

(١) الأعراف (٧): ١٧٦.

يؤدّون الوظيفة التي على أساسها جاز لهم تناول الأموال الشرعية، فيصدق عليهم حينئذٍ أنّهم ﴿**يأكلون.. الباطل**﴾ لأنّهم بدل أن يقودوا الناس إلى طريق الله، يسيرون الناس في الاتّجاه المعاكس ﴿**وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ**﴾[1].

(٣)- يقول تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[2].

فالعلم بالدين يحمّل صاحبه مسؤولية العمل به، فإذا لم يلتزم بذلك ولم ينعكس الدين على سلوكه ومواقفه، فإنّه يشبه الحمار الذي يحمل على ظهره مجلّدات الكتب العلمية لكنّه لا يفقهها ولا يتفاعل مع ما فيها.

وعلماء الدين الذين يتحمّلون مسؤولية الرسالات الإلهية، بعلمهم وموقعهم القيادي، إذا ما تخلّوا عن القيام بواجبات تلك المسؤولية الخطيرة فإنّهم مصداق لهذا المثل السيِّئ.

تحذيرات من السنّة:

وفي السنّة الشريفة أحاديث كثيرة، تبيّن خطورة انحراف رجل الدين، وآثار ذلك الانحراف على قضايا الدين وأوضاع الأُمّة.

(١)- فازدواج الشخصية عند العالم المنحرف، حيث يدعو الناس إلى

---

(١) التوبة (٩): ٣٤، وهو قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ).

(٢) الجمعة (٦٢): ٥.

الدين، وهو غير ملتزم بأحكامه، يعرّضه لغضب الله تعالى وشديد عذابه.

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «يطلع قوم من أهل الجنّة على قوم من أهل النار فيقولون: ما أدخلكم النار، إنّما دخلنا الجنّة بفضل تأديبكم وتعليمكم؟ فيقولون: إنّا كنّا نأمر بالخير ولا نفعله»[١].

وعنه صلى الله عليه وآله: «من تعلم العلم ولم يعمل بما فيه حشره الله يوم القيامة أعمى»[٢].

وعنه صلى الله عليه وآله: «إنّ أهل النار ليتأذون بريح العالم التارك لعلمه، وإنّ أشدّ أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً إلى الله عزّ وجلّ، فاستجاب له وقبل منه، وأطاع الله عزّ وجلّ، فأدخله الله الجنّة، وأدخل الداعي النار، بتركه علمه واتباعه الهوى»[٣].

وعنه صلى الله عليه وآله: «رأيت ليلة أسري بي رجالاً تقرض شفاههم بمقارض من نار، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟

«فقال: الخطباء من أمّتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون»[٤]؟!

وعنه صلى الله عليه وآله: «الزبانية أسرع إلى فسقة حملة القرآن، منهم إلى عبدة الأوثان، فيقولون: يبدأ بنا قبل عبدة الأوثان؟ فيقال لهم: ليس من يعلم كمن لا يعلم»[٥].

---

(١) الأمالي للشيخ الطوسي: ٥٢٧.

(٢) مكارم الأخلاق: ٤٥١.

(٣) الخصال: ٥١ الحديث٦٣ باب الاثنين.

(٤) صحيح ابن حبّان ١: ٢٤٩.

(٥) كنز العمال ١٠: ١٩١، الحديث٢٩٠٠٥.

(٢)- وعلى الجمهور أن يحذر من العلماء غير الملتزمين، فلا يمنحهم الثقة، ولا يجعلهم في موقع القيادة والاتباع، ولا يعتبرهم مصدراً ومرجعياً في شؤون الدين، في الحديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قل لعبادي: لا يجعلوا بيني وبينهم عالماً مفتوناً بالدنيا فيصدهم عن ذكري، وعن طريق محبتي ومناجاتي، أولئك قطاع الطريق من عبادي»[١].

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إذا رأيتم العالم محبّاً للدنيا فاتهموه على دينكم فإنّ كلّ محبٍّ يحوط ما أحبَّ»[٢].

(٣)- وبالطبع، فإن انحراف رجل الدين له مضاعفاته وآثاره الخطيرة، على الدين والمجتمع، لذا جاءت النصوص والأحاديث تنبه إلى ذلك.

قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله: أي الناس شر؟

قال صلى الله عليه وآله: «العلماء إذا فسدوا»[٣].

وعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «زلّة العالم كانكسار السفينة تغرق وتُغرق معها غيرها»[٤].

عالم الدين بين الاستقامة والانحراف إذا ما فقد عالم الدين مناعته، وحصانته المبدئية، وضعفت إرادته الإيمانية، عن مقاومة (فيروسات) الأهواء، فستكون نفسه مرتعاً لمختلف النزعات الشهوانية، والتوجّهات الانحرافية.

ومن هذه الثغرة الخطيرة الواسعة، تهبّ رياح الخلافات والصراعات في

---

(١) تحف العقول: ٣٩٧.

(٢) علل الشرائع ٢: ٣٩٤.

(٣) تحف العقول: ٣٥.

(٤) غرر الحكم للآمدي: ١٥٦، الحكمة ٤٠٦٤.

أوساط رجال الدين.

أولاً: تنمو النزعة الأنانية الذاتية، على حساب المبدأ والمصلحة العامة، فالفتاوى والآراء والمواقف حينئذ تتأثّر بحسابات المصلحة الشخصية، وتصبح خاضعة لمعادلة الربح والخسارة.

فلا ينظر رجل الدين الأناني إلى الأمور والأحداث والأشخاص، نظرة موضوعية على أساس مقاييس الحق والباطل، وإنّما بمنظار مصلحته ومنفعته العاجلة، وهذا قد يؤدي به إلى الاصطدام برجال الدين المبدئيين المخلصين، كما قد يسبب له الصراع حتّى مع أشباهه من رجال الدين الأنانيين، لأنّ المصالح تختلف وتتخالف.

وقد تحدّث القرآن الحكيم في آيات عديدة، محذّراً ومندِّداً بأولئك المساومين على المبادئ، والمختلّين عن الحقائق، من أجل مصالح مادية ضئيلة محدودة، لأنّ أي ثمن في مقابل الحق تافه حقير.

يقول تعالى: ﴿**وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ * وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[1].

وتشير الآية الكريمة إلى أسلوبين خبيثين تستخدمها عادة هذه الفئة: أسلوب تزوير وتزييف الحقائق بإلباس الباطل الذي يطرحونه صورة الحق وعنوانه، لينطلي على الناس. وإلباس الحق الذي يطرحه غيرهم صورة الباطل وعنوانه، ليصدّوا الناس عنه.

والأسلوب الآخر: هو كتمان الحقائق والسكوت عنها، مع معرفتهم بها.

---

(١) البقرة (٢): ٤١ - ٤٢.

ويقول تعالى: ﴿**اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ**﴾[2].

فمن أجل المصالح المادية الزائلة يختلقون الفتاوى، ويبتدعون الآراء، وينسبونها لله سبحانه.

ورجل الدين المصلحي ينظر إلى سائر رجال الدين كمنافسين له، ينتابه الحسد إذا ما رأى تقدّماً أو تفوّقاً لأحد منهم، ويحاول التقليل من شأنه أمام الناس، ويتصيّد أخطاءه ويتابع عثراته ليشيعها في الجمهور، وقد يسعى بكلّ جهده لعرقلة طريق الآخرين من رجال الدين إلى التقدّم.

ولعل هذا الجانب من أهم أسباب بروز الخلافات بين رجال الدين، حيث إنّ ثقة الناس والتفافهم حول رجل الدين، هما المكسب الرئيسي له، والرصيد الأساسي لدوره وقيمته، فالتنافس يكون على هذه الثقة والاتباع بين رجال الدين، وإذا ما خاصم أحدهم الآخر، فإنّ أهم ضربة يوجهّها إليه هي إسقاط أو إضعاف شعبيته وسمعته عند الناس، عبر مخالفة آرائه والتشهير بأخطائه.

وهناك حديث شريف يبيّن أنّ الحسد هو المرض الأكثر شيوعاً في

---

(١) التوبة (٩): ٩.

(٢) البقرة (٢): ٧٩.

أوساط العلماء، وأنّه مدخل أكثرهم إلى نار جهنم، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ستة يدخلون النار قبل الحساب بستة، قيل: يا رسول الله، من هم؟ فعد منهم: والعلماء بالحسد»[1].

ومثله روي عن الإمام علي عليه السلام: «إن الله عز وجل يعذب ستة بستة... والفقهاء بالحسد»[2].

ثانياً: من ا لطبيعي وجود حالة من التنوّع والتعدّدية في كلّ مجتمع ، بأن تشكّل من أكثر من قومية، أو تختلف الأديان والمذاهب التي ينتمي إليه أبناؤه، وقد تتعدّد المدارس الفكرية ضمن الدين الواحد، أو المذهب الواحد، هذا فضلاً عن تنوّع القبائل، أو الطبقات الاجتماعية، أو الانتماءات الحزبية والسياسية. وعادة ما يصاحب هذا التنوّع والتعدد نوع من الحسّاسيات والخلافات والحواجز والفواصل، بين أبناء المجتمع الواحد، قد يصل إلى حدّ التنازع والصراع.

ورجل الدين، بما يمثّل من موقع ودور مبدئي، يجب أن يتسامى على تأثيرات تلك الحسّاسيات والحواجز، ويكون داعية للوحدة والتعاون، ورائداً للعدالة والإنصاف، لكن ذلك مشروط بنزاهة رجل الدين، وصدقية التزامه المبدئي، فإذا ما تسرّب الانحراف إلى نفسه، فسيقع تحت تأثيرات الواقع الاجتماعي، ويكون خاضعاً لتفاعلاته، بل قد يصبح أداة وواجهة في معادلة

---

(١) إحياء علوم الدين ٣: ٢٧٦ وفيه:

»وقال صلى الله عليه وآله: ستة يدخلون النار قبل الحساب بستة، قيل يا رسول الله من هم؟ قال: الأمراء بالجور، والعرب بالعصبية، والدهاقين بالتكبر، والتجار بالخيانة، وأهل الرشتاق بالجهالة، والعلماء بالحسد«.

(٢) الخصال: ٣٢٥، باب الستة.

الصراع، بما يشكّله من ثقل ونفوذ بعنوانه الديني. وحينئذ يستغلّ الدين كوقود في معارك الصراع القومي أو الطائفي أو القبلي أو الحزبي أو الطبقي.

وكم من معركة دامية، وفتنة مرعبة، سالت فيها الدماء وهتكت فيها الحرم والأعراض، بين أبناء الأُمّة، حصلت بتحريض أو تبرير من رجال الدين المنحرفين؟

ثالثاً: أنّ القوى التي تريد الهيمنة على المجتمع، والسّيطرة على قدراته، لا تجد لخدمة نفوذها ومصالحها أفضل من رجل دين مصلحي، يوفّر لممارستها الغطاء الشرعي، ويكون رأس حربتها باسم الدين، في مواجهة المخالفين والمعارضين.

وتعطيه في المقابل شيئاً من فتات موائدها، أو تمنحه منصباً على هامش سلطاتها، ولعلّ قسطاً لا بأس به من الخلافات والنزاعات داخل الساحة الدينية تحرّكه قوى خارجية معادية، أو داخلية متسلّطة، تستغلّ بعض العناصر المصلحية من رجال الدين.

وقد تتجه بعض القوى والجهات إلى دسّ بعض العناصر التابعة لهم بالأساس في أوساط رجال الدين، للقيام بمهمّات الاستقطاب والإرباك، مستغلّة ضعف الإدارة والتنظيم لدى المؤسّسات الدينية، وبساطة التفكير، وسذاجة التعاطي، لدى بعض الزعامات والقيادات الدينية.

بالطبع، فإنّ أي رجل دين مبدئي لا يبيع آخرته بدنياه، ولا يساوم على مصلحة الدين والأُمّة.

الاختلاف العلمي أخلاقيات ومبادئ:

إذا كان الاختلاف العلمي في القضايا الدينية أمراً لا يمكن تلافيه، إلّا

أنّ التعاطي والتعامل مع هذا الأمر يختلف من حالة إلى أخرى، فقد يكون هذا الاختلاف سبباً لاستثارة الأذهان والعقول، وباعثاً لتنشيط حركة الفكر والاجتهاد، وتوسعة على الناس بتعدّد الخيارات والحلول أمامهم في بعض المسائل.

وقد يتحوّل هذا الاختلاف العلمي عن مساره الإيجابي ليصبح عنصراً سلبياً، يغذّي حالة التفرقة والنزاع، وأرضية تنمو فيها أشواك العداوة والخصام.

فلابدّ من وجود ضوابط فكرية، وأخلاقيات سلوكية، تحكّم تعاطي العلماء فيما بينهم، وخاصّة عند مواقع الاختلاف العلمي. والصفحات التالية استعراض وبحث لما يظهر أنّه من أهم الأخلاقيات والضوابط التي تنظّم حالة الاختلاف العلمي.

الاعتراف بحق الاختلاف ووجود الرأي الآخر:

كيف يتكوّن رأي علمي، في أي قضية شرعية، عند أي عالم من العلماء فيفتي به ويعتبره رأياً شرعياً وحكماً دينياً؟

لا شكّ أنّ السبيل الوحيد لذلك هو الاجتهاد وإعمال الفكر والنظر، بالرجوع إلى الكتاب والسنّة، وبدراسة واستقراء آراء الأئمّة، والعلماء السابقين، فالوحي لم ينزل ولا ينزل على أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

والاجتهاد باب مشرع، وطريق مفتوح لجميع ا لمؤهلّين، فلا يمكن لعالم أن يعتبر نفسه الواحد الوحيد الذي يجوز له الاجتهاد.

وحينما يمارس أي عالم مهمّة الاجتهاد وفق ضوابطها الشرعية، فسيرى نفسه ملزماً بنتائج اجتهاده، باعتبارها تمثّل رأي الشرع والدين في نظره.

وهذا ينطبق على غيره أيضاً، فكما جاز له هو الاجتهاد، وصحّ له الالتزام بنتائجه، فذلك جائز وصحيح في حق غيره أيضاً، فلا يمكن التفكيك والترجيح بلا مرجّح بينهما.

من هنا اتفقت كلمة العلماء على حجيّة رأي المجتهد بالنسبة له.

«إنّ كلمة الأعلام تكاد تتفق على حجية رأيه «المجتهد» ولزوم العمل به، وعدم جواز رجوعه إلى الغير... إذ المجتهد... إذا أعمل ملكته وانتهى إلى رأي، فهو إما عالم بالحكم الواقعي علماً وجدانياً أو علماً تعبدياً، بواسطة جعل الشارع للطريقية أو الحجّية، أو يكون عالماً بإحدى الوظيفتين الشرعية أو العقلية... ومع فرض حصول العلم لا يبقى مجال للتصرّف الشرعي، فلا يمكن أن يقال للمجتهد العالم بالمسألة: إنّك لا يسوغ لك أن تعمل بعلمك، وعليك الرجوع إلى الغير واستشارته فيما تراه حاصلاً لديك من الواقع... أما جواز إفتائه على وفق ما وصل إليه من رأي، فهو أيضاً لا يقتضي أن يكون موضعاً لإشكال، لما تقدم بيانه من أن من لوازم الحجّية العقلية جواز نسبة مؤدّى ما قامت عليه إلى مصدرها من شارع أو عقل، وليس المراد من الفتوى إلّا الإخبار عمّا يراه من حكم أو وظيفة»[1].

ومع وضوح هذه المعادلة عقلاً، وإقرارها شرعاً، إلّا أنّ البعض من العلماء يتنكّر لها، ويتمرّد عليها، فيعطي لنفسه الحق أن يجتهد، وأن يعتبر نتاج اجتهاده رأياً شرعياً، ثمّ ينكر على الآخرين ممارسة هذا الحق، بدعوى أنّ ما وصل إليه من رأي هو الحق والصواب، وبالتالي فإنّ الرأي المخالف هو باطل وخطأ.

---

(١) الأصول العامة للفقه المقارن: ٦٠٩ – ٦١٢.

ولكن أصحاب الرأي الآخر لديهم نفس القناعة أيضاً، بأنّ رأيهم هو الحق والصواب، والرأي المخالف هو باطل وخطأ.

ولا مجال هنا إلّا بالاعتراف بحقّ الاختلاف، ووجود الرأي الآخر، والخطأ والصواب احتمالان يردان على كلّ رأي، وقد يكونا نسبيين في بعض الآراء، والله تعالى هو الأعلم بحقائق الأمور والأحكام، وجميل جدّاً ما تعارف عليه العلماء من إنهاء فتاواهم بعبارة «الله أعلم».

ويضرب لنا الإمام علي بن أبي طالب أروع مثل في تعامله مع الرأي الآخر، في المسائل الدينية، فهو مع مقامه العلمي الشامخ، الذي لا يطاوله فيه أحد، ومع مكانته العظيمة التي اختصّ بها عند الله ورسوله، حيث قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لا نبي بعدي»[1]. وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «أقضاكم علي»[2].

إلّا أنّه حينما تولّى الخلافة لم يمنع الناس من صلاة نافلة رمضان جماعة في المسجد (صلاة التراويح)، بل سمح لهم بذلك مع أنّه لا يرى ذلك من الناحية الشرعية، كما هو رأي أئمة أهل البيت جميعاً.

فقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «لما قدم أمير المؤمنين عليه السلام الكوفة أمر الحسن بن علي أن ينادي في الناس: لا صلاة في شهر رمضان في المساجد جماعة، فنادى في الناس الحسن بن علي، بما أمره

---

(١) صحيح مسلم ٧: ١٢٠ باب فضائل علي وصحيح البخاري ٥: ١٢٩ باب غزوة تبوك وفيه: »أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم خرج إلى تبوك واستخلف علياً فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء قال ألا ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه ليس نبي بعدي«.

(٢) المواقف للأيجي ٣: ٦٢٧ والجامع لأحكام القرآن ١٥: ١٦٤.

به أمير المؤمنين فلما سمع الناس مقالة الحسن بن علي صاحوا: وا عمراه، وا عمراه. فلما رجع الحسن إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال له: ما هذا الصوت؟ فقال: يا أمير المؤمنين الناس يصيحون: وا عمراه، وا عمراه، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: قل لهم صلوا»[1].

وفي رواية أخرى: «لما كان أمير المؤمنين عليه السلام بالكوفة، أتاه الناس فقالوا له: اجعل لنا إماماً يؤمنا في رمضان، فقال لهم: لا، ونهاهم أن يجتمعوا فيه، فلما أمسوا جعلوا يقولون: ابكوا رمضان، وا رمضاناه، فأتى الحارث بن الأعور في أناس فقال: يا أمير المؤمنين، ضجّ الناس وكرهوا قولك، قال: فقال عند ذلك: دعوهم وما يريدون ليصل بهم من شاؤوا»[2].

و«روي أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقي رجلاً فقال: ما صنعت، [يعني في مسألة كانت معروضة للفصل فيها] فقال الرجل: قضى علي وزيد بكذا... قال عمر: لو كنت أنا لقضيت بكذا... قال الرجل: فما يمنعك والأمر إليك؟ قال: لو كنت أردك إلى كتاب الله، أو إلى سنة نبيه صلى الله عليه وآله لفعلت، ولكني أردك إلى رأي ، والرأي مشترك»[3].

وسئل الشيخ ابن تيمية عمن ولي أمراً من أمور المسلمين، ومذهبه لا يجوز «شركة الأبدان» فهل يجوز له منع الناس من العمل بها؟

فأجاب: ليس له منع الناس من مثل ذلك، ولا من نظائره مما يسوغ فيه

---

(١) تهذيب الأحكام ٣: ٧٠ الحديث ٣٠ باب فضل شهر رمضان والصلاة فيه زيادة...«.

(٢)تفسير العياشي ١: ٢٧٥ الحديث ٢٧٢ وسائل الشيعة ٨: ٤٧ الحديث ٥ باب »عدم جواز الجماعة في صلاة النوافل في شهر رمضان...« .

(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٢: ٥٩.

الاجتهاد، وليس معه بالمنع نصّ من كتاب، ولا سنّة، ولا إجماع، ولا ما هو في معنى ذلك[١].

وحق الاختلاف، ووجود الرأي الآخر مصان، بغض النظر عن قلّة أو كثرة أصحابه وأتباعه، يقول الدكتور القرضاوي: ويقول بعض الإخوة: «إنّ الرأي الذي ينفرد به فقيه أو اثنان خلافاً لجمهور الأُمّة، يجب أن لا يعتدّ به ولا يعوّل عليه.

وقال غيرهم: إن ما خالف المذاهب الأربعة التي تلقتها الأُمّة بالقبول، يجب أن يرفض ولا يقام له اعتبار.

والحقّ أن هذا كله لا يقوم عليه دليل من كتاب أو سنّة.

فالإجماع الذي هو حجّة، على ما قيل فيه، هو اتفاق جميع المجتهدين على حكم شرعي، ولم يقل أحد: إنّه اتفاق الأكثرية، أو الجمهور، فالأمر ليس أمر تصويت بالعدد.

صحيح أن لرأي الجمهور وزناً يجعلنا نمعن النظر فيما خالفه، ولا نخرج عنه إلا لاعتبارات أقوى منه، ولكنّه ليس معصوماً على كلّ حال.

وكم من صحابي انفرد عن سائر الصحابة برأي لم يوافق عليه سائرهم، ولا يضره ذلك.

وكم من فقهاء التابعين من كان له رأي خالفه آراء الآخرين، ولم يسقط ذلك قوله، فالمدار على الحجّة لا على الكثرة.

وكم من الأئمة الأربعة من انفرد عن الثلاثة بآراء وأقوال، مضى عليها

---

(١) مجموع الفتاوى ٣٠: ٧٩.

أتباع مذهبه مؤيدين ومصححين.

ومذهب أحمد بن حنبل، وهو المذهب المشهور باتباع الأثر، قد عرف بـ«مفرداته» التي نظمها من نظم، وألّف فيها من ألّف، وغدا من المعروف المألوف أن يقرأ الباحث فيه هذه العبارة: «وهذا من مفردات المذهب».

والمذاهب الأربعة، على ما لها من اعتبار وتقدير لدى جمهور الأُمّة، ليست حجّة في دين الله، إنما الحجّة ما تستند إليه من أدلّة شرعية، منقولة أو معقولة.

وما يقال عن بعض الآراء إنها شاذة أو مهجورة أو ضعيفة، فهذا لا يؤخذ على إطلاقه وعمومه، فكم من رأي مهجور أصبح مشهوراً، وكم من قول ضعيف في عصر، جاء من قواه ونصره، وكم من قول شاذ في وقت هيأ الله له من عرف به وصححه وأقام عليه الأدلّة، حتّى غدا هو عمدة الفتوى»[١].

وجميل جداً ما ينقل عن الإمام الشافعي أنّه قال: «رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب»[٢].

الانفتاح على الرأي الآخر:

المهمّة الأساس والغاية الكبرى لرجل الدين، هي معرفة الحقائق الدينية والأحكام الشرعية، على حقيقتها وواقعها.

والآراء العلمية المختلفة في أي مسألة اعتقادية أو فقهية ، إنّما هي احتمالات وأوجه لتلك المسألة، فقد يكون أحد تلك الآراء مصيباً لها بشكل

---

(١) الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم: ٧٣ – ٧٤.

(٢) المصدر السابق: ٩٨.

كامل، أو بشكل نسبي.

ومن أجل أن يتأكّد العالم من صحّة اجتهاده، وصوابيه رأيه، لابدّ له من الاطلاع على جميع الاحتمالات والوجوه الواردة في الموضوع.

يقول العلامة الشاطبي في كتابه الموافقات:

«فعن قتادة: من لم يعرف الاختلاف لم يشم أنفه الفقه.

وعن هشام بن عبيد الله الرازي: من لم يعرف اختلاف القراءة فليس بقارئ، ومن لم يعرف اختلاف الفقهاء فليس بفقيه.

وعن عطاء: لا ينبغي لأحد أن يفتي الناس حتّى يكون عالماً باختلاف الناس، فإنّه إن لم يكن كذلك ردّ من العلم ما هو أوثق من الذي في يديه.

وعن مالك: لا يجوز إلّا لمن علم ما اختلف الناس فيه»[١].

«ونقل عن الإمام أحمد بن حنبل: لا ينبغي لأحد أن يفتي إلّا أن يعرف أقاويل العلماء في الفتاوى الشرعية، ويعرف مذاهبهم... ومثل هذا ما رواه ابن القيم عن رواية ابن حنبل: ينبغي لمن أفتى أن يكون عالماً بقول من تقدم وإلّا فلا يفتي»[٢].

وتبعاً لاهتمام علماء السلف بالاطلاع على مختلف الآراء، ودراستها ومناقشتها، تكون علم جديد أطلق عليه «الفقه المقارن» أو «علم الخلاف» وعرّفوه بأنّه «علم يقتدر به على حفظ الأحكام الفرعية المختلف فيها بين الأئمة أو هدمها بتقرير الحجج الشرعية وقوادح الأدلة»[٣].

---

(١) الموافقات في أصول الشريعة ٤: ١٦١.

(٢) دراسات في الاختلافات الفقهية: ١٥٩.

(٣) الأصول العامة للفقه المقارن: ١٣.

وأصبحت لدينا مكتبة علمية، تزخر بالمؤلّفات والمصنّفات المخصّصة في نقل الآراء المتعدّدة والمختلفة، في موضوع بعينه أو جميع أبواب الفقه، ككتاب اختلاف الفقهاء الكبير والصغير، لأحمد بن نصر المروزي، وكتاب الاختلاف في الفقه لأبي يحيى زكريا الساجي، وكتاب الفقهاء للإمام محمّد ابن جرير الطبري.

وللشيخ محمّد بن الحسن الطوسي ٣٨٥ - ٤٦٠هـ، موسوعة هامة تقع في ثلاثة مجلدات، بعنوان كتاب الخلاف طبع أخيراً طبعة جديدة محقّقة من قبل مؤسّسة النشر التابعة لجماعة المدرسين في قم سنة١٤٠٧هـ.

كما أنّ الاطلاع والانفتاح على الرأي الآخر، يتيح للعالم فرصة الدراسة والتقويم لذلك الرأي، ولمستند صاحبه وأدلّته، فيكون موقفه من الرأي الآخر معتمداً على المعرفة والدراية.

وهذا يستدعي أن يكون التعرّف على الرأي الآخر من مصادره الصحيحة والأساسية، لا أن يؤخذ من الإشاعات والنقولات غير الموثّقة، أو من الجهات المضادّة والمناوئة.

فمما يؤسف له اعتماد البعض من العلماء، في تقويمه وانطباعاته عن الآخرين المخالفين له في الرأي والتوجه، على ما يقوله المعادون لهم، كما هو ملحوظ في الكثير من كتب الجدل المذهبي، والنزاع الطائفي.

ملحوظة في كتاب:

جاء في كتاب الفقه الإسلامي وأدلّته للدكتور وهبة الزحيلي، رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في جامعة دمشق: «لا يجوز للرجل في مذهب أهل السنّة أن يتزوّج أكثر من أربع زوجات في عصمته في وقت واحد، ولو في

عدّة مطلقة» إلى أن يقول: «وذهب الظاهرية والإمامية إلى أنّه يجوز للرجل أن يتزوّج تسعاً، أخذاً بظاهر الآية: ﴿**مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ**﴾[١]، فالواو للجمع لا للتخيير، أي يكون المجموع تسعة»[٢].

وما نسبه الدكتور الزحيلي إلى الشيعة هذه المسألة، هو نموذج للاعتماد على النقولات والإشاعات، دون الرجوع إلى مصادر الجهة ذاتها.

فمصادر الشيعة في التفسير والحديث والفقه، مجمعة على عدم جواز الزواج من أكثر من أربع زوجات بالزواج الدائم في وقت واحد، كما هو رأي أهل السنّة.

فمن أقدم التفاسير الشيعية جاء في التبيان في تفسير القرآن، للشيخ محمّد ابن الحسن الطوسي (٣٨٥ - ٤٦٠هـ)، ما يلي: «ومن استدل بهذه الآية ﴿**مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ**﴾ على أن نكاح التسع جائز فقد أخطأ لأنّ ذلك خلاف الإجماع... فتقدير الآية: ﴿**فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاثَ**﴾[٣]، فثلاث بدلاً من مثنى، ورباع بدلاً من ثلاث»[٤].

وجاء في مجمع البيان في تفسير القرآن، للشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي، من أعلام القرن السادس الهجري، ما يلي: «وقوله: ﴿**مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ**﴾: معناها اثنتين اثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً، فلا يقال إن هذا يؤدي

---

(١) النساء (٤): ٣.

(٢) الفقه الإسلامي وأدلّته ٧: ١٦٦.

(٣) النساء (٤): ٣.

(٤) التبيان ٣: ١٠٧.

إلى جواز نكاح التسع، فإن اثنين وثلاثة وأربعة، تسعة، لما ذكرناه، فإنّ من قال دخل القوم البلد مثنى، وثلاث، ورباع، لا يقتضي اجتماع الأعداد في الدخول، ولأنّ لهذا العدد لفظاً موضوعاً، وهو تسع، فالعدول عنه إلى مثنى وثلاث ورباع نوع من العي، جلّ كلامه عن ذلك وتقدّس»[١].

وإلى أواخر التفاسير الشيعية حيث جاء في الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، للشيخ ناصر مكارم الشيرازي ما يلي: «ولابدّ من التنبيه إلى أنّ (الواو) هنا أتت بمعنى (أو) فليس معنى هذه الجملة هو أنّه يجوز لكم أن تتزوّجوا باثنتين وثلاث وأربع ليكون المجموع تسع زوجات، لأنّ المراد لو كان هذا لوجب أن يذكر ذلك بصراحة فيقول: وانكحوا تسعاً، لا أن يذكره بهذه الصورة المتقطّعة المبهمة.

هذا مضافاً إلى أنّ حرمة الزواج بأكثر من أربع نسوة من ضروريات الفقه الإسلامي، وأحكامه القطعية المسلّمة»[٢].

ومصادر الفقه الشيعية أيضاً كلّها تنصّ على ذلك، فمن أين أتى الدكتور الزحيلي بهذه النسبة للشيعة؟ فهو لم ينسبها إلى مصدر محدّد، ولم يقل إنّ عالماً معيّناً من الإمامية يقول بذلك، بل نسبها للإمامية بأجمعهم، وأرسل النسبة إرسال المسلمات، وحينما راجعنا ثبت المصادر التي اعتمدها للفقه الشيعي والمذكورة في المجلد الأخير، وجدنا أنها أربعة مصادر هي الكافي للكليني، وهو كتاب حديث لا فقه، والمختصر النافع في فقه الإمامية والروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية ومفتاح الكرامة للحسيني العاملي، وبالرجوع إلى

---

(١) مجمع البيان ٣: ١٥.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٣: ٩١.

هذه المصادر الأربعة تبيّن عدم وجود ما يدل على تلك النسبة إلى الشيعة فيها؟!

معطيات الحوار مع الآخر:

(١)- بالحوار يتأكّد الإنسان ويتحقّق من صحّة رأيه وموقفه، فقد تسيطر على ذهنه فكرة، أو يبدو له رأي يرتاح له، غير ملتفت إلى ثغرات تلك الفكرة، أو نقاط ضعف ذلك الرأي. ولكنّه حينما يواجه الرأي الآخر، والطرف الآخر، بما لديه من نقد وملاحظة واعتراض على رأيه، وبما يقدّمه من رأي بديل، له أدلّته وحججه، فيكون ذلك مدعاةً له للتفكير والتحقّق، ما يؤدّي إلى تعميق رأيه، وازدياد ثقته في موقفه، أو إلى تراجعه عنه إن اكتشف خطأه.

يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ»[١].

(٢)- وبالحوار يقدّم الإنسان نفسه ورأيه للآخرين، فيتعرّفون على حقيقة موقفه، ويطلعون على منطلقاته ومبرّراته، فتكون صورته واضحة أمام الآخرين، وتزول الالتباسات والشكوك. يقول الإمام علي عليه السلام: «تكلّموا تعرفوا فإنّ المرء مخبوء تحت لسانه»[٢].

وفي المقابل تتاح للإنسان، عبر الحوار، فرصة التعرّف على الآخرين وآرائهم، فيكون انطباعه وتقويمه للرأي الآخر أكثر واقعية وصدقاً.

(٣)- والحوار هو الصحيح والأمثل للتبشير بالرأي والموقف الذي يؤمن به الإنسان، ذلك لأنّ الرأي لا يفرض بالقوة، وإنّما بالاقناع، والذي لا يتحقّق

---

(١) نهج البلاغة ٤: ٤٢، قصار الحكم ١٧٣.

(٢) المصدر السابق: ٩٣، قصار الحكم ٣٩٢.

بشكل عميق إلّا بالحوار.

لذا كان الحوار هو منطق الأنبياء والرسل والأئمّة والمصلحين، حيث كانوا يعرضون رسالات الله، ويبلّغون أحكامه للناس، مع إتاحة الفرصة للنقاش والأخذ والردّ، لكي يندفع الآخر بقناعة وإخلاص لتقبل دين الله وأمره.

يقول تعالى: ﴿**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[1].

الموضوعية وترك التعصّب:

حينما يبذل كلّ مجتهد جهده لاستنباط الحكم الشرعي، وتختلف النتائج التي يصل إليها المجتهدون، وتتعدّد آراؤهم في المسألة الواحدة إلى حدّ التضاد، حيث يرى البعض إباحة شيء، بينما يرى آخرون وجوبه، بل قد يكون الأمر دائراً بين الوجوب أو الحرمة، فهنا، أين هو حكم الله الواقعي في المسألة؟

لقد بحث العلماء إلى القول بالتصويب، وأطلق عليهم «المصوّبة»، حيث يرون أنّ نتيجة أي اجتهاد هي نتيجة صائبة، وأنّ حكم الله تعالى في المسألة الاجتهادية، هو ما اهتدى إليه المجتهد باجتهاده، وليس لله فيها حكم معينّ من قبل، فكلّ ما يصل إليه اجتهاده فهو الصواب، وبهذا ينتهون إلى تصويب كلّ مجتهد ؛ أو أنّ لله حكماً معيناً إلّا أنّه لم يكلّف بإصابته، ويكون ما ينتهي إليه منه مصيباً فيه وإن أخطأ[2].

---

(١) النحل (١٦): ١٢٥.

(٢) الاجتهاد أصوله وأحكامه ٢٠٢.

وعمّم بعضهم ذلك، حتّى شمل به القضايا العقلية العقيديّة، حيث ذهب إلى أنّ الحق، حتّى في العقائد، غير متعيّن، وأنّه يتعدّد، وهو ما يصل إليه كلّ مجتهد باجتهاده، فيكون كلّ مجتهد حتّى في العقليات والعقائد مصيباً[1].

لكن رأي أغلب علماء الأُمّة بمختلف مذاهبها، هو القول بالتخطئة، ومفاده أنّ لله تعالى أحكاماً معيّنة في كلّ مسألة اجتهادية، فمن هداه اجتهاده إلى ذلك الحكم فقد أصاب، وإلّا فهو مخطئ، وهو معذور ومأجور في الحالين.

وبناء على ذلك، فإنّه حين تتعدّد آراء المجتهدين في مسألة ما، فهناك احتمالان لا ثالث لهما:

الاحتمال الأول: أنّ جميع تلك الآراء خاطئة، لا يعبّر شيء منها عن الحكم الشرعي.

الاحتمال الثاني: أنّ رأياً واحداً فقط من بين تلك الآراء قد أصاب الحكم الشرعي وما عداه فهو خاطئ.

وإذا كان اختلاف الفتاوى وتعدّد الآراء أمراً طبيعياً له مبرّراته وأسبابه، إلّا أنّه قد يمكن التقليل من ذلك، وتقريب وجهات النظر، والاتفاق على قسم لا بأس به من القضايا الدينية، والمسائل الشرعية، عندما تسود الأجواء العلمية وأوساط العلماء أخلاقيات وضوابط الاختلاف.

وفي طليعة تلك الأخلاقيات والضوابط، الموضوعية في البحث، والتجرّد والإخلاص للحقيقة، وترك التعصّب.

إنّ من أسوأ الآفات والأمراض التي تضرّ بالدين والعلم، وتفتك بالعلماء،

---

(١) المصدر السابق: ٢٠١.

هو مرض التعصّب للرأي، بأن يتشبّث الإنسان برأيه، ويتمسّك بموقفه، وكأنّه يمثّل وجوده وشخصيته واعتباره.

فهو غير مستعدّ للمناقشة والحوار، وإذا ما ناقش، فمع التصميم على عدم التنازل عن رأيه، وإن اتّضح له مخالفته للحقّ، ويتمحّل التبريرات، ويفتعل الأدلّة، للدفاع عن رأيه، ويكابر ويعاند حتّى مع تجلي الحقيقة له.

وهذه الصفة السيئة تتنافى مع حقيقة العبودية لله تعالى، حيث يصف الله عباده بقوله ﴿**فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ**﴾[1].

جاء في الحديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «عن أبي الربيع قال: قلت: ما أدنى ما يخرج به الرجل من الإيمان؟ قال: الرأي يراه مخالفاً للحق فيقيم عليه»[2].

وقد يتعصّب الإنسان لمذهبه، ويدافع عنه دفاع المستميت مع معرفته بخطأ ذلك.

ومع تشكل الحركات والأحزاب، في الساحة الإسلامية، أصبح لدينا لون جديد من التعصّب، هو التعصّب الفئوي الحزبي، حيث يتقيّد المنتمي بآراء ومواقف فئته وجماعته، وإن كان مخالفاً للشرع أو للمصلحة العامة.

عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «من تعصّب عصّبه الله بعصابة من نار»[3].

---

(١) الزمر (٣٩): ١٧ – ١٨.

(٢) معاني الأخبار: ٣٩٣، الحديث٤٢، باب نوادر المعاني.

(٣) الكافي ٢: ٣٠٨، الحديث٤، باب العصبيّة.

الاختلاف في القضايا الثانوية:

ليس أمام فكر الإنسان حدود، بل يعمل ضمن مساحة واسعة، سعة امتداد الكون والحياة، كما أنّ كلّ قضية يمكن أن تكون موضوعاً للرأي الديني، والحكم الشرعي، ضمن دائرة الوجوب، أو الحرمة أو الإباحة، بتقسيماتها المعروفة.

من هنا كانت أرجاء الفكر الإسلامي، والتشريع الإسلامي، رحبة واسعة، تبدأ بما فوق الطبيعة، وما هو خارج الإدراك الحسّي المادّي للإنسان، وتشمل كلّ قضايا الوجود والحياة، وتمتدّ لآفاق المستقبل، ولما بعد الحياة.

فمثلاً، في مجال التشريع الإسلامي يصل عدد المسائل الشرعية التي يناقشها الفقهاء إلى ما يزيد على نصف مليون مسألة[1].

وذلك راجع بالطبع إلى تفريعات المسائل وتفاصيلها.

وهناك قصة نقلها الرواة، في حياة الإمام محمّد الجواد بن علي الرضا عليهما السلام تصلح شاهداً على كثرة التفريعات في المسائل الشرعية.

ففي مجلس عقده المأمون، سابع الخلفاء العباسيين، لامتحان المستوى العلمي للإمام محمّد الجواد عليه السلام، والذي كان صغير السن آنذاك، وأحضر في مقابله قاضي القضاة يحيى بن أكثم فطرح على الإمام الجواد المسألة التالية:

ما تقول أصلحك الله في محرم قتل صيداً؟

وقبل الإجابة ردّ الإمام عليه السؤال لعرض تفريعات المسألة وتفصيلاتها قائلاً:

---

(١) شهر رمضان شهر البناء والتقدّم: ٣٣.

قتله في حل أو حرم؟

عالماً كان المحرم أم جاهلاً؟

قتله عمداً أو خطأ؟

حرّاً كان المحرم أو عبداً؟

صغيراً كان أم كبيراً؟

مبتدئاً بالقتل أم معيداً؟

من ذوات الطير كان الصيد أم من غيرها؟

من صغار الصيد كان أم من كبارها؟

مصرّاً على ما فعل أو نادماً؟

في الليل كان قتله للصيد في أوكارها أم نهاراً وعياناً؟

محرماً كان بالعمرة إذ قتله أو بالحج كان محرماً؟

ثمّ شرع الإمام في تبين الحكم الشرعي لكلّ تفريع من تلك التفريعات[1].

ومع كثرة المسائل الشرعية التي يبحثها الفقهاء، ويعملون فيها نظرهم، فإنّ فرص الاختلاف تزداد في أحكام تلك المسائل.

وكذلك الحال في المجال الفكري العقيدي، فكلّما طرأت تساؤلات، واستجدّت أفكار، وحصلت تطوّرات معرفية، اتسع ميدان البحث الفكري، فيتسع معه مجال الاختلاف.

ولأنّ أحداث العهود الإسلامية الأولى تعتبر مصدراً مؤثّراً في الفكر والتشريع الإسلاميين، فقد اهتمّ العلماء بالبحوث التاريخية، وهنا تختلف الآراء

---

(١) لاحظ الإرشاد ٢: ٢٨٣ والاختصاص: ٩٩ والاحتجاج ٢: ٢٤٢.

في تقويم الروايات والنقولات، ما فتح أبواب الاختلاف في قضايا التاريخ على مصراعيها.

وإذا كان الاختلاف طبيعياً ومشروعاً في كلّ تلك الأبعاد الفكرية والتشريعية والتاريخية وسائر مجالات المعرفة.

فإنّ من غير الطبيعي تركيز الاهتمام على الاختلاف في المسائل الثانوية، والقضايا الجانبية، على حساب ما هو أهمّ من قضايا الدين، ومصلحة الأُمّة، حيث نلاحظ نشوب كثير من معارك الخلاف على مسائل ليست ذات أولوية، ينشغل بها الوسط العلمي الديني، وتنقسم على أساسها المجتمعات، بين مؤيدّ لهذا الرأي أو ذاك.

وبذلك تتزيّف الاهتمامات، وتضيع الأولويات.

ولقد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله أصحابه أن يخوضوا في أبحاث جدلية كلامية، تشغلهم عن مهمّة تركيز الإسلام، وحماية الدعوة، التي كانت تواجه مؤامرات المشركين واليهود آنذاك، كما جاء في سنن ابن ماجة: عن عمر وابن شعيب عن أبيه عن جده قال: «خرج رسول الله صلى الله عليه وآله على أصحابه، وهم يختصمون في القدر، فكأنّما يفقأ في وجهه حبّ الرّمان من الغضب، فقال: بهذا أمرتم؟! أو لهذا خلقتم؟! تضربون القرآن بعضه ببعض بهذا هلكت الأُمم من قبلكم»[1].

ومرّة سأل أبو أحمد الخراساني الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق عليه السلام: «قال له: الكفر أقدم أم الشرك؟ فردّه الإمام، قائلاً: مالك ولهذا»[2]؟

---

(١) سنن ابن ماجة ١: ٣٣، الحديث٨٥

(٢) تحف العقول: ٤١٢.

ولا تزال الساحة الإسلامية تعاني من مثل هذه الخلافات والمعارك المفتعلة، حول قضايا جانبية، تشغل بال الأُمّة عن التحدّيات الخطيرة التي تواجهها، وهموم الواقع المعاش.

التزام الآداب واحترام الحقوق:

هناك حقوق أقرّها الإسلام فيما بين الناس، لتنتظم بها علاقاتهم الاجتماعية، وليشعروا بإنسانيتهم، وليعيشوا الكرامة والاحترام فيما بينهم.

وهناك آداب سنهّا الدين، في التعامل الاجتماعي، تتعمّق بالمحافظة عليها مشاعر المودّة والحبّ، ويزداد التماسك والتآلف، وينال بها كلّ فرد ما يستحقه من الاحترام والتقدير.

هذه الحقوق الاجتماعية ثابتة للإنسان بما هو إنسان، ولعضويته في المجتمع المسلم، وبغض النظر عن أفكاره وآرائه المختلفة، ما دام محافظاً على حقوق الآخرين، وملتزماً باحترام هوية المجتمع واختياراته.

وتشير بعض النصوص الدينية بصراحة إلى ثبوت هذه الحقوق، وإلى الالتزام بالآداب والأخلاق الإنسانية الإسلامية، حتّى مع اختلاف الدين والمذهب والرأي والتوجه.

(١)- ففي مجال حقوق الأرحام، تؤكّد النصوص الدينية على المحافظة عليها، حتّى مع اختلاف الدين أو المذهب، فالوالدان لابدّ من احترامهما وبرّهما، وإن كانا مشركين، بل وإن كانا يضغطان على الولد المؤمن ليترك إيمانه، فعليه التمسّك بإيمانه، وعدم الاستجابة لضغوطهما، لكن مع حسن الأدب والتعامل مع والديه، يقول تعالى: ﴿**أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا**

تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[١].

جاء في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور: «إن الأمر بمعاشرتهما بالمعروف، شامل لحالة كون الأبوين مشركين، فإن على الابن معاشرتهما بالمعروف، كالإحسان إليهما وصلتهما، وفي الحديث: إن أسماء بنت أبي بكر قالت لرسول الله صلى الله عليه وآله: إن أمّي جاءت راغبة فأصلها؟ فقال: نعم صلي أمّك، وكانت مشركة، (وهي قتيلة بنت عبد العزى). وشمل المعروف ما هو معروف لهما أن يفعلاه في أنفسهما، وإن كان منكراً للمسلم، فلذلك قال فقهاؤنا: إذا أنفق الولد على أبويه الكافرين الفقيرين، وكان عادتهما شرب الخمر اشترى لهما الخمر، لأن شرب الخمر ليس بمنكر للكافر، فإن كان الفعل منكراً في الدينين فلا يحل للمسلم أن يشايع أحد أبويه عليه»[٢].

وسأل الجهم بن حميد الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: قلت لأبي عبد الله: تكون لي القرابة على غير أمري، ألهم علي حق؟ قال: نعم، حقّ الرحم لا يقطعه شيء، وإذا كانوا على أمرك كان لهم حقان: حق الرحم وحق الإسلام»[٣].

وفي رواية أخرى عن معمر بن خالد قال: «قلت لأبي الحسن علي الرضا عليه السلام أدعو لوالدي إذا كانا لا يعرفان الحقّ؟ قال: ادع لهما وتصدق عنهما، وإن كانا حيين لا يعرفان فدارهما، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إن الله بعثني بالرحمة لا بالعقوق[٤].

---

(١) لقمان (٣١): ١٤- ١٥.

(٢) تفسير التحرير والتنوير ٢١: ١٦١.

(٣) الكافي ٢: ١٥٧ الحديث ٣٠، باب صلة الرحم.

(٤) الكافي ٢: ١٥٩ الحديث٨، باب البر بالوالدين.

(٢)- والذين يجاورون الإنسان، ويعيشون معه في منطقة واحدة، لهم عليه حقّ الجوار، وقد اهتم الإسلام بالتأكيد على حق الجار، دون أن يشترط في ثبوت ذلك الحقّ التوافق الديني أو الفكري، بل هو حقّ مطلق ثابت لكلّ جار.

ولرفع هذه الشبهة جاءت النصوص الدينية مؤكّدة مراعاة هذا الحقّ، وإن اختلف معك جارك في العقيدة أو التوجيه.

يقول تعالى: ﴿**وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ**﴾[١]، حيث ذكر المفسّرون أن من معاني ﴿ **وَالْجَارِ الْجُنُبِ** ﴾: أن الجار ذي ا لقربى منك بالإسلام، والجار الجنب: المشرك البعيد في الدين، واستدلوا بما ورد عنه صلى الله عليه وآله أنّه قال: «الجيران الثلاثة: جار له ثلاثة حقوق: حق الجوار، وحق القرابة، وحق الإسلام ، وجار له حقان: حق الجوار، وحق الإسلام، وجار له حق الجوار: المشرك من أهل الكتاب»[٢].

وأغلب النصوص الواردة في حقوق الجار، تتحدّث بلغة مطلقة، لتشمل كلّ من انطبق عليه عنوان الجوار، بغض النظر عن أي صفات أخرى.

كقوله صلى الله عليه وآله: «أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمناً»[٣].

وقوله صلى الله عليه وآله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره»[٤].

---

(١) النساء (٤): ٣٦.

(٢) مجمع البيان ٣: ٨٣.

(٣) الأمالي للشيخ الصدوق: ٢٦٩، الحديث١٦ المجلس٣٦.

(٤) الكافي ٢: ٦٦٧، الحديث٦، باب حق الجوار.

وقوله صلى الله عليه وآله: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره طاوياً، ما آمن بي من بات كاسياً وجاره عارياً»[١].

(٣)- وقد ضرب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أروع الأمثلة في حفظ حقوق الطرف الآخر وإن كان مخالفاً في الرأي والمواقف.

ففي أثناء خلافته، وحينما انشق عليه الخوارج، واتّهموه في دينه وكفروه، فإنّه واجههم في حدود ردعهم عن التخريب، وممارسة الإرهاب، والتزم بمعاملتهم كسائر المواطنين، وإعطائهم حقوقهم الكاملة.

وكان علي عليه السلام يقول: «إنّا لا نمنعهم الفيء، ولا نحول بينهم وبين دخول مساجد الله، ولا نهيجهم ما لم يسفكوا دماً، وما لم ينالوا محرّماً»[٢].

وبذلك ضمن لهم رواتبهم، ونصيبهم من الغنائم والصدقات، وأعطاهم حق إبداء الرأي، وفسح لهم مجال التواجد في الأماكن العامة.

ولم يتعدّ الإمام على حقوق أحد من معارضيه والمخالفين له، بل حفظ لهم حتّى حقوقهم المعنوية، حيث لم يقبل بأن يوصفون بالشرك أو النفاق.

فعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، عن أبيه الإمام محمّد الباقر عليهما السلام: أنّ علياً عليه السلام لم يكن ينسب أحداً من أهل حربه إلى الشرك ولا إلى النفاق، ولكنّه كان يقول: «هم إخواننا بغوا علينا»[٣].

من كلّ ما سبق يتبيّن لنا كيف أنّ الإسلام يوجّهنا إلى احترام بعضنا

---

(١) عوالي اللئالي ١: ٢٦٩، الحديث٧٥ الفصل العاشر »في أحاديث تتضمن شيئاً من الآداب الدينية«.

(٢) أنساب الأشراف: ٣٥٩، الحديث٤٣١.

(٣) قرب الإسناد: ٩٤، الحديث٣١٨.

بعضاً، وإلى حفظ الحقوق المتبادلة، والتزام آداب التعامل الاجتماعي، وإن لم يكن هناك توافق في العقيدة والفكر والاتّجاه.

فكيف يصحّ للبعض أن يسيء إلى إخوانه المسلمين، ويسقط حقوقهم، ويتعدى على حرماتهم، لا شيء إلّا لأنّهم يختلفون معه في المذهب، أو في الانتماء السياسي؟

بل وفي بعض الأحيان تسوء العلاقة بين أبناء المذهب الواحد، ويحصل الهجر والمقاطعة والخصام، للاختلاف في بعض التوجهات الفكرية، أو الآراء الفقهية، أو تعدّد مراجع التقليد والاتباع!

ويلجأ البعض إلى تبرير هذا الموقف العدائي بعذر هو أقبح من الذنب، حيث يحكمون على مخالفهم بالخروج من ربقة الإسلام، أو يتهمونه بالابتداع والضلال، ثمّ يرتّبون على ذلك موقف ا لعداء له، والتشهير به، والنيل من حقوقه المادية والمعنوية.

وهذا ما يحصل غالباً في أوساط رجال الدين. لذلك ينقل عن العالم التقي الشيخ عباس القمي رحمه الله أنّه كان يقول: إنّي أعفو وأصفح عمن يستغيبني من الناس العاديين، لكنّي لا أعفو عمن يستغيبني من رجال الدين! فلمّا سئل عن ذلك قال: لأنّ الشخص العادي يستغيبني وهو يدرك أنّه يرتكب خطأ، فأنا أعفو عنه. أمّا رجل الدين فلأنّه قبل أن يستغيبني يبرّر ذلك باتهامي بالابتداع أو التجاهر بالفسق حتّى تحلّ له غيبتي!

والغريب في الأمر أنّ رجال الدين يعرفون، أكثر من غيرهم، تأكيد الإسلام وتشديده على حفظ حقوق المسلم. وقد أحسن العلامة الشيخ مرتضى الأنصاري رحمه الله حينما استرسل في ذكر بعض الروايات والأحاديث،

مما ورد من حقوق المسلم على أخيه المسلم، وذلك عند بحثه موضوع الغيبة في كتابه المكاسب الذي يدرسه طلاب العلوم الدينية في الحوزات العلمية.

ومن الأحاديث التي أثبتها الحديث التالي:

«عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: للمسلم على أخيه ثلاثون حقّاً لا براءة له منها إلّا بأدائها أو العفو. يغفر زلّته، ويرحم عبرته، ويستر عورته، ويقيل عثرته، ويقبل معذرته، ويردّ غيبته، ويديم نصيحته، ويحفظ خلّته، ويرعى ذمّته، ويعود مرضه، ويشهد ميتته ويجيب دعوته، ويقبل هديته، ويكافئ صلته، ويشكر نعمته، ويحسن نصرته، ويحفظ حليلته، ويقضي حاجته، ويستنجح مسألته، ويسمت عطسته، ويرشد ضالّته، ويردّ سلامه، ويطيّب كلامه، ويبّر أنعامه، ويصدّق أقسامه، ويوالي وليه، ولا يعاديه، وينصره ظالماً ومظلوماً، فأمّا نصرته ظالماً فيردّه عن ظلمه، وأمّا نصرته مظلوماً فيعينه على أخذ حقّه، ولا يسلمه ولا يخذله، ويحبّ له من الخير ما يحبّ لنفسه، ويكره له من الشرّ ما يكره لنفسه.

«ثمّ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنّ أحدكم ليدع من حقوق أخيه شيئاً فيطالبه به يوم القيامة، فيقضى له عليه»[1].

فهل تتبخرّ كلّ هذه الحقوق، وتسقط كلّ الآداب، وتباح الحرمات، حينما يكون هناك اختلاف في الرأي، ولكلّ من الطرفين أدلّته ومبرّراته لرأيه وموقفه؟

---

(١) كتاب المكاسب ١: ٣٦٥ – ٣٦٦ وكنز الفوائد: ١٤١ ونقل في الوسائل ١٢: ٢١٢ الحديث ٢٤ باب وجوب أداء حقّ المؤمن.

ثمّ أين نحن عن الأحاديث والنصوص التي تحذر من إيذاء المسلم، أو الاعتداء على كرامته، أو شيء من حقوقه؟ كما روي عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام أنّه قال: «من أعان على مسلم بشطر كلمة كتب بين عينيه يوم القيامة: آيس من رحمة الله»[1].

مواقع الاتّفاق ومساحات الالتقاء:

لتفترض أنّ الخلاف العلمي بين عالم وآخر كان في درجته العليا ٢٠٪ فهذا يعني أنّ مساحة الاتّفاق والتّطابق هي نسبة ٨٠٪ لكن المؤسف والمحزن في الأمر، هو تجاهل مساحة الاتفاق الواسعة وتجاوزها، للانشغال بمنطقة الخلاف المحدودة والوقوف عندها.

ففي الثقافة السائدة في أوساط الأُمّة، هناك تركيز بارز على القضايا والمسائل الخلافية، مع محدوديتها وثانويتها، وهناك إهمال واضح للمتفق عليه مع سعته وأولويته.

(١)- إنّ كلّ علماء الإسلام يتّفقون على أصول العقيدة، وهي الإيمان بالله تعالى، ونبوّة النبي محمّد صلى الله عليه وآله وأنّه خاتم الرسل والأنبياء، وبالمصير إلى الله، والمعاد إليه في يوم القيامة، وإن اختلفوا في بعض تفاصيل هذه العقائد.

كما يتفقون على معالم الشريعة، وأركان الدين، من صلاة وصوم وحجّ وزكاة وخمس وجهاد وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، فهذه المعالم والأركان، يجمع علماء الإسلام على وجوبها، ويتّفقون على مقوماتها الأساسية، وخطوطها العريضة، وإذا ما كان هناك اختلاف، ففي بعض الجزئيات والتفاصيل من فروع مسائلها.

---

(١) المحاسن ١: ١٠٣، الحديث ٨٠ من كتاب عقاب الأعمال.

وينهل العلماء من منهل واحد، هو الكتاب والسنّة، حيث يجمع المسلمون على حجّيتهما، ولزوم الأخذ لما ورد فيهما، وتحريم أيّ مخالفة أو معارضة لهما.

وإنّ فهم نصوص الكتاب الكريم، والسنّة الثابتة، لا يكون إلا بالتدبّر والتأمّل والاجتهاد والنظر، مع معذورية كلّ مجتهد في الأخذ بما وصل إليه نظره واجتهاده.

وضمن كلّ مذهب من المذاهب الإسلامية، هناك اتّفاق على قواعد الاستنباط وضوابط الاجتهاد، والكثير من التفاصيل العقيدية والفكرية.

هذا بالنسبة لأصول الدين ومعالم الشريعة.

(٢)- إنّ حفظ الإسلام، وإعلاء كلمته، وتطبيق أحكامه وتعاليمه، هو الهدف المشترك لجميع علماء الدين.

ومما يهمّ العلماء جميعاً، حماية مصالح الأُمّة الإسلامية، وتحسين أوضاعها، والدفاع عن مقدساتها وحقوقها، وإعزاز مكانتها بين الأمم، لتكون كما أرادها الله تعالى ﴿**خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾[1].

(٣)- وهناك تحدّيات قائمة، يشعر بها كلّ واحد من علماء الدين، وأبرزها طغيان مدّ الأهواء والشهوات والانجراف المادي، الذي يصدّ الناس عن التوجّه الروحي، والالتزام الديني. والتيارات الفكرية المادّية التي تمتلك وسائل الإعلام، ومراكز القوّة والقرار، وتعمل بإمكانياتها الضخمة ضد الحالة الدينية.

---

(١) آل عمران (٣): ١١٠.

وهناك قوى العدوان والاستكبار العالمي، والتي تعلن مواجهتها للصحوة الإسلامية، وتراها الآن الخطر الأكبر على الحضارة المادّية الرأسمالية، وخاصّة بعد سقوط المعسكر الشرقي، كما هو مفاد مقولة صموئيل هانتنغتون في صدام الحضارت.

وهناك القوى المصلحية والمتسلّطة في داخل الأُمّة الإسلامية، والتي تمارس الاستبداد والقمع، وتنفّذ خطط الأعداء، بوعي أو بغير وعي، وتقلّص دور العلماء في التبليغ والدعوة إلى الله.

وهناك أمراض التخلّف التي تعاني منها الأُمّة، وأخطرها الجهل بالدين والحياة.

هذه التحدّيات الخطيرة القائمة، والتي يفترض أن يستشعرها كلّ رجل دين، يجب أن تكون دافعاً لتقارب علماء الدين، وتعاونهم على مواجهتها.

والأهداف الكثيرة المشتركة التي يؤمنون بها جميعاً ينبغي أن توحد صفوفهم، وتنظّم حركتهم باتّجاه تحقيقها.

وما دامت أصول العقيدة، ومعالم الشريعة، ومنابع الأحكام، واحدة، فإنّها تشكل أرضية خصبة للتوافق والتلاقي، وتجاوز موارد الاختلاف في الفروع والجزئيات، والمسائل الثانوية والتفصيلية.

والسؤال الذي يشغل بال المخلصين في الأُمّة هو: لماذا يغفل العلماء ويتجاهلون مساحات التلاقي الواسعة بينهم، ومواقع الاتّفاق العريضة، وينشغلون بنقاط الخلاف المحدودة والجانبية؟

إنّ ذلك يقعد بهم عن مواجهة التحدّيات القائمة، ويضعفهم اتّجاهها،

كما يمنعهم من تحقيق أهدافهم الكبيرة، ويعرقل سيرهم نحوها، وقد يؤدّي النزاع والخلاف بينهم على الفروع والجزئيات إلى ضياع أصول الدين، وأسسه ومعالمه.

والمطلوب، كخطوة أولى، إعادة النظر في طرح القضايا والمسائل الدينية من قبل العلماء، ليكون التركيز والاهتمام بمواقع الاتّفاق أوّلاً، واعتبارها هي الأصل والقاعدة والمنطلق.

وذلك يتيح الفرصة أكثر لتقريب الآراء في موارد الخلاف، والتي يجب أن تبقى ضمن حجمها وحدودها الطبيعية، دون تضخيم أو تهويل.

إنّ البدء من موارد الخلاف والتركيز عليها، قد يحول دون استثمار مساحات اللقاء الواسعة، بما يخلق من حساسيات وانفعالات.

بينما الانطلاق من مواقع الاتفاق، يهيّئ النفوس لمعالجة موارد الخلاف بمرونة وموضوعية، مما يتيح فرص التقارب، وتضييق حالات الاختلاف.

وقد ظهرت في هذا العصر، والحمد لله، مبادرات طيبة، من قبل المخلصين من علماء الأُمّة، لإعادة صيغة اهتمامات العلماء، باتّجاه التركيز على مساحات اللقاء، وتحجيم موارد الاختلاف، كمبادرة «دار التقريب بين المذاهب الإسلامية» التي انطلقت في القاهرة في الستينات من هذا القرن، والمبادرة الجديدة المشابهة لها في جمهورية إيران.

وبرزت دعوات وحدوية لمفكّرين غيورين على مصلحة الدين، ومستقبل الأُمّة، تبشّر بـ«فقه الوفاق» الذي يركّز على تأصيل وحدة الأُمّة، ومن أوائل الداعين إلى هذه الفكرة الرائدة، والطرح الوحدوي، سماحة المغفور له الشيخ محمّد مهدي شمس الدين، الرئيس السابق للمجلس الإسلامي الشيعي

الأعلى في لبنان، حيث أوضح معالم هذا التوجّه في محاضرة له ضمن مؤتمر تكريم المفكّر الإسلامي الكبير، السيّد عبد الحسين شرف الدين، والذي انعقد في بيروت (١٨ - ١٩ شباط١٩٩٣م).

ودعا إلى نفس الفكرة والطرح الدكتور وهبة الزحيلي رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في جامعة دمشق وكلية الشريعة.

يقول الدكتور الزحيلي: «ولم يتخلّص العلماء بالذات، فضلاً عن العوام، من العناية بالخلافات، وضخّموا مسائل الاختلاف، وهوّلوا وقائع النزاع، وتركوا نقاط الاتّفاق والتلاقي، وصنّفوا العديد من المصنّفات في بيان أسباب الاختلاف بين الفقهاء، إما بحسن نيّة ليعذر الناس العلماء في ما اختلفوا فيه، أو بسبب الولع بتّتبع الخلافات، الأمر الذي أنسى الأُمّة في خزانة الفكر الإسلامي أو الإنساني، ظاهرة الوفاق والتوحيد، ورصدوا الكثير من مسوغات الخلاف، ما جعل المسلم يعني بالاختلاف، وينسى الاتّحاد أو الوحدة.

لذا لم أجد مصنّفاً واحداً في القديم والحديث، عُني بالأمر البدهي أو الأصيل الإسلامي، وهو وحدة الفكر والمصدر والاستنباط، لحمل الناس عليه، علماً بأنّ نقاط الاتفاق والاتّحاد أكثر بكثير من نقاط الخلاف والخصام والتعصّب المذهبي...

إنّنا، نحن العلماء، آثمون أشدّ الإثم، من حيث ندري أو لا ندري، إذا لم نُعد حساباتنا، ونفكّر في مصائرنا، ونعمل من جديد على إعادة وحدة الأُمّة في السياسة والاقتصاد، والاجتماع والاعتقاد، والاجتهاد والاستنباط، والتربية والتعليم، والتوجيه والتثقيف، وبناء حياة مزدانة بكلّ عناصر القوة والمجد، والجدية والنهوض من الكبوات، ونسيان الخلافات الماضية التي ليس لإثارتها

أو إحيائها أو التحدّث فيها أيّ معنى، بل إنّها سُمٌّ زعافٌ، وضرر محض، يؤدّي لإحياء الحديث في تلك الخلافات التي تفرّق ولا تجمع، وتهدم ولا تبني، وتمزّق ولا ترقأ، وتضعف ولا تقوّي أو تعالج، وتثير النزاع ولا تؤاخي أو تضمد الجراح.

إنّني أشكّ في أمانة العالم أو المؤرّخ، الذي يكثر من الحديث أو التحقيق أو الإعلان أو المقال الآن عن جراح الماضي، وما أدّت إليه من الفرقة المذهبية، والتشتّت الوجداني، والضياع القائم، وما على العالم أو الفقيه إلّا أن ينبه إلى العمل بأوجه اللقاء والتفاهم، والترفّع عن الأحقاد والخصومات، وتناسي الثارات، والعمل على صعيد مشترك يحقّق الوحدة الإسلامية.

إنّني أعيد الحساب بنفسي، لعلّ غيري يقلّدني، ويبدأ الجميع في نسج فكر واحد، وبناء مجد واحد، والتصدّي لعدو شرس خطير واحد، فهل من متذكّر أو مستجيب؟!

إنّ الصلح في الفكر والتراث وكلّ النزاعات، ولاسيما أمام المخاطر، هو جوهر صفاء الدعوة إلى الله والى الإسلام الحقّ، وإلى الوجود الدولي الإسلامي الواحد»[1].

(١) مجلة المنهاج العدد٣، السنة ١، ١٩٩٦م تحت مقال بعنوان »نقاط الالتقاء بين المذاهب الإسلامية بقلم الدكتور وهبة الزحيلي«.

الباب الرابع

نصوص من الفكر الإصلاحي

حول الوحدة الإسلامية

السيّد محسن الأمين
١٢٨٤ – ١٣٧١هـ / ١٨٦٥ – ١٩٥٢م

دعوته الإصلاحية للوحدة والتآلف:

نهض منذ وقت مبكر بدعوته الإصلاحية متزوّداً بوعيه لمشكلات مجتمعه وانفتاحه لقضايا عصره، وتحسّسه لمسؤوليته الدينية الإصلاحية فقد كان شاهداً على عصره في الوحدة والتآلف بدأت دعوته الإصلاحية في المجتمع الأهلي مذ أن استقرّ في دمشق، وافداً من لبنان وعن هذه الفترة يقول السيد الأمين في مذكّراته «وردنا دمشق في أواخر شعبان من سنة١٣١٩هـ في أواخر الخريف، فوجدنا أمامنا أموراً هي علّة العلل ولابدّ في إصلاح المجتمع من النظر في إصلاحها:

١- الأُميّة والجهل المطبق فقد وجدنا معظم الأطفال يبقون أمّيّين بدون تعليم، وبعضهم يتعلّمون القراءة والكتابة في بعض الكتاتيب على الطراز القديم.

٢- وجدنا إخواننا في دمشق متشاكسين منقسمين إلى حزبين بل إلى أحزاب وقد أخذت منهم هذه الحزبية مأخذها»[١].

---

(١) أعيان الشيعة ١٠: ٣٦١.

ولقد نجح السيّد الأمين في هذا الجانب نجاحاً باهراً فقد كان إماماً في الوحدة لكلّ الطوائف والديانات وهذا ما يعترف به كلّ من عاصره، وقد قال عنه الشيخ «هاشم الخطيب» من علماء السنة من دمشق: «لقد نهض بأبناء طائفته الجعفرية في سوريا ولبنان وجبل عامل نهضة مباركة وخطا بهم خطوة طيبة حببت إليهم جميع إخوانهم من المسلمين والعرب كما حبّبتهم أيضاً إلى الجميع فكانوا يداً واحدة إخواناً متحابّين على سرر متقابلين تجمعهم وحدة الإسلام وتنظّم أهدافهم وغاياتهم المصلحة العامة»[١].

ونقل عنه الدكتور «مصطفى السباعي» «أنّ شخصاً جاء إليه لينتقل من المذهب السنّي إلى المذهب الشيعي، فعرّفه بأنّه لا فرق بين السنّة والشيعة في العنوان الإسلامي. وعندما أصرّ هذا الرجل قال له السيّد الأمين قل: أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمّداً رسول الله فقالها الرجل، فقال له: لقد أصبحت شيعياً. لقد أدرك السيّد الأمين أنّ الوحدة الإسلامية هي من الممنوعات الاستعمارية.

وبذلك كان ثورة على الطائفية في الوقت الذي كان لا يمانع من بحث القضايا المذهبية بذهنية علمية موضوعية، وبروح إسلامية واعية، لأنّ هناك فرق بين الحوار العلمي، والاستغلال السياسي، أو التحرّك الغوغائي لأنّ الحوار يؤدّي إلى التفاهم وينتهي إلى الوحدة، بينما ينطلق الاستغلال والغوغاء إلى المزيد من البعد والاختلاف»[٢].

فقد أعطى السيّد الأمين روحاً جديدة لمجتمعه كانت بداية عهد جديد

---

(١) أعيان الشيعة ١٠: ٤١٣.

(٢) المصلح الإسلامي السيّد محسن الأمين ورقة السيد محمّد حسين فضل الله: ٩٠.

في حياة المجتمع ينتقل منها من النزاع إلى التآلف ومن التفرق إلى الاجتماع، وهذا التحوّل أسس أرضية حيوية ساهمت في عمليات النهوض التي حصلت آنذاك.

إنماء التعليم من منطلق الوحدة:

ومن ملامح الحركة الإصلاحية للسيّد الأمين إنماء التعليم وبعث النهضة التعليمية في مجتمع الشام، وقد أسّس حركته العلمية على قاعدة الوحدة والتقارب والتآلف.

إلى جانب ذلك «أنشأ جمعية للاهتمام بتعليم الفقراء والأيتام وكانت مسؤوليتها تقوم على حصر أسماء الناشئة، وتهيئة الأسباب المادية لضمان متابعتهم الدراسة لأن معظم الأهل بسبب فقرهم يفضلون إرسال أبنائهم إلى بعض المراكز الحرفية لتعليمهم صنعة وهم بحالة الأُميّة وذلك لحاجتهم الملحّة لدخل هؤلاء الأولاد لتأمين الضرورات المعيشية.

ولما لاحظ العلّامة الأمين ان الأطفال والشباب بحاجة لرعاية خارج نطاق المدرسة أنشأ جمعية الرابطة الأدبية الاجتماعية لتملأ هذا الفراغ وترفدهم بالنشاط الأدبي والرياضي فكانت هذه الجمعيات تعمل مؤازرة للمدرسة المحسنية والمدرسة اليوسفية تحت إشرافه المباشر وتوجيهه الدائم»[1].

وعن نهجه الوحدوي في التعليم يقول الأستاذ «عبد اللطيف الخشن»: - وهو من الذين تعلّموا وتربوا في مدارس السيّد الأمين - «لم يكن السيّد

(١) المصلح الإسلامي السيّد محسن الأمين: ١٥٢.

محسن الأمين في معاملاته لغير أبناء الطائفة الشيعية أقلّ من معاملته الحسنة لأبناء طائفته، ولم أجد في حياتي كلّها مؤسّس مدرسة في الدنيا لا يبالغ بحبّ أبناء طائفته أولاً وإيثارهم على غيرهم، وجعلهم مقدّمين في الوظائف على غيرهم باستثناء مولانا الراحل الذي كان يفتّش عن معلّمين للمدرسة يحسنون التدريس، دون النظر إلى الطائفة التي ينتمون إليها إذ كان يفتّش عن الإنتاج الفكري، والنضوج العقلي، والوعي في الأستاذ دون أن يسأل عن طائفته، وعن نحلته، وهذا بشهادة جميع الذين لمسوا من الراحل الكريم هذا التسامح وهذه العدالة...

لقد كان أساتذة المدرسة من جميع رجال الطوائف، وإنّي لأذكر على سبيل الاستشهاد والمثال أنّ معلّمي الدروس الصرفية والنحوية كانوا من السنّة والشيعة، وكان المدرّس للّغة الفرنسية مسيحياً، وكان مدرس اللغة التركية سنّياً.

ونظراً للشهرة التي نالتها المدرسة يومئذ أقدم الكثيرون على إرسال أولادهم إلى المدرسة وهم من مختلف الطوائف، ولم يكن في برامج التعليم أية صفة خاصة، أو ميزة لفريق دون آخر من التلامذة»[١].

ويصف هذه المدرسة الشيخ «هاشم الخطيب» بقوله: (إنّ مدرسته المحسنية بجميع فروعها التي أسّسها على حبّ التسامح والإخاء قد أثمرت ولله الحمد ثمرتها المنتظرة ونرجو لها دوام التقدّم والازدهار بهمّة من يسيرون على نهج مؤسّسها المخلص الوفي»[٢].

---

(١) لاحظ أعيان الشيعة ١٠: ٤١١.

(٢) المصدر السابق: ٤١٣.

قانون الطوائف في عهد الانتداب الفرنسي:

يقول السيّد الأمين: «أصدر الفرنسيون قانون الطوائف بما لا يوافق مصلحة المسلمين ويخالف نصّ الشرع الإسلامي فعارض في ذلك جملة من علماء دمشق وبالغوا في المعارضة فأوقف القانون وأصدر الفرنسيون بلاغاً بأنّ وقفه يشمل السنّيين من المسلمين فقط. فقدّمت بذلك احتجاجاً للمفوضية الفرنسية باللغتين العربية والفرنسية قام الفرنسيون له وقعدوا ونشرته الصحف»[1].

وهذا نصّه:

إلى فخامة المفوّض السامي في بيروت.

بواسطة المندوب العام في الجمهورية السورية.

لقد سمعتم الاحتجاجات الصاخبة التي قام بها المسلمون عموماً في مشارق الأرض ومغاربها على القرار ذي الرقم ٦٠ المسمّى بقانون الطوائف وعلى تعديله ذي الرقم١٦٤ الصادرين عن المفوّضية العليا لأنّهما مناقضان مناقضة صريحة لتعاليم دينهم وأحكام شرعيتهم التي نصّ على احترامها حتّى صك الانتداب والذي سبّب هذه الثورة الفكرية في البلاد.

ولم نكن نحن المسلمين الشيعة بأقل استنكاراً لهذا القرار الذي يسيء إلى حرمة الأديان السماوية كافة لأنّنا من أشدّ ابناء الشريعة المحمّديّة تمسّكاً بتقاليدها وحرصاً على تعاليمها، ولذلك استغربنا أشدّ الاستغراب ما جاء في خطاب فخامتكم في الراديو من تفريقكم بين طوائف المسلمين هذا التفريق الذي ينكره المسلمون أجمع، ونستغرب قصركم توقيف مفعول القرار على

---

(١) المصدر السابق: ٣٧٠.

الطائفة السنّية وحدها واستثناؤكم بقية المسلمين من ذلك. فأنا بوصفي الرئيس الروحي للطائفة الإسلامية الشيعية في سوريا ولبنان أرجو من فخامتكم أن تحاطوا علماً باستنكار المسلمين الشيعيين عامّة لهذا القرار ولهذا التفرقة المصطنعة بين المسلمين»[١]، وكان لهذه المواقف من السيّد الأمين الأثر البالغ على معنويات المجاهدين في سوريا ولبنان وعن ذلك يقول «لطفي الحفار» من رجال الكتلة الوطنية في سوريا «وإنّي لأذكر أنّ الفرنسيين حاولوا كثيراً استمالته إليهم بشتّى الوسائل المغرية، وعرضوا عليه داراً فخمة يقيم بها، وراتباً ضخماً يتقاضاه منهم، فردّهم ردّاً عنيفاً وأعرض عنهم ولم يبال بهم وبقوّتهم، وكان لهذا كلّه أعظم تأثير لدى الذين يتّصلون به ويعرفون مناقبه وفضائله ويستمعون إلى أحاديثه النافعة ونصائحه الغالية مع ما يتخلّلها من الأبحاث العلمية النافعة والمواضيع الدينية الثمينة فقد كنت كما يعلم الله استشعر راحة ولذّة لا تعدّ لها لذّة حينما أرى هذا الوجه النيّر والتواضع الجمّ والحديث الممتع والنصائح الغالية والأبحاث الدينية والعلمية الواسعة»[٢].

ومن أقواله المشهور في هذا المجال «لم نزل نتخاصم على شرعية الخليفة حتّى صار المندوب السامي الفرنسي هو خليفتنا»؟!

في عهد الاستقلال:

يقول السيّد الأمين في مذكّراته: «أصدرت الحكومة السورية في عهد الاستقلال قراراً في الانتخابات النيابية بأنّ للمسلمين السنّيين كذا من المقاعد في المجلس النيابي، ولسائر الطوائف كذا، وللأقلّيات كذا، بموجب ذلك دخلت الشيعة في الأقليّات فقدّمت للحكومة كتاباً بأنّ الشيعة تعتبر المسلمين

---

(١) أعيان الشيعة ١٠: ٣٧٠.

(٢) المصدر السابق: ٣٨٤.

طائفة واحدة ولا تريد الافتراق عن إخوانها السنيين. فكان لذلك الوقع الحسن عند الوطنيين، وقرّرت الحكومة بأنّ المسلمين طائفة واحدة لا فرق بين سنّيهم وشيعيهم، وإنّ هذه المقاعد المعيّنة للمسلمين في جميع أنحاء الدولة السورية هي للسنّيين وللشيعيين على السواء»[١].

«وبهذا السلوك الحسن استطاع العلّامة الأمين أن ينفذ إلى قلوب الإخوة من أهل السنّة ويتّخذ له موقعاً خاصاً في تلك القلوب»[٢].

أيّة روحية هذه التي يتصف بها هذا الرجل المصلح، وأين أمثال هؤلاء الرجال في عصرنا؟ لقد كان يشخص الأمور بعقل لا بانفعال، وبعقل المستقبل لا بعقل الماضي، ويقدّر المصلحة العامة فوق كلّ شيء، ويقدّمها على كلّ شيء.

منهجيته في الوحدة والتآلف:

ولأهمّية دوره الوحدوي رأينا من الضروري أن نورد بعضاً من منهجيّته في الوحدة والتآلف:

أولاً: أنّ الوحدة كانت هدفه الكبير وعن ذلك يقول: «إنّ توحيد المسلمين هدفي منذ أربعين سنة، منذ إقامتي في هذه الديار»[٣].

وعنده «إنّ أفضل عمل يجهد في سبيله، هو السعي لتأليف القلوب، وإزالة الأضغان بين أهل المذاهب أو تخفيفها، إذ هي مبنية على أمور لا حقيقة لها، وإنّما هي من تسويل شياطين الجن والإنس، مما يمجّه العقل

---

(١) أعيان الشيعة ١٠: ٣٧٠.

(٢) المصلح الإسلامي السيّد محسن الأمين، ورقة الشيخ المهاجري: ٧٧.

(٣) المصدر السابق.

السليم، وينهى عنه القرآن العظيم، والشرع الكريم»[١].

ثانياً: لقد كان داعياً للوحدة بكافة السبل، وكان جريئاً وشجاعاً في دعوته للوحدة لا تأخذه في الله لومة لائم، ولم يركن للعقبات والحساسيات والعراقيل. طوال مسيرته وحياته المباركة.

ثالثاً: لقد كان إماماً للوحدة والتآلف ليس للشيعة فحسب بل إماماً حتّى للسنّة، وإماماً لكلّ الوطنيين في عصره.

رابعاً: «لقد كان السيّد الأمين العالم الذي واجه ظروف المرحلة الحرجة والصعبة التي عاش بها بكلّ مسؤولية، فلم تكن حركته متواضعة ضعيفة خاضعة للتحديات التي تفرضها أوضاع التعقيدات السياسية والاجتماعية القاسية، بل كانت حركته في حجم تلك التحدّيات، وفي مستوى تلك الظروف، وفي الموقع الإسلامي المتحرّك الذي تفرضه مسؤوليته في مواجهة الظلم والانحراف، ولذلك نجد في ملامح شخصيته، ملامح العالم المصلح، كما نجد فيها ملامح الفقيه الثائر»[٢].

خامساً: لقد أرسى دعائم الوحدة على مختلف الصعد، على الصعيد السياسي في عهد الانتداب وحكومة الاستقلال، وعلى الصعيد الاجتماعي في داخل المجتمع وعلى الصعيد التعليمي والتربوي.

وهو الذي انقذ المجتمع والدولة من مشكلات الطائفية ومآزقها الحادّة في عهد الانتداب مع قانون الطوائف وفي عهد الاستقلال مع قانون الأقلّيات في المجلس النيابي، وهكذا في داخل المجتمع الأهلي.

---

(١) الإسلام بين السنّة والشيعة ١: ١٣١.

(٢) المصلح الإسلامي السيّد محسن الأمين ورقة السيّد محمّد حسين فضل الله: ٨٦.

الشيخ كاشف الغطاء
١٢٩٥ – ١٣٧٣هـ / ١٨٧٦ – ١٩٥٤م

ساهم في الحركات الجهادية في عهود السيطرة الاستعمارية في العراق ودول عربية أخرى، وكان يستشعر الواقع الإسلامي ومشكلاته بمرارة وألم، بين مشكلات هي نتاج الداخل الإسلامي، ومشكلات هي نتاج الخارج ومن صنع المخطّطات الأجنبية... والوعي بهذه الأوضاع كان يحفزه لممارسة دوره في حركة الأحداث. سافر إلى الخارج وهناك اطّلع على أوضاع العالم العربي والإسلامي وما يتعرّض له من مؤامرات ومخطّطات في الهيمنة ومسخ الشخصية الإسلامية وتغريب الهوية الحضارية، فازداد حماساً بدوره، وجرأة في مواقفه، وتصميماً في منهجه النهضوي.

كان منفتحاً على عصره وثقافاته ومجتمعه ممّا جعله واعياً. بما يدور فيه وواعياً لمسؤوليته الاصلاحية. وفي عصره تساءل البعض - لم يتدخّل سماحة الإمام كاشف الغطاء في السياسة وهو رجل دين روحاني؟

وكان يجيب عن ذلك بقوله: «أمّا التدخّل بالسياسة فإن كان المعني بها هو الوعظ والإرشاد والنهي عن الفساد، والنصيحة للحاكمين بل لعامة العباد، والتحذير من الوقوع في حبائل الاستعمار والاستبعاد، ووضع القيود والأغلال على البلاد وأبناء البلاد، إن كانت السياسة هي هذه الأمور فأنا غارق فيها إلى

هامتي وهي من واجباتي وأراني مسؤولاً عنها أمام الله والوجدان»[١].

وحينما تحدّث عن الجهاد قال: «لو أردنا أن نطلق عنان البيان للقلم في تصوير ما كان عليه الجهاد بالأمس عند المسلمين، وما صار اليوم لتفجّرت العيون دماً، ولتمزّقت القلوب أسفاً وندماً، ولتسابقت العبرات والعبارات، والكلوم والكلمات ولكن! أتراك فطنت لما حبس قلمي، ولوى عناني، وأجّج لوعتي، وأهاج أحزاني، وسلبني حتّى حريّة القول، ونفثة المصدور»[٢].

وقد كشف كتابه «المثل العليا في الإسلام» عن غيرته على الإسلام والبلاد الإسلامية، فقد كان الكتاب خطاباً ملهماً بعث روحاً في الأُمّة ووصفه البعض: «إنّ تأليف مثل هذا الكتاب من قبل العلّامة كاشف الغطاء ليبعث الأمل إلى النفوس بأنّ الكرامة الوطنية لها ركائز باقية فوق تربة الوطن، وإنّ روح جمال الدين الأفغاني لم ينمحي أثرها من عقول بعض رجال الدين، وإنّ الوطنية يمكن بعثها شاملة ما دام أمثال العلّامة كاشف الغطاء يمسك بمشعلها ليحرق به الاستعمار»[٣].

«لقد قابل جمهور الشعب في البلاد العربية والإسلامية، والزعماء المخلصون الكتاب بارتياح عظيم، واعتبره الناس معبّراً عن شعورهم، وآلامهم، وممثّلاً لآرائهم ومصالحهم»[٤]، وقد نفد الكتاب خلال بضعة أيام من صدوره.

---

(١) المثل العليا في الإسلام: ٨١.

(٢) أصل الشيعة وأصولها: ٣٤٩.

(٣) المثل العليا في الإسلام: ٨٧.

(٤) المصدر السابق: ٨٤.

وعن مشروعه في الوحدة والتقريب فقد كان من الفاعلين في «دار التقريب بين المذاهب الإسلامية» في القاهرة، وقد أعطى زخماً كبيراً لمشروعات الوحدة الإسلامية، وروحياً وفكرياً وعملياً. وكانت الوحدة في تفكيره مصلحة عليا لا يجوز التفريط فيها أو التهاون بها والتغافل عنها، فكان يقدّمها كأولوية أساسية في منهجيته الحركية.

منهجيته في الوحدة:

إنّ تأمّلات الشيخ كاشف الغطاء في مجموعها تشكّل منهجاً علمياً في كيفية فهم الوحدة والتقريب، والمنهج السليم في التعامل مع الاختلاف ومن مكوّنات ومعالم هذه المنهجية:

١- أن ليس المراد من التقريب بين المذاهب الإسلامية إزالة أصل الخلاف بينها، بل أقصى المراد وجلّ الغرض هو إزالة أن يكون هذا الخلاف سبباً للعداء والبغضاء، الغرض تبديل التباعد والتضارب بالإخاء والتقارب[١].

ومهمّا تعمقنا في البحث ومشيّنا على ضوء الأدلّة عقليّة أو شرعيّة، وتجردنا من الهوى والهوس والعصبيات، فلا نجد أيّ سبب مبرر للعداء والتضارب بين طوائف المسلمين مهما اتّسعت شقة الخلاف بينهم في كثير من المسائل[٢].

٢- ضرورة الرجوع إلى المصادر العلمية الأصلية لأي مذهب أو فكرة إذا ما أردنا الوصول إلى الحقيقة في هذا المذهب أو هذه الفكرة.

---

(١) دعوة التقريب بين المذاهب الإسلامية: ٦٧.

(٢) المصدر السابق: ٦٩.

و«ما زال أهل العلم والنظر والدراسات الصحيحة يعنون أكبر العناية بالمصادر التي يعتمدون عليها في بحوثهم، ويستندون إليها في أحكامهم، ومن المعهود أنّ رجال الفرق، وأهل العصبيّة للمذاهب ينقلون عن مخالفيهم آراء قد لا يعرفها هؤلاء المخالفون، وقد يعرفونها على صورة أخرى تختلف اختلافاً قريباً أو بعيداً عن الصورة المنقولة.

لذلك كان شيوخ العلم، وحذّاق النقد يوصون تلاميذهم بأن يعنوا بمصادرهم، وألّا يقلّدوا في بحوثهم وأفكارهم تقليداً أعمى، فيقعوا في الخطأ، ويضلّوا عن سواء السبيل»[(١)].

لذلك «إنّ التثبّت واجب قبل الحكم وقد أمرنا الله به لئلا نصيب قوماً بجهالة فنصبح على ما فعلنا نادمين»[(٢)].

٣- إنّ الوحدة الحقّة والإخاء الصحيح الذي جاء به الإسلام، بل جاء بالإسلام وتمشّت عليه وضعية الأُمم الراقية وبلغت أوج العزّ والقوّة أن يرى كلّ فرد من الأُمّة أنّ المصلحة النوعية هي عين المصلحة الفردية، بل هي فوقها، وهذه الصفة خفيفة في اللسان، ثقيلة في الميزان[(٣)].

٤- كفى بالقرآن جامعاً مهما بلغ الخلاف بين المذاهب، فإن رابطة القرآن تجمعهم في كثير من الأصول والفروع، تجمعهم في أشد الروابط من التوحيد والنبوّة والقبلة وأمثالها من الأركان والدعائم، واختلاف الرأي فيما

---

(١) المصدر السابق: ٧٢.

(٢) دعوة التقريب بين المذاهب الإسلامية: ٧٥، إشارة لقوله تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**) الحجرات (٤٩): ٦.

(٣) المثل العليا في الإسلام: ١١٩.

يستنبط أو يفهم من القرآن في بعض النواحي، اختلاف اجتهادي لا يوجب التباغض والتعادي. والقرآن صريح في لزوم الاتفاق والإخاء والنهي عن التفرق والعداء، قد جعل المسلمين إخوة فقال عز شأنه: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾[1].

٥- لا نزال نحن معاشر المسلمين بالنظر العام نتعلّق بحبال الآمال، ونكتفي بالأقوال عن الأعمال، وندور على دوائر الظواهر والمظاهر، دون الحقائق والجواهر، ندور على القشور ولا نعرف كيف نصل إلى اللبّ على العكس ممّا كان عليه أسلافنا، أهل الجدّ والنشاط. أهل الصدق في العمل قبل القول، وفي العزائم قبل الحديث. نحن نحسب أنّنا إذا قلنا قد اتحدنا واتفقنا وملأنا بتلك الكلمات لهواتنا واشداقنا، وشحنّا بها صحفنا وأوراقنا نحسب بهذا ومثله يحصل الغرض المهم من الاتحاد، ونكون كأُمّة من الأُمم الحيّة التي نالت بوحدتها عزّها وشرفها، وأخذت المستوى الذي يحقّ لها.

ولذلك تجدنا لا نزداد إلّا هبوطاً، ولا تنال مساعينا إلّا إخفاقاً وإحباطاً. يستحيل لو بقي المسلمون على هذا الحال أن تقوم لهم قائمة، أو تجتمع لهم كلمة، أو تثبت لهم في المجتمع البشري دعامة، ولو ملئوا الصحف والطوامير، وشحنوا أرجاء الأرض وآفاق السماء بألفاظ الاتحاد والوحدة، وكلّ ما يشتق منها ويراد منها.

كلّ ذلك لا يجدي إذا لم يندفعوا إلى العمل الجدّي والحركة الجوهرية[2].

---

(١) المصدر السابق: ٦٧، الحجرات (٤٩): ١٠.

(٢) المثل العليا في الإسلام: ١١٣.

أخلاقيات الوحدة:

٦- أن يجد كلّ مسلم أنّ مصلحة أخيه المسلم هي مصلحة نفسه، فيسعى لها كما يسعى لمصالح ذاته، ذلك حيث ينزع الغلّ من صدره والحقد من قلبه وينظر كلّ من المسلمين إلى الآخر - مهما كان - نظر الإخاء لا نظر العداء وبعين الرضا لا بعين السخط، وبلحاظ الرحمة لا الغضب والنقمة.

ذلك حيث يحسّ بوجدانه، ويجد بضرورة حسّه، أنّ عزّه بعزّ إخوانه وقوّته بقوّة أعوانه، وأنّ كلّ واحد منهم عون للآخر، فهل يتقاعس عن تقوية عونه وتعزيز عزّه وصونه!

ثمّ إذا كان التخلّق بهذا الخلق الشريف عسيراً لا ينال، وشأواً متعالياً لا يدرك، ولا يستطيع المسلم أن يواسي أخاه المسلم وأن يحبّ لأخيه المسلم ما يحبّ لنفسه، وأن يجد أنّ صلاحه بصلاح أُمّته، وعزّه بعزّة قومه فلا أقلّ من التناصف والتعادل والمشاطرة والتوازن، فلا يجحد المسلم لأخيه حقّاً، ولا يبخسه كيلا ولا يطفّف له وزناً. والأصل والملاك في كلّ ذلك اقتلاع رذيلة الحرص والجشع والغلبة والاستئثار والحسد والتنافس، فإنّ هذه الرذائل سلسلة شقاء، وحلقات بلاء يتصل بعضها ببعض، ويجرّ بعضها إلى بعض، حتّى تنتهي إلى هلاك الأُمّة[1].

٧- إذا نظرنا إلى ما جرّه هذا الخلاف والعداء من الويلات والبليات على المسلمين، وما ضاع على أثره من الممالك الإسلامية الكبرى كالأندلس، والقوقاز، وبخارى، ونحوها، ولو أنّ المسلمين كانوا في تلك الظروف يداً واحدة كما أمرهم الله لما انتزع من الإسلام شبراً واحداً، وإذا لم يكفنا عبرة ما

---

(١) المثل العليا في الإسلام: ١٣٣ - ١١٤.

سجّله التاريخ من تلك الفجائع فليكفنا ما رأيناه بأعيننا من رزية المسلمين بفلسطين وهو الفردوس الثاني[١].

إنّ داء المسلمين تفرّقهم وتضارب بعضهم ببعض، ودواءهم الذي لا يصلح آخرهم إلّا به كما لا يصلح إلّا عليه، ألا وهو الاتّفاق والوحدة[٢].

وقد عرف اليوم حتّى الأبكم والأصمّ من المسلمين أنّ لكلّ قطر من الأقطار الإسلامية حوتاً من حيتان الغرب، وأفعى من أفاعي الاستعمار فاغراً فاه لالتهام ذلك القطر وما فيه، أفلا يكفي هذا جامعاً للمسلمين ومؤجّجاً لنار الغيرة والحماس في عزائمهم، أفلا تكون شدّة تلك الآلام وآلام تلك الشدّة باعثة لهم على الاتحاد[٣].

٨- ضرورة عقد المؤتمرات في كلّ عام أو عامين يجتمع فيها عقلاء المسلمين وعلماؤهم من الأقطار النائية ليتعارفوا أوّلاً، ويتداولوا في شؤون الإسلام ثانياً، بل وأوجب من هذا عقد المؤتمرات والمعاهدات بين حكّام المسلمين، فيكونوا يداً واحدة بل كيدين لجسد واحد يدفعان عنه الأخطار المحدقة به من كلّ جانب[٤].

نصف قرن من الدعوة إلى الوحدة:

يقول الشيخ «محمّد حسين كاشف الغطاء»: «مضى عليّ أكثر من خمسين سنة وأنا أهيب بإخواني المسلمين أدعوهم إلى الاتفاق والوحدة

---

(١) دعوة التقريب بين المذاهب الإسلامية: ٦٩.

(٢) المثل العليا في الإسلام: ١١١.

(٣) المصدر السابق: ١١٦.

(٤) المصدر السابق: ١١٩.

وجمع الكلمة ونبذ ما يثير الحفائظ وينبش الدفائن والضغائن التي أضرّت بالإسلام وفرّقت كلمة المسلمين فأصبح الإسلام غريباً يستنجد بهم، تكالب عليه أعداؤه وجاحدوه وخذله أهله وحاملوه.

ومن أراد شاهد صدق على ذلك فليراجع الجزء الأول من «الدين والإسلام» أو الدعوة الإسلامية الذي طبع منذ٤٤ سنة ولينظر أوّل صفحة منه إلى صفحة٢٧ تحت عنوان «البواعث والدواعي لهذه الدعوة». ثمّ يشفع هذه النظرة بآخرين في أوّل الجزء الثاني منه فيرى المقطوعة التي يقول أولها:

بنـــي آدم إنّـــا جميعـــاً بنـــو أب لحفـظ التـــآخي بيننـــا وبنـــو أم

ومنها يقول:

بنـــي آدم رحمـــاكم فـــي قبـــيلكم بفقد جزتم بري العظام إلى الهشم
حنانـاً علـى هـذي النفـوس فإنّهـا سـماوية مـن رشـح ذيالـك الـيم
هلمّـوا نعـيش بالـسلم عـصراً فإنّنـا قـضينا عـصوراً بالتضارب
إلـيكم بنـي الأديـان منّـي دعـوة دعـوتكم فيهـا إلـى الـشرف الجـمِّ
إلـى الـسلم فـيكم والتـساهل بيـنكم فيـا حبّـذا شـرع التـساهل والـسلمِ

ولـم تـزل نـشراتي ومؤلّفـاتي فـي أكثـر مـن نـصف قـرن سلـسلة متواليـة الحلقات متصلة غير منقطعة كلّها في النصح والإرشاد والدعوة إلى الاتحاد ودفع الفساد، وقد طبع «أصل الشيعة» تسع مرات في كلّ واحدة مقدّمة طويلة في الحثّ والبعث إلى الوعي واليقظة، وإنّ البلاء على الإسلام قد أحاط بالمسلمين منهم، ومن الملحدين ومن المشركين. وفي خلال هذه البرهة تحمّلت الأسفار وركبت متون الأخطار في البرّ والبحر والهواء، وأنا في

المرحلة الأخيرة ومن الحياة المنهوكة بالعلل والأسقام والتي هي تحت أجنحة الحمام، كلّ ذلك في سبيل الدعوة إلى الخير والحقّ، وخدمة الإسلام خالصاً لوجهه الكريم لا نريد مالاً ولا جاهاً ولا جزاءً ولا شكوراً»[١].

وقد قال عنه «أحمد زكي» (لله دره فيما جادت به قريحته الوقادة وغيرته الصادقة على العلم وعلى إحقاق الحق)[٢].

وقال عنه أمير البيان «شكيب أرسلان» (ان تأليفكم ضرورة لأهل الإسلام في هذا العصر، ومنها يعرف ما اتفق فيه أهل السنّة والشيعة وما اختلفوا فيه. ثمّ إنكم باجتهاداتكم تقربون بين الفريقين وتضيقون فرجة الخلف ما أمكن، وإذا حاججتم فعن باع طويل، وبرهان ودليل)[٣].

لقد كان صحوة في الوحدة الإسلامية ويقظة في روحها وبعثاً في حركتها ونهضة في وعيها.

---

(١) المثل العليا في الإسلام: ٦٧ – ٦٨.

(٢) أصل الشيعة وأصولها: ٣٥.

(٣) المصدر السابق: ٥١.

السيّد عبد الحسين شرف الدين
١٢٩٠ – ١٣٧٣ هـ / ١٨٧٦ – ١٩٥٤م

من رجالات النهضة الإسلامية الحديثة ولا زال حضوره نابضاً في أدبيات الحوار الإسلامي. كان وعيه مبكّراً بحال المسلمين وحاجتهم إلى الوحدة ولسان حاله يقول: «كانت تلتمع في صدري منذ شرخ الشباب، التماع البرق في طيّات السحاب، وتغلي في دمي غليان الغيرة، تتطلّع إلى سبيل سوي يوقف المسلمين على حدّ يقطع دابر الشعب بينهم، ويكشف هذه الغشاوة عن أبصارهم، لينظروا إلى الحياة من ناحيتها الجدّية، راجعين إلى الأصل الديني المفروض عليهم، ثم يسيروا معتصمين بحبل الله جميعاً تحت لواء الحقّ إلى العلم والعمل، إخوة بررة يشدّ بعضهم أزر بعض، لكن مشهد هؤلاء الإخوة المتصلين بمبدأ واحد، وعقيدة واحدة كان - وا أسفاه - مشهد خصومة عنيفة، تغلو في ا لجدال، غلو الجهّال، حتى كأن التجالد في مناهج البحث العلمي من آداب المناظرة أو أنّه من قواطع الأدلّة! ذلك ما يثير الحفيظة، ويدعو إلى التفكير، وذلك ما يبعث الهمّ والغمّ والأسف. فما الحيلة؟ وكيف العمل؟ هذه ظروف ملمّة في مئين من السنين، وهذه مصائب محدقة بنا من الأمام والوراء، وعن الشمال وعن اليمين، وذاك قلم يلتوي به العقم أحيانا، وتجور به الأطماع أحياناً أخرى، وتدور به الحزبية تارة، وتسخّره العاطفة تارة

أخرى، وبين هذا وذاك ما يوجب الإرتباك فما العمل؟ وكيف الحيلة»[١]؟

إنّ هذا الشعور المنبعث من القلب المحترق ألماً من معاناة الواقع حيث الشتات والتفتت، الجرثومة التي كانت تنتشر في جسد الأمة، مستفيدة من الجهل وضعف الوعي، ومدعومة من حبائل مخطّطات الاستعمار، كان يلازم السيّد شرف الدين دوماً حتى كان أحد مكونات تفكيره في قضايا الساحة والأُمّة.

وقد بدأت مسيرة الجهاد عند الإمام شرف الدين «في أوائل القرن العشرين بعد عودته من النجف الأشرف إلى جبل عامل - جنوب لبنان - فقد كان من أبرز قيادات تيار الممانعة والمقاومة في وجه الاستعمار الحديث لبلاد المسلمين.. ومن الطبيعي ان تكون وحدة المسلمين هي الهدف الذي كان يسعى من أجله شأنه في ذلك شأن كثير من العلماء والمفكرين المسلمين الذين أدركوا ان الهجمة الاستعمارية على بلاد المسلمين لا يمكن ردها إلا في إطار مشروع سياسي توحيدي يعيد للمسلمين شوكتهم ويبعث فيهم ما انكسر من إرادة ومعنويات وثقة بالذات»[٢].

في لبنان رفض الطائفية:

يقول الدكتور «حسين القوتلي»: «في أواسط الخمسينات من هذا القرن، وكنت في بداية العشرينات من عمري عملت إلى جانب دولة الرئيس الحاج «حسين العويني» - رئيس المجلس الإسلامي في بيروت - آنذاك، مقرّراً لهذا المجلس، ومن خلال كلمة ألقاها الرئيس العويني في حفل تأبين السيّد عبد

---

(١) المراجعات: ٤٩ - ٥٠.

(٢) مؤتمر تكريم السيّد شرف الدين ورقة السيّد محمّد حسن الأمين: ١٢٢.

الحسين شرف الدين، بدأت بالتعرّف إلى المنهج التوحيدي عند علّامتنا العاملي، في تلك الكلمة، قال رئيس المجلس الإسلامي عن الراحل الكبير: إنّه أوّل من دعا إلى نبذ الخلافات الوهمية القائمة بين الشيعة والسنّة وهي - يشهد الله - من عمل الاستعمار ومخلفاته السياسية، فمتى كان المسلم سنّياً ومتى كان شيعياً. وأضاف يقول: إنّنا في المجلس الإسلامي نريد أن نخلد ذكرى الراحل الكبير، لا عن طريق الكلام المنمق، ولكن عن طريق العمل بما دعا إليه السيّد عبد الحسين شرف الدين، إنّنا نريد أن نعلن عزمنا وتصميمنا على محو هذه الفرقة بين السنّة والشيعة وافتتاح عهد جديد من الوحدة الدينية نطلق عليها اسم «عهد شرف الدين»[1].

التضامن مع المسيحيين:

لقد رفض السيّد شرف الدين الطائفية وتأسيس النظام السياسي على قاعدة الطائفية وكانت له محاولات لإصلاح المجتمع طائفياً بإزالة كلّ شائبة تقف والعلاقات الحسنة مع المسيحيين لسدّ الذرائع على الانتداب الفرنسي من اللعب بالورقة الطائفية بين المسيحيين والمسلمين في لبنان.

وما أدلّ على ذلك من موقفه الإصلاحي في مؤتمر وادي الحجير الذي انعقد سنة ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م، ففي خطبته الشهيرة قال الإمام شرف الدين:

«ألا أدلّكم على أمر إن فعلتموه انتصرتم، فوّتوا على الدخيل الغاصب برباطة الجأش فرصته، وأخمدوا بالصبر الجميل فتنته، فإنّه والله ما استعدى فريق على فريق إلّا ليثير الفتنة الطائفية، ويشعل الحرب الأهلية، حتّى إذا صدق

(١) مؤتمر تكريم السيّد شرف الدين ورقة السيّد محمّد حسن الأمين: ١٠٠.

زعمه وتحقّق حلمه استقرّ في البلاد بعلّة حماية الأقلّيات.

ألا وإنّ النصارى إخوانكم في الله وفي الوطن وفي المصير، فأحبّوا لهم ما تحبّونه لأنفسكم، وحافظوا على أرواحهم وأموالهم كما تحافظون على أرواحكم وأموالكم، وبذلك تحبطون المؤامرة، وتخمدون الفتنة، وتطبقون تعاليم دينكم وسنة نبيكم[1]، ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ**﴾[2].

في القاهرة الحوار الإسلامي - الإسلامي:

يحدّثنا السيّد شرف الدين عن رحلته إلى مصر وغرضه من هذه الزيارة والأجواء النفسية التي سبقتها يقول: «لقد ضقت ذرعاً بهذا، وامتلأت بحمله همّاً ، فهبطت مصر أواخر سنة ١٣٢٩هـ مؤمّلاً في نيله، نيل الأُمنية التي أنشدها وكنت ألهمت أنّي موفّق لبعض ما أريد، ومتصل بالذي أُداور معه الرأي، وأتداول معه النصيحة، فيسدّد الله بأيدينا من «الكنانة» سهماً نصيب به الغرض، ونعالج هذا الداء الملحّ على شمل المسلمين بالتمزيق، وعلى جماعتهم بالتفريق، وقد كان والحمد لله الذي أملت، فإنّ مصر بلد ينبت العلم، فينمو به على الإخلاص، والإذعان للحقيقة الثابتة بقوّة الدليل، وتلك ميزة لمصر فوق مميّزاتها التي استقلّت بها.

وهناك على نعمى الحال، ورخاء البال، وابتهاج النفس، جمعني الحظ

---

(١) بغية الراغبين ٢: ٤٤٠.

(٢) المائدة (٥): ٨٢.

السعيد بعلم من إعلامها المبرّزين، بعقل واسع، وخلق وادع، وفؤاد حي، وعلم عليم ومنزل رفيع، يتبوأه بزعامته الدينية، بحق وأهلية...

شكوت إليه وجدي، وشكا إليّ مثل ذلك وجداً وضيقاً، وكانت ساعة موفّقة أوحت إلينا التفكير فيما يجمع الله به الكلمة، ويلمّ به شعث الأُمّة، فكان ممّا اتفقنا عليه أنّ الطائفتين - الشيعة والسنّة - مسلمون يدينون حقاً بدين الإسلام الحنيف، فهم فيما جاء الرسول به سواء، ولا اختلاف بينهم في أصل أساسي يفسد التلبّس بالمبدأ الإسلامي الشريف...

وقد فرضنا على أنفسنا أن نعالج هذه المسألة بالنظر في أدلّة الطائفتين، فنفهمهما فهماً صحيحاً، من حيث لا نحسّ إحساسنا المجلوب من المحيط والعادة والتقليد بل نتعرّى من كلّ ما يحوطنا من العواطف والعصبيّات، ونقصد الحقيقة من طريقها المجمع على صحّته، فنلمسها لمساً، فلعلّ ذلك يلفت أذهان المسلمين، ويبعث الطمأنينة في نفوسهم، بما يتحرّر ويتقرّر عندنا من الحق فيكون حدّاً ينتهي إليه إن شاء الله تعالى»[1].

ومن هذه الحوارات كان كتاب «المراجعات» الذي أعاد الاعتبار إلى البحث العلمي المجرّد والحوار الموضوعي. وفي وصف الدكتور «حامد حفني داود» إنّ هذه المناظرة كانت: «شيئاً جديداً لا نكاد نألفه إلّا في المنهج الإسلامي في فنّ المناظرة والجدل، ذلك المنهج هو إصرار كلّ من الباحثين على الوصول إلى الحقيقة أنّى وجدها، فلم يكن أحدهما يبغي من المناظرة الكيد لصاحبه أو النيل من علمه أو حتّى مجرد الفرق بقدر ما يطمع من

(١) المراجعات: ٥٠ - ٥٢.

الوصول إلى الحقيقة ولو كانت متمثّلة في حجّة صاحبه»[١].

وقد استغرق هذا الحوار بين السيّد شرف الدين والشيخ سليم البشري مائة واثنتي عشر حلقة ما بين ذي القعدة ١٣٢٩، وجمادى الأولى١٣٣٣هـ.

أجوبة مسائل جار الله:

طاف الشيخ «موسى جار الله» بعض الأقطار الإسلامية، ووقف على أحوالها وأخبارها وفي نهاية مطافه وجّه إلى علماء الشيعة أسئلة يعتقد أنّها في الوحدة الإسلامية، وعن هذه الأسئلة يقول السيّد شرف الدين: «وردت عليّ مسائل موسى جار الله كما رفعت إلى غيري من علماء الإمامية بواسطة جمعية الرابطة العلمية الأدبية النجفية - أعزّها الله تعالى - مؤرّخة في ٢١ ذي القعدة سنة ١٣٥٣هـ ووردت عليّ من طريق آخر أيضاً.

فما وقفت عليها حتّى أوجست من مغازيها خيفة على الوحدة الإسلامية أن تنفصم عروتها، وتتفرّق جماعتها، إذ وجدت فيها من نبش الدفائن وإثارة الضغائن ما يشقّ عصا المسلمين ويمزّقهم تمزيقاً، والدور عصيب، والظروف حرجة، لا تسع النقض والإبرام، ولا المشادّة والمناقشة فضلاً عن هذه المحاربة، التي ليس بعدها مصاحبة، وكان الواجب ترك هذه الغارات.

... أليس اللهﷻ وحده لا شريك له ربّنا جميعاً؟ والإسلام ديننا؟ والقرآن الحكيم كتابنا؟ وسيّد النبيّين وخاتم المرسلين محمّد بن عبد اللهﷺ نبينا؟ وقوله وفعله وتقريره سنّتنا؟ والكعبة مطافنا وقبلتنا؟ والصّلوات الخمس، وصيام الشهر، والزكاة الواجبة، وحجّ البيت فرائضنا..؟»[٢].

---

(١) نظرات في الكتب الخالدة: ٩٠.

(٢) أجوبة مسائل جار الله: ٤ – ٥.

وما إن صدر الكتاب سنة١٣٥٥هـ حتّى أقبل عليه العلماء والمفكّرون من حملة لواء الوحدة، ينشرونه ويبشّرون به.

وقد احتوى الكتاب على عشرين مسألة من المسائل الخلافية بين السنّة والشيعة أجاب عليها السيّد شرف الدين بصراحة ووضوح وبما يجمع الأُمّة ويقرّب بين مذاهبها ويوحّدها على قاعدة الاختلاف في الفروع والاتفاق على الأصول...

الفصول المهمة في تأليف الأمّة:

هذا الكتاب الذي ألّفه السيّد شرف الدين بعد رجوعه من النجف الأشرف بسبع سنين أي سنة١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م يعدّ منهجاً قيّماً في تأليف الأُمّة واتفاقها... وقد جاءت فصول الكتاب كخطوط رئيسة لمنهج التأليف والتقريب. وهذه الفصول:

الفصل الأول: فيما جاء في الكتاب والسنّة من الحضّ على الاجتماع والتنديد بأهل التفريق والنزاع.

الفصل الثاني: في بيان معنى الإسلام والإيمان وفيه ما يوجب القطع بأنّ جميع أهل الشهادتين والصوم والصلاة والحجّ والزكاة إخوان.

الفصل الثالث: في صحاح أهل السنّة الحاكمة باحترام أهل الأركان الخمسة كافّة، وحرمة دمائهم وأعراضهم وأموالهم، وفيه من الأحاديث الصحيحة والنصوص الصريحة ما يقطع شغب المشاغب، ولا يبقى معه أثر لهذيان النواصب.

الفصل الرابع: في يسير من نصوص أئمّتنا في الحكم بإسلام أهل السنّة

وأنّهم كالشيعة في كلّ أثر يترتّب على مطلق المسلمين.

وهذا في غاية الوضوح من مذهبنا لا يرتاب فيه ذو اعتدال منّا.

الفصل الخامس: في صحاح السنّة الحاكمة على أهل الأركان الخمسة بدخول الجنّة وفيه من البشائر ما تقرّ به النواظر.

الفصل السادس: في لمعة من فتاوى علماء أهل السنّة بإيمان أهل الأركان الخمسة كافّة واحترامهم ونجاتهم جميعاً وفيه فتاوى كثيرة من أعلام الأُمّة.

الفصل السابع: في بشائر السنّة للشيعة ويا لها من بشائر تحكم بفلاحهم في الدنيا وسعادتهم في اليوم الآخر. وهي صحاح متضافرة من طريق العترة الطاهرة، ومنها ما أخرجه محدّثو أهل السنّة بأسانيدهم وطرقهم.

الفصل الثامن: فيمن تأوّلوا من السلف فخالفوا الجمهور ولم يقدح ذلك في عدالتهم والغرض إثبات معذرة المتأوّلين[1].

---

(١) الفصول المهمّة، الفهرست: ٢٠٥.

منهجية شرف الدين في الوحدة

من مكوّنات ومعالم هذه المنهجية:

١- «إذا كان الهدف من مناقشة الرأي الآخر هو خطاب الذات لا الآخر. فقد يجوز في المنهج أن يعتمد الفقيه على أدلّته المذهبية الخاصّة، وهذا ليس أسلوب الحوار بل هو مساجلة لا تؤدّي غالباً إلى وفاق بل تثبت رأي كلّ فريق في مقابل الرأي الآخر.

وأما إذا كان الهدف إقناع الآخر بوجهة النظر المخالفة، أو حلّ النزاع بالكشف عن معيار ثالث للموقف في محلّ النزاع أعلى من معيار كلّ واحد من المختلفين، فإنّ المنهج العلمي الصحيح الذي يتوفّر على شروط البحث العلمي ويتسم بالجدّية، لابدّ أن يرتكز على الأدلّة التي يعتمدها الطرف الآخر.

وهذا هو الحوار الذي يرتكز على أسس مشتركة بين المتحاورين، وهو يؤدّي غالباً إلى وفاق أو إلى تفهّم للآخر يفسح مجالاً لاكتشافه وقبوله والاعتراف به.

ونلاحظ أنّ الإمام شرف الدين قد التزم بهذا المنهج التزاماً صارماً فيما وصل إلينا من أبحاثه في فقه الخلاف وفي فقه الوفاق»[1].

---

(١) مؤتمر تكريم السيّد عبد الحسين شرف الدين، ورقة الشيخ محمّد مهدي شمس الدين: ٤٩.

حاكمية الدليل:

٢- «إنّ تعبّدنا في الأصول بغير المذهب الأشعري، وفي الفروع بغير المذاهب الأربعة لم يكن لتحزّب أو تعصّب، ولا للريب في اجتهاد أئمّة تلك المذاهب، ولا لعدم عدالتهم وأمانتهم ونزاهتهم وجلالتهم علماً وعملاً.

لكن الأدلّة الشرعية أخذت بأعناقنا إلى الأخذ بمذهب الأئمّة من أهل بيت النبوّة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة، ومهبط الوحي والتنزيل، فانقطعنا إليهم في فروع الدين وعقائده، وأصول الفقه وقواعده، ومعارف السنّة والكتاب، وعلوم الأخلاق والسلوك والآداب، نزولاً على حكم الأدلّة والبراهين، وتعبّداً بسنّة سيّد النبيّين والمرسلين صلّى الله عليه وآله وعليهم أجمعين.

ولو سمحت لنا الأدلّة بمخالفة الأئمّة من آل محمّد، أو تمكّنا من تحصيل نية القربة لله سبحانه وتعالى في مقام العمل على مذهب غيرهم لقصصنا أثر الجمهور، وقفونا أثرهم، تأكيداً لعقد الولاء، وتوثيقاً لعرى الإخاء، ولكنّها الأدلّة القطعية تقطع على المؤمن وجهته، وتحول بينه وبين ما يروم»[1].

المحتوى الحضاري للوحدة:

٣- «لا تتسق أمور العمران، ولا تستتب أسباب الارتقاء، ولا تنبث روح المدنية، ولا تبزغ شموس الدعة من أبراج السعادة، ولا نرفع عن أعناقنا نير العبودية بيد الحرية إلّا باتفاق الكلمة واجتماع الأفئدة، وترادف القلوب، واتحاد العزائم، والاجتماع على النهضة بنواميس الأُمّة، ورفع كيان الملّة، وبذلك تهتزّ الأرض طرباً، وتمطر السماء ذهباً، وتتفجّر ينابيع الرحمة من قلب

---

(١) المراجعات: ٦٠ - ٦١.

المواساة فتجري في سهوب الترقي وتتفرّق في بيد العمران، وأخاديد الحنان والاتحاد»[١].

٤- «لم يتكون الموقف السياسي التوحيدي الذي رسم أفق الحركة التوحيدية لديه، إلّا محصّلة لرؤيته الإصلاحية الأساسية العاملة والملتزمة بوحدة التربية، ولرؤيته الإصلاحية الاجتماعية الملتزمة بوحدة المجتمع، ولرؤيته الإصلاحية الداعية إلى وحدة القيم والأخلاق والدين في مجتمع عربي إسلامي ترسي قواعد الحكم فيه دولة عربية واحدة».

٥- فتح باب الحوار المستند على البرهان العلمي والدليل المنطقي، والبحث الموضوعي بين المذاهب الإسلامية لمعرفة نقاط الاختلاف بدليل، ونقاط الاتفاق بدليل، وإزالة كلّ ما هو معارض للعلم والعقل.

٦- لا حياة لهذه الأُمّة إلّا بإجماع آرائها، وتوحيد أهدافها، بجميع مذاهبها وشتّى مشاربها، على إعلاء كلمتها بإعلان وحدتها، في بنيان مرصوص، يشدّ بعضه أزر بعض، وجسم واحد، إذا شكا منه عضو تداعت له سائر الأعضاء، حتّى ليكون المسلم في المشرق، هو نفسه في المغرب، عينه ومرآته، دليله ومشكاته، لا يخونه ولا يخدعه، ولا يظلمه ولا يسلمه، وبذلك يكون المسلمون أُمّة واحدة[٢].

٧- لا تقولوا بعد اليوم هذا شيعي، وهذا سنّي، بل قولوا: هذا مسلم، فالشيعة والسنّة فرّقتهما السياسة، وتجمعهما السياسة، أمّا الإسلام فلم يفرّق ولم يمزّق[٣].

---

(١) مؤتمر تكريم السيّد عبد الحسين شرف الدين: ٩٠.
(٢) بغية الراغبين ٢: ٤٤٧.
(٣) المصدر السابق: ٤٤٨.

الشيخ علي أبو الحسن الخنيزي
١٢٩١ – ١٣٦٣ هـ / ١٨٧٤ – ١٩٤٤م

من كبار أعلام الجزيرة العربية (السعودية) وباعث النهضة العلمية في منطقة القطيف... كان من رجال الوحدة الإسلامية له كتاب يقع في (٩٤٩) صفحة من القطع الكبير في مجلدين، صدر عن دار الفكر في بيروت سنة١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م، يكشف عن معالم منهجية الشيخ «الخنيزي» في الدعوة إلى الوحدة الإسلامية...

وقد جاء في الصفحة الأولى في تعريف الكتاب إنّه «معول يهدّ من الطائفية البغيضة: أسسها المنهارة، ويدعو للوحدة والتآلف، دعوة تتمثّل هذه في الآية الكريمة: ﴿**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾[1].

وهذا الكتاب هو آخر مؤلّفات الإمام الخنيزي ما إن أكمله حتّى عاجلته المنية فكأنّه وصيته الأخيرة لمجتمعه وأُمّته.

ومن اطّلع على هذا الكتاب من الباحثين والمحقّقين كالعلّامة السيّد

---

(١) النحل (١٦): ١٢٥.

«مرتضى العسكري» وآخرين كان رأيهم أنّ هذا الكتاب من أقوى كتب الحوار والمناظرة في المسائل الخلافية من حيث قوّة الدليل، وحجّة البيان، وان صاف الآخر.

وقال عنه الشيخ «محمّد جواد مغنية» في تقديمه على الكتاب: «نجد فيه الحقيقة والهدوء، والإخلاص والإنصاف، وما إلى هذه الصفات، التي يتجلّى بها العالِم القدير والمجتهد الكبير»[1].

وكان من الموضوعي أن يكتسب هذا الكتاب شهرة لا يقلّ مكانة عن غيره في موضوعه.

(١) الدعوة الإسلامية إلى وحدة أهل السنّة والإمامية ١: ص٥.

معالم من منهجه في الوحدة الإسلامية

من معالم هذه المنهجية:

(١)- إنّ الحوار هو المنهج السليم في حلّ المشكلات، وهو الطريق إلى الاعتراف بالآخر والتعايش معه . وفي الدعوة إلى الحوار جاء كتاب «الدعوة الإسلامية إلى وحدة أهل السنّة والإمامية» والذي هو نقد هادئ في قضية صاخبة على كتاب «الصراع بين الإسلام والوثنية» للشيخ «عبد الله بن علي القصيمي»، وهكذا جاء كتاب «المناظرات»[1] الذي يتناول بعض المسائل الخلافية بين المذاهب الإسلامية، على ضوء الهدي الإسلامي والمناظرة الهادئة التي لا تهدف سوى إحقاق الحقّ.

(٢)- الذهاب إلى الدليل أينما كان ، والوقوف على البرهان أينما وجد، والتمسّك بالحجّة الدامغة فكتاباته رحمة الله عليه كتابات استدلالية يجتهد فيها بالدليل وإلى الدليل لا تأخذه مصلحة أو عاطفة أو عصبية.

وفي ذلك يقول الشيخ «سليمان ظاهر» عضو المجمع العلمي العربي: «تنمّ مؤلّفاته الكثيرة عن : علم جم ، وفكر نيّر بعيد النظر ، وخلق كريم ، إن جادل فبالتي هي أحسن ، أو قارع الخصوم فببالغ الحجّة، وواضح البرهان ، ورائده

(١) صدر الكتاب عن مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ، حقّقه وعلّق عليه الشيخ عبد الله الخنيزي.

تحرير الحقّ من رقّ الباطل، وغايته القصوى ، وهدفه الأسمى في كلّ ما خبر وحرّر في حياته، وما أخرج من المطبوعات متمحضّ للتقارب الإسلامي، وتوحيد كلمة التوحيد، في عصر يحيق الخطر على الإسلام»[١].

(٣)- إنّ الوصول إلى الوحدة لابدّ أولاً من إلغاء التفرقة المذهبية فيقول : «لا يكون النظم والاجتماع والإلتآم ، بإلغاء التفرقة المذهبية ، فلا سنّية ، ولا شيعية، ولا خارجية ولا معتزلية، ولا أشعرية فيكون الناظم لهذا العقد، الذي تفرّقت خرزه ، والجامع لهذا الشمل المنصدع، الانصداعات المتفاقمة، هو الدين الإسلامي: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله. فهناك تحصل القوّة الرابطة، والنشاط الجامع، وتصفو داخلية الإسلام ، ويطيب هواؤه، وتنقى جوانبه، وتعود له الروح التي فيه أيّامه وأيّام الخلفاء المرضيين»[٢].

(٤)- التحرّر من أيّة عصبية كانت تاريخية أو اجتماعية أو عقيدية ففي مقدّمته على كتابه «روضة المسائل في إثبات أصول الدين بالدلائل» يقول: «حرّرتها لمن طلب حقّ اليقين من أيّ فرقة كان من المسلمين أو غير المسلمين خلعت فيها ربقة التعصّب والعناد، ونزعت فيها حلّة مذهب الآباء والأجداد، وسلكت طريق الإنصاف والاقتصاد فأرجو ممن وقف عليها النظر بعين الانصاف والألطاف لا بعين التعصّب والاعتساف، ولا بلحاظ مذهب المتقدّمين والأسلاف»[٣].

(٥)- التسامح مع الآخر وإن اختلف معنا. فقد كان رحمة الله عليه طبعه

---

(١) الدعوة الإسلامية ٢: ص ب.

(٢) المصدر السابق ١: ٢٢٥.

(٣) روضة المسائل في أثبات أصول الدين بالدلائل: ٢.

التسامح والتودّد... في بيئة هي أشدّ ما تكون في حاجة إلى التسامح.

قصّة التقريب:

هل في طاقة المسلمين أن يعالجوا مشاكلهم بأنفسهم؟

هل هناك مبادئ من صميم الإسلام تضمن للأُمّة الإسلامية وحدتها، وبالتالي تضمن لها عزّها ومجدها؟

هل يفهم المسلمون أنّ التقريب معناه نبذ كلّ خلاف؟ أو أنّهم لا يرون بأساً بأيّ خلاف يتبع الدليل، ويراعي الأصول التي لا يحقّ لمسلم أن يخرج عليها؟

هل تتحكّم المصلحة في النهاية أو يسيطر التعصّب؟

وأخيراً. هل المسلمون يريدون حقّاً أن يعيشوا أو أنّهم سيظلّون يتهاونون حتّى في وجودهم ويتركون الأمر لأعدائهم الذين يعرفون كيف ينتهزون الفرصة، ويحسنون الانتفاع بموقف كلّ من المتزمتين الذين يسيطر عليهم الجمود ، وأصحاب الهوى الذين يخدمون السياسات الأجنبية؟

وبذلك يزداد ضعفهم ويعجزهم صدّ أيّ تيار خارج على مبادئهم، فيسهل تحطيمهم والقضاء عليهم؟

كانت هذه الأسئلة تدور بخلد كلّ من يفكّر في الإصلاح، وتراود عقل كلّ من يرغب في العمل لخدمة الدين والأُمّة .

وكان لابدّ للردّ عليها من تجربة تنير الطريق، وتكشف عن حقيقة حال المسلمين.

وكانت فكرة التقريب هي التجربة الأولى من نوعها في هذا المجال!

ولو أنّ هذه التجربة فشلت - والعياذ بالله - لكان الجواب على تلك الأسئلة صريحاً واضحاً ؛ فإنّ فشلها وإن كان في ظاهره مجرّد ضياع فكرة ، إلّا أنّه في حقيقته يكون حكماً بعدم صلاحيتنا لعلاج أمورنا، وعدم بلوغنا مرتبة الوعي والرشد، بل يكون دليلاً حتّى عند أكثر الناس إنصافاً لنا،على أنّنا لسنا أهلاً لحمل رسالة الإسلام الذي جاء ليحقّق السلام ، ويضمن الخير للبشر أجمعين!

ولو أنّها فشلت، لما اقتصر أثرها على ضياع هذه الفكرة ، بل كان يمتدّ على الزمن فيثبط - في المستقبل - عزيمة كلّ من يحاول إنجاز عمل إسلامي ، أو تحقيق غاية إسلامية. بل ربّما ألقى هذا الفشل، ظلّاً من التشكّك في مبادئنا الإسلامية نفسها، فنظلم الإسلام ، ونتيح للبسطاء أو المغرضين أن يحكموا عليه بتصرّفاتنا نحن، وشتّان بين حقيقة الإسلام وواقع المسلمين.

كان الوضع قبل تكوين جماعة التقريب يثير الشجن ، فالشيعي والسنّي كلّ كان يعتزل الآخر، وكلّ كان يعيش على أوهام ولدتها في نفسه الظنون، أو أدخلتها عليه سياسة الحكم والحكّام ، أو زينتها له الدعايات المغرضة ، وساعد على بقائها قلّة الرغبة في الاطّلاع.

كانت الكتب المشحونة بالطعن والتجريح تتداول بين أبناء كلّ فريق، وتلقّى عند كلّ أحسن القبول حتّى ولو تكلّمت عن طوائف وعقائد لا وجود لها على سطح البسيطة ، كما في كتاب »الملل والنحل« الذي يبدو لقارئه في بعض الأحيان كأنّه يتكلّم عن خلق آخرين في الكواكب الأخرى.

وفي الجملة ؛ كان يسود الفريقين جو من الظلام، فلا يرى أحدهما من صورة الآخر إلّا شبحاً تحوطه الظلمة، ولا يتكلّم عنه إلّا بما توحي به الظلمة،

ولا يقرأ عنه إلّا ما تسمح به حلكة الظلام.

فإذا ألّف أحد من أبناء الفريقين كتاباً، فهو لا يعرض إلّا آراء مذهبه ، ولا يدافع إلّا عنها ، ولا يسير إلّا إليها، وإذا طلب الأمر إشارة إلى ما في غير مذهبه، فلا تكون إشارته إلّا طعناً واتهاماً، وإلّا ترديداً لما سمعه أو قرأه أو ورثه عن آبائه!

وبذلك كبّروا الخلافات وضخّموها ، وردّدوا الشكوك وأسفوا فيها ؛ حتّى أصبح كلّ معنى يؤيّد الوحدة يفسّر في ظلّ الشكوك بما يوجب الفرقة.

بل وصل الأمر إلى التشكك في وحدة المصحف، وشكّ كثير من أهل السنّة في أن يكون مصحف الشيعة هو المصحف الذي في أيدي سائر المسلمين ، ومع ذلك لم يكلّف أحدهم نفسه مؤنة التقليب في نسخة من ملايين النسخ التي في متناول يده ، ولو أنّهم فعلوا، لذهب الشكّ وحلت المشكلة، ولكنّهم حكموا على الموجود المحسوس لما ليس فيه اعتماداً على قول مؤلّف مغرض مات قبل قرون!

إنّ هناك قصة تروى لست أدري إن كانت واقعية أم صنعها الخيال:

لقد رووا أنّ قاضياً في إحدى البلاد رأى يوماً نفراً يمسكون بتلابيب رجل ويجرّونه إليه ويقولون: هذا الرجل يكذّب المؤمنين العدول. فقد شهد شاهدان عدلان بوفاته منذ سنين. ثمّ هو يظهر بين ظهرانينا وهو بوجوده هذا يقذف في عدالة الشهود!

فما كان من القاضي «الألمعي» إلّا أن قال: كيف نصدّق أنّك حيّ ، ونكذّب شاهدين عدلين شهدا بموتك من قبل؟! وحكم بعدم وجوده.

سواء أصحّت هذه القصّة أم كانت من صنع الخيال، فإنّها تعبّر عن واقع المسلمين الذين لا يصدّقون عشرات الملايين من المصاحف الموجودة أمامهم، ويحكمون عليها بما قاله مؤلّف انقضى على عصره قرون ، أتراهم ألفو تقديس كلّ ما هو قديم ولو كذّبه الواقع الملموس؟!

فإذا أضفنا إلى ذلك تحكم عنصر الوراثة ، وحرص الأبناء على الأخذ بما وجدوا عليه آباءهم أو سمعوه منهم ؛ تبيّن بوضوح أنّ محاولة التقريب كانت تبدو مستحيلة التحقيق. أجل! ولقد ظلت الفرقة بين المسلمين غذاءً مناسباً للحكم والحكّام قروناً عدّة، دأب فيها كلّ حاكم على استغلالها لتثبيت سلطانه، ولتحطيم عدوه ثمّ جاءت السياسات الأجنبية فوجدت في هذه الفرقة خير وسيلة تدخّلها، وبثّ نفوذها ودعم سلطانها وفرض سيادتها.

والسياسات الأجنبية هي التي أوحت إلى كثير من أعدائنا الذين يتستّر بعضهم وراء اسم «المستشرقين» بالعمل ليكملوا إحكام الحلقة حولنا ببحوثهم التي تقوم على دسّ السموم، وانخدع بهم بسطاؤنا فكان بعضهم يحكم على بعض بما كتبه هذا المستشرق أو ذاك!

وهكذا صدقنا هؤلاء المستشرقين ، كما كنّا نصدّق المؤرّخين الدسّاسين وكتبة الأوهام وواضعي الأحاديث. وسيطرت علينا جاذبية الجديد البرّاق، كما سيطرت علينا هيبة القديم المألوف، فحرمنا أنفسنا حقّ التفكير فيما ذكره هؤلاء وهؤلاء، وأنكرنا على أنفسنا أن يكون لنا تفكير مستقل ندرس به أنفسنا من واقعنا!

وبجانب هذا وقفت السياسات الأجنبية المسيطرة علينا، وقفت بالمرصاد في وجه كلّ فكرة إصلاحية ترمي إلى توحيد كلمة المسلمين.

لقد تقرّر «توقيفية» أسماء الله تعالى، فليس لأحد أن يبتكر من عند نفسه اسماً لله لم يرد عن الله، وتقرّر «توقيفية» العبادات ، فليس لأحد أن يبتدع عبادة لم تشرّع.

أمّا أن يقوم المسلم - وهو الذي فتح الله أمامه أبواب التفكير في السماوات والأرض - بتوقيفية البحث والتفكير ، فهذا ما لم نكن نتصوّره. ولكنّه مع الأسف الشديد كان سيرتنا في التعصّبات الطائفية.

إنّ الأسر التي حكمت باسم الخلافة الإسلامية قروناً طويلة، كانت ترى في آل علي المعارض الوحيد الخطير عليها، فكانت تسيء إلى شيعة آل علي وتستخدم الأقلام والألسنة ضدّهم ، حتّى أوجدوا حول الشيعة كثيراً من الخلط، وكثيراً من التشويش. وكان يمكن لأي مصلح يتصدّى للدفاع عنهم أن يدرأ عن المسلمين شرّ التفرّق، ولكن القوّة التي بيد الخلفاء ومقاومة بعض الحكام من الجانب الآخر كلاهما سخّر الأقلام والضمائر ضد كلّ محاولة من هذا القبيل، وقضى عليها.

نعم، هناك محاولات وقعت فيما مضى، إلّا أنّها كانت فردية من جهة، ولم تكن على أساس مدروس من جهة أخرى، وكانت تارة سياسية ترمي إلى وحدة الحكم، وتارة غير عملية كمحاولة توحّد المذاهب سنيها وشيعيها، وبجانب هذا لم يكن الرأي العام يدرك حينئذ ما في التفرّق أضرار.

من أجل ذلك كلّه ، لم تنجح واحدة من تلك المحاولات المشكورة، وإن تركت آثاراً في نفوس قلّة من المفكّرين.

وبعد هذا ساق الله الظروف المواتية لإيقاظ المسلمين، وهيّأ الأسباب التي تعين على ذلك في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

فإنّ الدول القوية التي كانت تهيمن على مقدّراتنا، وترسم لنا سياستنا منذ أمد طويل - هذه الدول خرجت من الحرب منهكّة القوى مخضودة الشوكة سواء في ذلك الدول الغالبة والمغلوبة.

وقبل أن تستردّ الدول الغالبة أنفاسها بدأت بينها حرب ثالثة غير أنّها كانت حرباً باردة.

فجعل بعضهم يضرب بعضاً، وجعل كلّ منهم يخلق المشكلات للآخرين، حتّى سقطت هيبتهم جميعاً، وبذلك سقطت هيبة الدول التي كنّا نؤخذ بها ونسحر بقوّتها، وانهارت كبرياؤها وشغلت عن تجديد مساعيها للتفرقة بيننا، بمشاكلها التي أصبحت تهدّد كيانها، وبذلك ضعفت قبضتها علينا!

وهناك جانب آخر من الواقع في هذه الحرب وما ترتّب عليها من آثار:

ذلك أنّها أوجدت في الشعوب الإسلامية لونا من الاعتزاز بالنفس والاعتزاز بالمبادئ الإسلامية، فقد رأوا بأعينهم ما جرته المدنية الحديثة على صنّاعها من ويلات وبلايا ومن فتك ذريع ومن جرائم وحشية اقترفها أساتذة المدنية الحديثة ضدّ الإنسانية، حبّا في السيطرة.

وأدركوا بيقين أنّ المدنية والمذاهب الاجتماعية التي كان يتيه بها أصحابها في الشرق أو الغرب والمثل التي يتشدّق بها هؤلاء وهؤلاء، لم تستطع أن تكبح من ضراوتهم ، أو تحدّ من وحشيتهم وأنّ الأسلحة الفتّاكة التي طالما هدّدونا بها استخدمت في القضاء عليهم.

لقد كان هذا كلّه بمثابة ضجّة أيقظت المسلمين من سباتهم ، ودفعتهم إلى الاهتمام بما عندهم من مبادئ إنسانية، ومن مثل عليا خدعهم عنها العدو

الطامع فيهم بأباطيله حيناً من الدهر، وهكذا كان التنافس بين الدولة الغالبة المضعضعة، وشعور الاعتزاز عند المسلمين كلاهما من الأسباب المهيّئة لظهور فكرة إصلاحية جديدة.

وفي هذا الوقت الذي أرهفت فيه مشاعر المسلمين وقعت حادثة هزّت عواطفهم هزّة عنيفة، مع أنّها لو وقعت في غير وقت الحسّاسية لمرّت عادية ولم تترك أثراً، والحوادث العادية إن وقعت في زمن الحساسية فغالباً ما تصنع المعجزات!

وقعت الحادثة في الحرم الآمن وفي الشهر الحرام وفي أيام الحجّ بالذات وراح ضحيتها شاب مسلم قصد إلى الحجّ، وقطع أكثر مراحل سفره سائراً على قدميه حتّى وصل البيت الحرام، وهناك أصابه مرض، فغلبه القيء فتلقّاه في حجره حرصاً على طهارة البيت، ولكن حظّه السيئ خيل لبعض الطائفين أنّه يحمل ما يحمل يريد به تلويث البيت فصاح بذلك في الناس، وليس من عادة الجماهير أن تتثبت إذا هيّجها مهيّج، فشهدوا عليه بما كان منه بريئاً، وقتلوه مظلوماً، وهو في رحاب الحرم الشريف الآمن!

وإنّما كان مبعث ذلك سوء ظن طائفة بطائفة، وكان يمكن أن تؤدّي هذه الحادثة إلى أسوأ النتائج، وأن تثير الأحقاد، وأن تهيج العصبيات القديمة، وأن تقطع الصلات بين فريقي المسلمين، ولكن هذه الحادثة أثّرت في كثير من المفكّرين تأثيراً كان له عاقبة محمودة، ووضعت الأصبع على موضع الداء، فكأنّما أراد الله أن تكون موجهة للمصلحين إلى الاهتمام بهذا الداء الوبيل داء التفرّق الطائفي بالذات.

ولا عجب أن تكون هذه الواقعة مع ما اكتنفها من خطورة مفزعة حافزاً

على التفكير، وعلى العمل فكثيراً ما يأتي الشرّ بالخير لقد بدأوا بسؤال أنفسهم: كيف تعيش أمّة موزّعة على نفسها في دنيا الأقوياء؟ كيف يمكن أن تقدّم المبادئ الإسلامية إلى العالم والإسلام في حرب بين أبنائه داخل بلادهم؟ وكيف يتمكّن الذي تسوء حالته الداخلية من إصلاح مركزه الخارجي؟

هكذا بدأنا التفكير في التقريب، ثمّ سلخنا بعد ذلك شهوراً نبحث في سبل العلاج فدرسنا الدعوات التي سبقتنا وأفدنا منها كثيراً، ودرسنا المشاكل الطائفية برمّتها، والكتب المعتمدة عند كلّ فريق لتحدّد الطوائف التي تتفق في الأصول الإسلامية، ودرسنا الخلافات الفرعية والفقهية ومبلغ ما وصلنا إليه. ثمّ حدّدنا أنجح طريقة للوصول بفكرتنا إلى الأعماق.

وقد أدّى بنا إلى أن هذه الدعوة يجب أن تقوم بها جماعة بدل أن يقوم بها فرد يتعرّض لكثير من الأخطار، وأن تكون الدعوة إلى التقريب بين أرباب المذاهب لا إلى جمع المسلمين على مذهب واحد، فيبقى الشيعي شيعياً والسني سنياً، وأن يسود بين الجميع مبدأ احترام الرأي الذي يؤيده الدليل، وأن تكون الجماعة ممثّلة للمذاهب الأربعة المعروفة عند أهل السنّة، ومذهبي الشيعة الإمامية والزيدية. وأن يمثّل كلّ مذهب علماء من ذوي الرأي والمكانة فيه، وأن تكون الجماعة بمعزل عن السياسة، وأن تكون محددة الأهداف، وأن يكون سعيها على أساس البحث والعلم كي تثبت أمام المعارضة، وتكسب الأنصار عن سبيل الإقناع والاقتناع، ولكي تستطيع بسلاح العلم محاربة الأفكار الخرافية الطفيلية التي لا تعيش إلّا في ظلّ الأسرار والأجواء المظلمة. ولكي تتمكّن في الوقت نفسه من مقاومة الطوائف والنحل التي ليست من الإسلام في شيء والتي يحسبها الشيعي سنّية، والسنّي شيعية، بينما هي في حقيقتها حرب على الإسلام.

وهكذا تكوّنت «جماعة» التقريب معتمدة على الله وعكفت على البحث الدائب والعمل المستمر، والاتصال بالمراكز الدينية في كلّ بلد إسلامي اتصالاً هادئاً مثمراً، وابتعدت بنفسها عن الدعاية ، ولكن الدعاية جاءتها من قبل المعارضين . فإنّ المتعصّبين والمتزمتين وذوي النزعات والأغراض ؛ رأوا في نشاط الجماعة بدعة لا يصحّ السكوت عليها ؛ فبدأوا هجومهم على الفكرة وعلى الجماعة، وأشتدّ هجومهم على الأيام، وليس بيننا من لم يأخذ نصيبه من هجومهم كاملاً غير منقوص.

لكن الجماعة هيأت نفسها لهذا من أوّل الأمر ؛ لأنّها تعلم أنّها تواجه رواسب قرون، وكانت تتوقّع حملات فيها الطعن والتجريح، وبدل أن تضعف الهجمات العزائم شحذت الهمم وقوت الجماعة على السير بالفكرة إلى النهاية.

وكانت هذه الهجمات نفسها دليلاً على ضرورة فكرة التقريب للمجتمع الإسلامي كي يتخلّص من العناصر البغيضة ذات التفكير السقيم الذي يبلبل الخواطر، ويصرف الأذهان عما ينفع الناس ، ويمكث في الأرض.

أذكر أنّ أحد هؤلاء المتعصّبين ملأ كتاباً بالطعن على الشيعة والهجوم على جماعة التقريب لقيامهم بهذه الفعلة النكراء فعلة التقريب بين السنّة والشيعة!

وفي الوقت نفسه وصلنا كتاب عن الطرف الآخر من تلك الكتب المؤلّفة في عهد الصفوية مليء بالهجوم على أهل السنّة، وكلا الكتابين التقى مع الآخر في الهجوم على الجماعة، فماذا تظن كان موقف الجماعة؟

إنّهم قرؤوا بهدوء تلك المهاجمات العنيفة، ولكنّهم لم يتأثّروا، ولم

يكفّوا عن الجهاد، كما كان المؤلّفان المتجنيان المتعصّبان - سامحهما الله - يأملان، بل إنّهم أجمعوا على أنّ الحاجة ملحّة إلى بذل نشاط أكبر ما دام في العالم الإسلامي هذا النوع من الأشخاص، وهذا اللون من التفكير، وهذا الإضرار على محاولة التفرقة.

ولم يقف الأمر عند هذين الكتابين بل جاء من مثلهما الكثير، وكثر كذلك الكلام هنا وهناك، وكلّ هذا في جملته كان يحفّز الجماعة إلى أن تسعى لتحقيق ما حسبه البعض مستحيلاً.

لقد كان أكثر الناس يسمّي هذا النشاط «محاولة» هيهات أن تؤدّي إلى نتيجة، وكان منهم من يرى هذه «المحاولة» مستحيلة، وكان فريق آخر يظنّها «سياسة» على المألوف من الذين تعوّدوا إلّا تنبع أفكارهم من ذوات نفوسهم، مع وضوح أنّه لا يمكن أن يكون لسياسة أجنبية ما رغبة في تجمّع على أساس وحدة المبادئ الدينية لثقتها بأنّ ذلك هو عين القضاء عليها.

كلّ هذا كان دعاية نافعة لجماعة التقريب، لفتت إليها الأنظار، وجعلت كثيراً من الناس يدرسون فيعرفون فيصبحون جنوداً، فكثر بذلك أنصارها، وضمّ كثير من المفكّرين وعلماء الدين في مختلف البلاد جهودهم إلى جهودها، فأصبحت هذا الجماعة التي تكوّنت في القاهرة مركزاً فكرياً علمياً أعضاؤه من أولي العلم وأصحاب التوجيه والرأي في العالم الإسلامي كلّه وضاقت الأرض على الأقلام المفرّقة ونبّاشي القبور الذين لا همّ لهم إلّا تحريك الماضي المتعفّن وإثارة العواطف البغيضة!

إنّ تكوين الجماعة نفسه كان توفيقاً، لأنّهم هيئوا للمسلمين مركزاً يصلح للنظر في مشكلاتهم ويلتقي فيه رجال الإسلام من كلتا الطائفتين، ويظلّه

الهدوء وتقدير المصلحة، ويسوده الوفاق لا الخصام.

وكأن المسلمين بمشاكلهم الطائفية كانوا في ظلام لا يرى بعضهم من بعض إلّا أشباحاً مخيفة، وكأنّ الجماعة أضاءت لهم، لترى كلّ طائفة أختها على حقيقتها لا على وحي الظلام، ولقد كان للسان الجماعة: مجلة «رسالة الإسلام»، دور عظيم، إذ جعلت توصل الفكرة إلى مكتبات العلماء ورجال الفكر، وكان كلّ عدد منها يزيل الستار عن جزء من المحجوب، ويكسب عدداً أكبر لجانب التقريب، وتبيّن بوضوح أنّ المسلمين لا يختلفون في كتابهم ولا في صلواتهم ولا في صومهم ولا في حجّهم بالإضافة إلى اتفاقهم المطلق في أصول العقائد وأصول الدين والتوحيد والنبوّة، وليس يضيرهم أن يكون لبعضهم أصول مذهبية خاصّة كالولاية عند الشيعة الذين يرون أنّ علياً وأولاده أحقّ بها من غيرهم.

لقد قرأ السنّي عن الشيعة أبحاثهم واستنباطهم وأعجب بالكثير منها، وقرأ الشيعي عن السنّة أنّ أهل البيت مجمع بينهم على حبّهم وإكرامهم وإنّ ما صدر عن بعض الظالمين لا يمثّل رأي السنّة في أهل البيت.

وعرف أهل السنّة أنّ الشيعة يعتبرون الغلاة نجساً ويحكمون بكفرهم، ويحكمون بخروج أصحاب الحلول كذلك.

وإذن فشتان بين الشيعة على حقيقتها، والشيعة التي تصوّرها المتصوّرون. وشتان بين الناصبي الذي كان يناصب أهل البيت العداء، وأهل السنّة الذين يرون في حبّ أهل البيت عبادة ويصلّون عليهم في تشهدهم «اللّهم صل على محمّد وآل محمّد ... وبارك على محمّد وآل محمّد».

ولم تكن سنّة التدرج تفارق الفكرة، إلى أن جاء دور جعل الجامعات الدينية إسلامية عامة، وهو نصّ في القانون الأساسي للجماعة منذ نشأتها ، فالمادّة الثالثة (هـ) تذكر من بين أغراضها: «العمل على أن تقوم الجامعات الإسلامية في جميع الأقطار بتدريس فقه المذاهب الإسلامية حتّى تصبح جامعات إسلامية عامة».

فلمّا تهيّأت الأفكار بعد أن قامت الدار بطبع بعض الكتب الفقهية على نفقة وزارة الأوقاف المصرية وتوزيعها، جاءت الخطوة الحاسمة بعد ذلك: خطوة تقرير دراسة فقه المذاهب الإسلامية الشيعية مع السنيّة في أقدم جامعة إسلامية وهي الأزهر الشريف.

ولم تكن الفكرة ارتجالية ، بل كانت مبدأ نادت به الجماعة منذ نشأتها ، فلمّا قدر لرجل مصلح من رجالها المجاهدين - له مركزه الديني الكبير - أن يجلس على كرسي مشيخة الأزهر كان من الطبيعي أن ينفذ ما عاهد الله عليه لخير الإسلام وصالح المسلمين.

ولقد زلزل هذا القرار كثيراً من الانتهازيين وقضى على آمال كثير من المتربصين، ولكن التاريخ لا يخدع، وقد سجّل هذه الخطوة كحديث هام في تاريخ الإسلام والمسلمين، لم يكن سجّل مثله منذ بدأ الخلاف بين الطائفتين إلى اليوم.

❖❖❖

فنحمد الله على أنّ المسلمين أثبتوا أنّهم جديرون بإصلاح شؤونهم، قادرون على علاج مشاكلهم. فإنّ نجاح الفكرة كفكرة التقريب رغم المعارضة التي قامت في وجهها والعراقيل التي وضعت في طريقها، في زمن

لم يتجاوز ثلاثة عشر عاماً تجعلنا نأمل خيراً كثيراً في مستقبل الزمن.

ولا نحبّ أن ننسى أنّ أمامنا فريقين من المعارضين فريقاً له إيمانه بفكرته، وله عذره من بيئته أو ثقافته أو غيرته، وهؤلاء لنا فيهم أمل ورجاء ؛ لأنّ المخلص لابدّ أن ينتهي به إخلاصه إلى معرفة الحقّ والرجوع إليه يوماً ما، أمّا الفريق الآخر ففريق كان أمثالهم يقولون في عهد نزول القرآن لرسول الله ﷺ ﴿**قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ**﴾[1]، وهؤلاء لا شأن لنا بهم ، ولعلّهم لا يعيشون إلّا بالفرقة، أو يحسّون لها لذّة لا يحبّون أن يفقدوها.

وإنّي لعلى يقين من أنّ هذه الفكرة ستكون نقطة الانطلاق لكثير من الأفكار الإصلاحية، ولا يزال أمامنا خطوات جديدة تحتاج إلى تعضيد فكري كبير لنقدّم للإسلام كلّ ما أخذناه على عاتقنا في القانون الأساسي.

أكتب هذا ولا تزال في خاطري صورة أوّل اجتماع بدار التقريب - ولعلّه أيضاً أوّل اجتماع من نوعه في الإسلام - جلس فيه علماء من السنّة والشيعة حول مائدة واحدة، في هدوء العلماء المتضلّعين وفي وجوههم تصميم المجاهدين وقلّبوا وجوه الرأي لعلاج داء التفرق، على هدى رسالة الإسلام والمبادئ الإسلامية، فكتبوا بعملهم هذا فصلاً من فصول التاريخ الإسلامي المجيد.

---

(١) فصلت (٤١): ٥.

وهكذا قدّر الله لهم أن يكونوا من صانعي التاريخ، وقدّر للمسلمين مرّة أخرى أن يعيشوا في نشوة النداء الإلهي الكريم: ﴿**وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾[1].

(١) آل عمران (٣): ١٠٣.

الشيعة والوحدة الإسلامية[1]

السيّد محمّد حسين

للحديث عن «الوحدة الإسلامية» في حياة العاملين للإسلام طعم الحلم الكبير وذلك بالنظر إلى المشاكل الكثيرة التي يعاني منها المسلمون، من خلال حالة التمزّق التي يعيشونها، فيما يختلفون فيه من مذاهب، وفيما ينقسمون إليه من طوائف وفيما يمارسونه من خصومات ومشاحنات. ممّا أدّى إلى المزيد من الضعف السياسي والاجتماعي والعسكري والاقتصادي... وإلى الشعور بانقسام الشخصية، إلى شخصيات متعدّدة، يتقوقع فيها كلّ واحد منها داخل الإطار الذي عاشت فيه كلّ واحدة منها ممّا يجعل التفكير لا يمتدّ إلى أبعد من الحالة الطائفية، بعيداً عن الشخصية الإسلامية المنفتحة.

وقد استطاع هذا الواقع أن يبعد الإسلام عن حركة الحياة، وأن يخضع المسلمين لقوى الاستعمار والاستكبار التي اشتملت نقطة الضعف هذه فحوّلت البلاد الإسلامية إلى ما يشبه قطع الشطرنج التي تلعب بها كما تشاء وتحرّكها كما تريد. وسيطرت على كلّ مقدّرات المسلمين، وأبعدت حركة الحكم والتشريع في حياتهم عن الأسس الإسلامية في قواعد الحكم والشريعة، وجعلتهم يعيشون إسلامهم ضمن دوائر تاريخية وعملية ضيّقة يختزنون في داخلها كلّ ما يملكون من حسّاسيات وأحقاد وسلبيّات، وتهيّئ

---

(١) نقلاً عن كتاب أحاديث في الوحدة الإسلامية لمحمّد حسين فضل الله.

لهم - في كلّ مرحلة من مراحل نموهم - عوامل التفتيت والضعف والتقسيم، وتقودهم إلى حروب طائفية لا يملكون معها إلّا أدوات التدمير والتقتيل لبعضهم البعض.

وهذا هو الذي دفع الواعين من الأُمّة إلى طرح شعار «الوحدة الإسلامية» كهدف إسلامي كبير يعملون له بأساليب متنوّعة، ويثيرون - من خلاله - أمام الوحدة المشاكل الصعبة التي تؤدّي إلى الانقسام في حياتهم العامة والخاصة، في مقابل النتائج الإيجابية التي يحصلون عليها من خلال الاتحاد أو التعاون أو الوحدة.

وقد اختلفت الأطروحات حول الوحدة، فهناك الأطروحة المثالية التي تواجه المشكلة بالروح الغيبية الضبابية، التي تحاول إبعاد المشاكل الحيّة عن تفكير الأُمّة، بالإيحاء بأنّه لا خلافات صعبة بين المسلمين، وأنّ علينا تناسي القضايا الهامشية، والوقوف صفّاً واحداً كالبنيان المرصوص في مواجهة الأعداء. وهكذا يغرق الإنسان المسلم فيما يشبه الأحلام، في أجواء عاطفية، فيستسلم لهذا الخدر اللذيذ، ثمّ يرجع إلى الواقع في داخل حياته اليومية، فيجد أمامه أكثر من مشكلة حادّة، وأكثر من خلاف متحرّك في عمق ممارسته وعلاقاته.

وهناك الأطروحة الواقعية التي تؤكّد على مواطن اللقاء، كما تؤكّد على مواطن الخلاف، ولكنّها لا تضع مواطن الخلاف في الجانب الذاتي الشعوري للأُمّة، بل تضعها في الجانب الفكري من نشاطها وتوحي، في هذا الاتّجاه، بأنّ مثل هذه الخلافات ليست مقصورة على الفئات الكبيرة من المسلمين فيما بينها بل هي موجودة في داخل كلّ طائفة أو مذهب. في أكثر من جانب فقهي أو

كلامي. ثمّ تثير أمام المسلمين قواعد الحوار القرآني الذي يريد للأُمّة أن تناقش قضاياها في الداخل وفي الخارج من موقع التفكير الموضوعي الهادئ الهادف إلى معرفة الحقيقة من أقرب طريق بالحجّة والبرهان الواضح، وتقودهم إلى الأسلوب الأخلاقي في الصراع الذي لا يستخدم كلمات السباب والشتائم في حركة الخلاف، بل يتحرّك من موقع الجدال بالتي هي أحسن، واختيار النكتة الأحسن والأسلوب الأحسن الذي يدفع بالأعداء إلى أن يتحوّلوا إلى أصدقاء، ويوحي لهم بالروحية التي يحملون فيها هم المسلمين في أعماق مشاعرهم ليتوجّهوا إلى الله أن يساعدهم على جمع الكلمة، ولم الشعثّ، وحقن الدماء.

❖❖❖

وقد عاشت تجارب الوحدة ، في أكثر من أسلوب. في التجارب الثقافية التي عملت على التأكيد على الآفاق الوحدوية في الثقافة الإسلامية.

كما عملت على ارجاع الخلافات إلى أسس فكرية من المصادر الإسلامية كالكتاب والسنّة وأمثالها، في أسلوب إيجابي بالطابع الاجتهادي العلمي لهذا الخلاف، وفي التجارب الاجتماعية والسياسية، في اللقاء على أكثر من أرض إسلامية واحدة فيما يعيشه المسلمون من قضايا اجتماعية وسياسية مشتركة.

وقد اصطدمت هذه التجارب بأكثر من عقبة ، فيما واجهته من مشاكل الرواسب التاريخية، والعقد النفسية، والأوضاع الاستعمارية التي تثير السلبيات، وتعقد الأوضاع، وتخلق الأزمات على أكثر من صعيد. وما تزال القضية تتفاعل لتضع في كلّ يوم عقبة جديدة ومشكلة جديدة.

❖❖❖

والآن. ماذا عن الشيعة والوحدة.

إنّنا نريد أن نناقش الموضوع من ناحيتين:

الناحية الأولى: نظرة الشيعة إلى الوحدة.

الناحية الثانية: نظرة المسلمين من غير الشيعة إلى الوحدة مع الشيعة.

أمّا من الناحية الأولى: فإنّ هناك اتّجاهين في نظرة الشيعة إلى الوحدة:

الاتّجاه الأوّل: الذي يرى أنّ مشروع الوحدة يعمل على تذويب الشيعة في المحيط الإسلامي العام ويؤدّي إلى فقدان الركائز الأساسية لفكرة التشيع. وهي الإمامة وما يتبعها من قضايا فكرية وفرعية. فيتحوّل الشيعة، بفعل ذلك. إلى سنّة. وبذلك لن تكون عملية الوحدة، إلّا أسلوباً من أساليب احتواء فئة من المسلمين لفئة أخرى. وليست عملية جمع للمسلمين على أساس الحقّ. ويضيف هؤلاء: إنّنا قد نوافق على عملية التذويب والاندماج لو كانت القضية قضية هامشية طارئة، يمكن للإنسان أن يتجاوزها كما يتجاوز الكثير من القضايا الحياتية الطارئة للمحافظة على المصلحة العامة، ولكن القضية تمثّل، في وعينا الفكري، قضية التزامنا الإسلامي بخط الحق في العقيدة والتشريع ؛ لأنّ مسألة الإمامة ليست مسألة شخص أو أشخاص، أو موقف سياسي معين، بل هي مسألة القاعدة الشرعية التي انطلقت القناعة فيها من الدليل والبرهان، فلا يمكن للإنسان أن يتنازل عنها، انطلاقاً من تسوية خاضعة لأوضاع معيّنة.

وهكذا كانت نظرة هذا الاتّجاه إلى مسألة الوحدة، نظرة سلبية تحمل الكثير من الحذر والخوف والشكّ والارتياب.

الاتّجاه الثاني: الذي يرى أنّ مسألة الوحدة ليست مسألة إدخال الشيعة في محيط السنّة، أو بالعكس في عملية اندماج وتذويب للشخصية الفكرية الخاصّة التي يحملها كلّ واحد منهما، بطريقة عاطفية، بل هي مسألة روحية نفسية في البداية كما هي مسألة فكرية عملية في النهاية ؛ لأنّ قاعدة التفكير الوحدوي ترتكز على أساس الإيحاء للمسلمين بالروحية الإسلامية التي ينبغي أن تطبع شخصيتهم فيما تمثّله الشهادتان من عقيدة والتزام وحركة في حياتهم العامّة والخاصّة مهما اختلفت نظرتهم إلى التفاصيل، الأمر الذي يثير فيهم مشاعر الوحدة، ويحلق بهم في آفاقها، ويوحي لهم بمسؤولياتها ؛ لتكون هذه الروحية سبيلاً من سبل اللقاء الذي يساعد على التفاهم والتحاور والتعاون، فيمكن للشيعي أن يقنع السنّي بطريقته في فهم الإسلام، وفي ممارسته، كما يمكن للسنّي أن يقنع الشيعي بطريقته وبممارسته، ويمكن لهما أن يكتشفا، من خلال اللقاء الفكري، سبيلاً آخر.

ويضيف أصحاب هذا الاتّجاه قائلين: إنّ النتائج الإيجابية التي يحصل عليها المسلمون الشيعة في مسألة الوحدة لا تقاس بالنتائج السلبية التي يعيشونها في مسألة الفرقة والخلاف الفكري والعملي الذي يتحرّك من موقع العقدة الذاتية لا من موقع المصلحة العامة.

ويرون أنّ حركة أيّ صاحب فكر في المحيط العام الذي ينظر إليه بروحية منفتحة إيجابية قد تستطيع أن تحقّق لفكرها الكثير الكثير من المواقع المتقدّمة من خلال ما تملكه من حرّية الجو، ومن طبيعة الانفتاح. مما لا تستطيع أن تحقّقه في إطار الحدود الفاصلة التي تفصل بين هذا الفريق أو ذاك، لتوحي لكلّ منهما بالحاجة إلى الاستعداد المسبق لتحصيل المناعة ضدّ إمكانات التأثّر بالفريق الآخر، وبالتالي لإيجاد حاجز نفسي ضدّ أيّ شيء يثيره

الفريق الآخر، من أفكار وأطروحات، وحلول. مما يجعل من الحالة النفسية لكلّ منهما، هي كيف يمكن أن يسجّل نقطة ضدّ الأفكار التي يثيرها، لا كيف يناقشها وينظر في طبيعتها الفكرية من حيث الخطأ والصواب.

وينتهي أصحاب هذا الاتّجاه إلى الفكرة التي تقول: إنّنا كشيعة، يمكننا إقناع المسلمين الآخرين بصحّة أطروحتنا الفكرية في فهم الإسلام، فيما نعتقد أنّه الحق، من خلال ما نملك من أدلّة وبراهين. وذلك في نطاق الوحدة، أكثر مما نستطيع ذلك في ظلّ الوضع الطائفي الحاقد المألوف.

أما في الناحية الثانية: وهي نظرة المسلمين غير الشيعة إلى الوحدة مع الشيعة فهناك ثلاثة اتّجاهات:

الأوّل: الذي ينظر إلى الشيعة، بأنّهم خارجون عن الإسلام فيما ينسبه إليهم أصحاب هذا الاتّجاه من عقائد في الغلو والشرك وتحريف القرآن أو إيمانهم بقرآن آخر غير هذا القرآن. وما إلى ذلك من مفاهيم لا تلتقي مع الأسس العقيدية التي ركّز الإسلام عليها فكره وشريعته. وبذلك لا معنى لطرح قضية الوحدة معهم، التي يجب أن تطرح مع المسلمين لا مع المنحرفين عن خطّ الإسلام كما أنّ إقحامهم في داخل المجتمع الإسلامي، يمثّل لوناً من ألوان الخطر على صفاء العقيدة الإسلامية وعلى سلامة المجتمع الإسلامي. وذلك من خلال ما يثيرونه من شبهات وأضاليل ومؤامرات على الإسلام والمسلمين.

وهذا الاتّجاه يتمثّل في الأغلب، في الطريقة السلفية الوهابية. وقد عملت هذه الطريقة على تعميق الهوّة بين السنّة والشيعة بمختلف الأساليب الإعلامية، والضغوط المادّية والمعنوية، وحاولت أن تستغلّ الإمكانات المادية والرسمية

في تشويه صورة الشيعة لدى المسلمين وغير المسلمين. حتّى رأينا القائمين عليها يتسامحون مع الاتّجاهات الكافرة بما لا يتسامحون فيه مع الشيعة ؛ لأنّهم يرون أنّ الكفر المقنع الذي يمثّله الشيعة هو أكثر خطورة من الكفر الصريح الذي يمثّله الكافرون الصريحون، وقد انطلقوا - في سائر أنحاء العالم - يعملون على عزل شباب المسلمين السنّة، بما فيها العاملون في خط الإسلام الحركي، عن شباب المسلمين الشيعة لمنع أيّ تعاون فكري أو سياسي أو اجتماعي فيما بينهم. مهما بلغت التحدّيات العملية ضدّ الإسلام والمسلمين وقد تداخلت، لدى هؤلاء الخلفيات المذهبية بالخلفيات السياسية، فيما يخافونه على مراكز نفوذهم في المجالات التي يملكون فيها أسباب السلطة والسلطان.

ولعلّ مشكلة هذا الاتّجاه، أنّ أصحابه يرفضون الحوار حول القضايا المختلفة التي يعتقدون انطلاق المذهب الشيعي منها، لتصحيح نظرتهم في طبيعة هذه القضايا من جهة، مما قد تكون النسبة فيه إليهم غير صحيحة في صوابها أو خطئها من جهة أخرى.

الاتّجاه الثاني: الذي لا يرى في الشيعة هذا الرأي، بل يرى أنّهم مسلمون فيما يرتكز عليه الإسلام من عقيدة وشريعة، وإنّ الخلافات بينهم وبين السنّة، كالخلافات بين السنّة أنفسهم في بعض تفاصيل العقيدة والشريعة، فهم مسلمون مخطئون في بعض ما يعتقدون فحالهم حال أي مسلم مخطئ في اجتهاده، فإنّ الخطأ لا يخرجه عن إسلامه، بل يكون مسلماً خاطئاً مأجوراً.

ولكن أصحاب هذا الرأي لا يرون مصلحة في الوحدة مع الشيعة ؛ لأنّ هذه الأفكار الخاطئة قد تنفذ من خلال مجتمع الوحدة إلى ذهنية المسلمين

من أهل السنّة، فتسيء إلى الأفكار السليمة الصحيحة الصافية ، كما أنّ طبيعة الأوضاع الشيعية، فيما تمثّله من خلفيات سياسية معينة، قد تسيء إلى مستقبل الأمّة.

وربما يلتقي هذا الفريق مع فريق الاتّجاه الأوّل في أساليب العمل ضدّ قضية الوحدة. ولكنّهم يمارسون أساليب المجاملة، فيما تقتضيه اللياقات الاجتماعية، أو المصالح السياسية عندما يطرحون قضية الوحدة تماماً، كما يمارسها الاتّجاه الشيعي الذي يقف موقفاً سلبياً من الوحدة. عندما يطرح الوحدة كشعار في الحالات الطارئة، ولكن بحذر شديد وبدون إخلاص أو إيمان بذلك.

ولعلّ الواقع الذي يعيشه جمهور المسلمين من أهل السنّة يعيش عمق هذا الاتّجاه ولكن بدرجات متفاوتة.

الاتجاه الثالث: الذي ينطلق في حركته الإسلامية من موقع الإيمان بوحدة المسلمين الواقعية ، فيما يلتقي عليه المسلمون من عقائد ومفاهيم وشريعة. وبأنّ الخلافات فيما يختلفون فيه ، لا تضرّ بهذه الوحدة، كما لم تضرّ خلافات المذاهب بين بعضها، في وحدتهم الإسلامية، وعلى هذا الأساس كانوا يرون في الوحدة أمراً واقعياً في عمق الشخصية الإسلامية، ولابدّ لنا من تحويله إلى خطوة عملية في حركة الإسلام في الحياة، وحالة شعورية في داخل وجدان المسلم، ويرون أنّ دخول أيّ فريق في المجتمع الإسلامي لا يمثّل خطراً على ما يعتقد الفريق الآخر أنّه الحقّ، ما دامت القضايا المتنازع عليها تعيش في داخل الأجواء التي تثيرها القضايا المتفق عليها، وما دام المنطق الفكري القائم على الحجّة والبرهان هو الذي يحكم الحوار في

الساحة، ممّا يجعل الموقف في مصلحة الفريق الذي يملك الحجّة الأقوى، والمنطق الأفضل، وليست هناك أيّة مشكلة لأيّ فريق فيما يخسره من أفكار قد يثبت له أنّها خاطئة من خلال الحوار، ما دامت الروحية الجديدة التي تحكم مساره هي روحية الإسلام الصافي الصحيح بعيداً عن أي إطار آخر.

ويتمثّل هذا الاتّجاه في الحركات الإسلامية الواعية غير الخاضعة لعقلية الأنظمة المرتبطة بالاستعمار وفي الشخصيات الفكرية المسلمة التي تعيش مسؤولية الإسلام من خلال الآفاق الرحبة الواسعة لا من خلال الآفاق الضيقة الحانقة وقد ساهم أصحاب هذا الاتّجاه في خلق جو وحدوي عام، وفي صنع مجتمعات متنوعة هنا وهناك تعيش روحية الوحدة بانفتاح وإيمان، وذلك من خلال اللقاء بالاتّجاه الثاني الموجود في مجتمع المسلمين الشيعة، الذي يرى في الوحدة عنصراً إيجابياً في حركة الإسلام العامة كهدف كبير لابدّ للمسلمين أن يجتمعوا حوله من أجل تحويله إلى حركة واقعية حية . بالأساليب العملية المرنة الحكيمة التي تعمل على الوصول إلى الهدف بالطريقة المرحلية المرتكزة على التخطيط الدقيق في حركة المراحل نحو الهدف.

ولا يزال الصراع حول الوحدة قائماً بين أصحاب هذه الاتّجاهات المختلفة في نطاق الشيعة والسنّة. وما تزال الساحة تمتلئ في كلّ يوم بالجديد الجديد من النتائج السلبية والإيجابية في هذا الخطر أو ذاك، مما يعتبره كلّ اتّجاه منها دليلاً له، أو عليه ، وما يزال المستقبل الإسلامي ينتظر النتائج النهائية لهذا الصراع، ليلتقي بالوحدة الإسلامية كنتيجة إيجابية للوعي الإسلامي الجديد.

والآن. ومن جديد. نطرح السؤال:

ماذا عن الشيعة. والوحدة؟

إنّنا نتبنى اتّجاه السير في حركة الوحدة الإسلامية، ونرى أنّه السبيل الأمثل لانطلاقة الإسلام في العالم. الأمر الذي يمثّل النهج الشرعي للسير العملي للإنسان المسلم فيما يرضي الله، وفيما يقرب إليه. كما يمثّل النهج الواقعي لاستعادة سيطرة الإسلام على الحياة، وتحقيق العزّة والكرامة للمسلمين، في جميع مجالاتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وذلك على أساس عدة نقاط:

١- إنّ مشروع الوحدة الإسلامية، ليس مشروعاً استعراضياً عاطفياً، يرمي إلى إلغاء المواقف الفكرية بحركة انفعالية سريعة، بل هو مشروع يرمي إلى إعطاء عقلية موضوعية هادئة تناقش المواقف الفكرية بهدوء واتزان ومسؤولية، لتكون الساحة للأفضل والأقرب إلى الحقيقة الإسلامية من قاعدة الحجّة والدليل. وبذلك فإنّها تلغي الخوف من الاحتواء من خلال تأمين الضمانات العلمية للوصول إلى ذلك الهدف.

٢- إنّ الانطلاق من صفة الإسلام في أيّ تحرّك فكري أو عملي، هو الذي يحقّق لأيّ فريق إسلامي القدرة النفسية على مواجهة أيّة قضية فكرية أو شرعية، بجدية الاهتمام، وبسعة الأفق، ورحابة الصدر، والبعد عن التشنج وإثارة الحساسيات الذاتية ؛ لأنّ القضية عنده - في مجملها - هي ماذا يقول الله ورسوله، وما يقوله الإسلام من خلال ذلك، بعيداً عن كلّ مألوف أو موروث، فإمّا أن تكون القضية ثابتة بالطرق الصحيحة الاجتهادية فتقبل، وإمّا أن تكون غير ثابتة فترفض. وهذا هو الذي يوحي بتغلّب الصفة العامّة على

الصفة الخاصة، أو تأكيد الصفة الخاصة بمقدار انسجامها مع أجواء الصفة العامة.

٣- أن تتحول صيغة الأبحاث الفكرية القائمة على مناقشة الأفكار الإسلامية المختلفة، من صيغة تتخذ صفة الهجوم والدفاع التي تثير - في داخلها، ومن حولها - أجواء الحماس والانفعال، عند تسجيل نقطة هنا، ونقطة هناك، إلى صيغة تأخذ شكل البحث والتحليل الدقيق للقضايا المطروحة في البحث ؛ لأنّ هذه الصيغة توحي بانطلاق البحث من مصادره الأصلية بطريقة هادئة موضوعية، تلتقي بالفكرة، أمام احتمالين يتحرّكان في نطاق وجهتي نظر متنوعة، وبذلك يمكن الوقوف معهما، أمام الجذور العميقة للفكرة. ليعرف في نهاية المطاف، كيف يلتقي هذا أو ذاك بالجذور. ليكون هو الوجه الصحيح للفكرة، بعيداً عن أن يكون هذا الاحتمال ، وجهة نظر زيد أو أن يكون، وجهة نظر عمرو، وهذا هو المنهج القرآني الذي ركّز على الموضوعية، والحكمة والطريقة التي هي أحسن والانطلاق من مواضع اللقاء إلى مواطن الخلاف.

٤- أن يعمل الشيعة على توضيح الخطّ الإسلامي الأصيل، فيما يعتنقونه من أفكار ومفاهيم في جانب العقيدة، أو في نطاق الأشخاص، أو في تفاصيل الشريعة، وذلك بالأساليب المتحرّكة في ساحة الصراع، وبالعمل على كتابة ذلك بطريقة واضحة صريحة، وأسلوب علمي لا تعقيد فيه، وتسهيل وصول النشرات المتضمّنة لهذه الأفكار إلى كلّ مكان في العالم من أجل تطويق الدعايات المضادّة التي تعمل على تشويه الصورة الإسلامية لفكرة التشيع، ولاسيّما فيما يتعلق بالموازين الإسلامية لفكرة التوحيد والشرك، والغلو

والاعتدال في الأشخاص، وقضية تحريف القرآن، أو موضوع مصحف فاطمة، وعصمة الأئمة، وما إلى ذلك من الأمور التي يراد إثارتها من أجل إبقاء الهوّة عميقة بين الجماهير الإسلامية، من السنّة والشيعة.

٥- أن نعمد من جديد، إلى غربلة العقائد والعادات والفتاوى الشائعة لدى الأُمّة من أجل إخضاعها للمقاييس الفنية الاجتهادية في فهم الكتاب والسنّة. وفي تقويم الأحاديث في صحّتها وضعفها انطلاقاً من دراسة شخصية الراوي، ومتن الرواية ؛ لأنّنا نلاحظ أنّ كثيراً من القضايا التي يحملها الناس في أفكارهم، لا ترجع إلى مصادر اجتهادية صحيحة، بل ترجع إلى التسامح في القضايا التي لا تمثّل حكماً شرعياً، كقضايا الثواب أو العقاب أو الفضائل أو غير ذلك من الأمور ممّا قد يرويه الوضّاعون والغلاة والضعفاء الذين لا تقوم برواياتهم حجّة في دين أو دنيا.

إنّ ذلك هو السبيل للوصول إلى الإسلام الصحيح في كلّ المفاهيم الفكرية والأحكام الشرعية، الإلزامية وغيرها ؛ لأنّ أيّ مفهوم وأيّ حكم إنّما هو جزء من الإسلام، فإذا انحرفت الصورة فيه، انحرفت الصورة الإسلامية في وعي الإنسان المسلم.

ولا يقتصر هذا الأمر على الشيعة، وحدهم ، بل يعم السنّة أيضاً، فيما لديهم من تركة ثقيلة من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة التي كوّنت مفاهيم متنوّعة غير إسلامية في مصادرها الأصلية.

٦- أن نعمل على تشجيع اللقاءات بين الفعاليات الإسلامية العلمية، من السنّة والشيعة من أجل إيجاد علاقة حميمة فيما بينها من جهة، وتحويلها إلى علاقة علمية فكرية يتمّ فيها التعارف والتلاقي بين الأفكار، ثمّ الحوار العلمي

الهادئ من جهة أخرى ليعي كلّ منهما الطريقة التي يفكّر بها الآخر، ليعرف أنّه لا يتحرّك من موقع الرغبة في الخطأ من قاعدة الخطأ، بل يتحرّك من موقع الإخلاص للحق. من قاعدة الحق. حتّى لو أخطأ طريق الوصول، وبذلك يعرف الفريقان أنّهما يخطئان إذا أخطئا من موقع اجتهادي، كما يصيبان، إذا أصابا، من الموقع نفسه.

٧- أن يعيش الشيعة في تحرّكهم السياسي من مواقع السياسة الإسلامية العامة لأنّهم لا يستطيعون الوصول إلى الأهداف الكبرى في الحريّة والعزّة والاستقلال السياسي والاقتصادي إلّا في الدائرة الإسلامية الكبيرة ؛ لأنّ دروس الاستعمار قد علمتنا أنّه يملك كلّ أوراق اللعب في الدائرة الطائفية، بينما يفقد أكثر الأوراق في الدائرة الإسلامية، فلا مجال للتفكير بأنّ هناك قضية شيعية يمكننا أن نطرحها في الساحة الدولية ؛ لأن الاستعمار سيطرح أمامها، قضية سنية، وبذلك يشغل الساحة بالنزاع الطائفي الذي يمهّد له السبيل للسيطرة على الموقف كلّه.

إنّ مثل هذا الخطر قد يواجه مصاعب كثيرة في الساحة الفعلية وذلك بفعل وجود أوضاع طائفية حادّة، في المجتمع الإسلامي الآخر. مما قد يجعل من اندفاع الشيعة في الدائرة الإسلامية الكبيرة، حالة ضعف أو استضعاف، فيما يحاوله الآخرون من منع ذلك، أو استغلال ذلك لمصالح فئوية خاصّة.

ولكنّنا نؤكّد هذا الخطر، على أساس الهدف الكبير، الذي لابدّ من طرحه في الساحة لتوعيتها في الانطلاق بالقضايا الإسلامية في الفضاء الرحب والهواء الطلق، على أن يتحرّك العاملون معه بسياسة المراحل التي تحمي الساحة من ردات الفعل الصعبة التي قد تهدم البيت على رؤوس الجميع.

وأخيراً، إنّنا نعتقد، أنّ الإخلاص للقضايا الكبيرة التي جعلها الله أمانة في أعناقنا يقتضينا التضحية ببعض الجوانب الأخرى في مرونة إسلامية عميقة. وهذا ما عشناه في الأسلوب العلمي الذي أرادنا أهل البيت أن نسير عليه، ونجد أمامنا - في هذا المجال - أسلوب الإمام علي أمير المؤمنين في الفترة التي عاشها بين وفاة الرسول، وخلافته فيما حدّثنا عنه من أجوائها، وموقفه من تلك الأجواء:

«... فما راعني إلّا انثيال الناس على فلان يبايعونه فأمسكت يدي حتّى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يريدون محق دين محمّد، فخشيت إن أنا لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم هذه التي إنّما هي متاع أيام قلائل يزول منها ما يزول السراب، فنهضت في تلك الأحداث حتّى زاح الباطل وزهق واطمأنّ الدين وتنهنه»[١].

وفي قوله عندما سمع قوماً من أهل العراق يسبون أهل الشام:

«إنّي أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكن لو وصفتم أفعالهم وذكرتم حالهم لكان أصوب في القول، وابلغ في العذر، وقلتم مكان سبّكم إيّاهم: ربّنا أحقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، وأهدهم من ضلالتهم حتّى يعرف الحق من جهله ويرعوى عن الغي والعدوان من لهج به»[٢].

وقول الإمام الصادق في حديث عن معاملة الشيعة لبقية المسلمين: «صلّوا في جماعتهم، وعودوا مرضاهم، واحضروا جنائزهم أو موتاهم، حتّى يقولوا

---

(١) نهج البلاغة ٣: ١١٩ كتاب رقم٦٢.

(٢) نهج البلاغة ٢: ١٨٥ الخطبة٢٠٦.

رحم الله جعفر بن محمّد، فلقد أدّب أصحابه. كونوا زيناً لنا ولا تكونوا شيناً علينا»[١].

إنّ هذه الكلمات وأمثالها تثير فينا الروح الإيجابية في مواجهة الأخطار الكبيرة التي تواجه الواقع الإسلامي. نحن لا نعتقد أنّ الأخطار التي واجهت الإسلام والمسلمين في عهد الخلفاء فيما عاشه الإمام علي من إيجابيات اللقاء والتعاون، من أجل مصلحة الإسلام العليا، هي أشدّ من الأخطار التي واجه الإسلام الآن ، بل نعتقد أنّها أشد من الماضي. وذلك هو وحده الذي يفرض علينا الانفتاح على الساحة الإسلامية الكبرى لتكون جزءاً من الأُمّة في قضاياها الكبيرة، لنلتقي عندما نلتقي من موقع الإسلام، لمصلحة الإسلام، ولنختلف عندما نختلف من موقع الإسلام، لمصلحة الإسلام. لنعطي قضية الإسلام كلّ ما عندنا من فكر وحركة وجهاد وإيمان، ولنستجيب لنداء الله. ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾[٢].

وآخر دعوانا أنِ الحمُد لله ربِّ العالمين[٣]

---

(١) من لا يحضره الفقيه ١: ٣٨٣ الحديث١١٢٨ وفيه: »يا زيد خالفوا الناس بأخلاقهم، صلّوا في مساجدهم، وعودوا مرضاهم، واشهدوا جنائزهم، وإن استطعتم أن تكونوا الأئمّة والمؤذنين فافعلوا فإنّكم إذا فعلتم ذلك قالوا: هؤلاء الجعفرية ما كان أحسن ما يؤدّب أصحابه، وإذا تركتم ذلك قالوا: هؤلاء الجعفرية فعل بجعفر ما كان أسوأ ما يؤدّب أصحابه«.

(٢) الأنبياء (٢١): ٩٢.

(٣) إشارة لقوله تعالى: (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس (١٠): ١٠.

الوفاق والوحدة ضرورة من ضرورات الإسلام[1]

الشيخ محمّد مهدي شمس الدين

إنّ الوفاق ضرورة يمليها الإسلام نفسه على المسلمين، ولو لم تدع إليه ضرورة حفظ الذات، ورعاية المصالح، وردّ عادية العدو ؛ لأنّ الوفاق بين المسلمين ووحدتهم من مقتضيات عقيدة التوحيد، ومن مقتضيات شريعة الإسلام، ومن لا يؤمن بهذه الوحدة ولا يدعو إليها ولا يحرص عليها، ولا يدفع عنها عوامل الفرقة، فإنّ إسلامه منقوص ؛ لأنّه يخالف تكليفاً شرعياً أمر الله تعالى به، ونهى عن معصيته في القرآن الكريم في آيات محكمات بيّنات، منها قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾[2]، ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ**﴾[3]، ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ**﴾[4]، ﴿**وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾[5]، وغيرها. وفي السنّة الشريفة الصحيحة من هذا كثير.

---

(١) نقلاً عن ورقة الشيخ محمّد مهدي شمس الدين من كتاب »الإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين مصلحاً ومفكراً وأديباً«.

(٢) الحجرات (٤٩): ١٠.

(٣) آل عمران (٣): ١٠٣.

(٤) التوبة (٩): ٧١.

(٥) الأنفال (٨): ٤٦.

فكيف إذا كانت الوحدة ضرورة للسلامة والكرامة والعزّة في مواجهة مؤامرة يحيك الغرب شباكها وفخاخها منذ خمسة قرون، وينفذ فيها فصلاً بعد فصل، ومرحلة بعد مرحلة بهدف الاستيلاء على ثروات الأُمّة الإسلامية والتحكّم فيها بمنعها كلّها، ومنع أيّ قوم منها، من أيّ دور في العالم، بل من أي دور في اختيار صيغة حياتها، واختيار التصرّف في ثرواتها وأرضها وسمائها. وأعظم وسائله إلى هذا الهدف هو ضرب وحدتها بتعطيل دور الإسلام التوحيدي في حياتها، وذلك بتفكيك علاقات الوجدان والتاريخ والمصالح ووحدة المصائر بين أقوامها، ثمّ بتفكيك هذه العلاقات داخل كلّ قوم، مستخدماً عوامل القومية تارة، وعوامل الوطنية تارة، وعوامل المذهبية الطائفية تارة، خالقاً المخاوف عند كلّ فريق من كلّ فريق، وفي جميع مراحل هذه المؤامرة، يستخدم قوته ونفوذه في بناء أنظمة للمصالح القومية والوطنية والقطرية، والمذهبية الطائفية، ويدفع بكلّ نظام إلى بناء قوّته الخاصّة التي تعتمد على الغرب وإلى ربط اقتصاده بالغرب، ثمّ إلى ربط أمنه واستقراره بالغرب.

إنّ الوحدة لم تعد مجرد واجب ديني إسلامي مقدّس من مكوّنات إيمان المسلم، بل غدت ضرورة حياتية يدركها العقل لضمان الحدّ الأدنى من سلامة الأُمّة وبقاء الكيانات التي تتشكّل فيها دولاً ومجموعات إقليمية فهي من الناحية الموضوعية المصلحية المحضة، ليست ترفاً يقتضيه ويبرّره الاكتفاء، بل ضرورة تقتضيها المصلحة.

إنّ المصلحة السياسية والأمنية والاقتصادية تقتضي بالتوحّد، والبحث الجاد المخلص عن وسائله وأساليب تحقيقه بالتدرّج الذي يتسع للتنوعات ولا يلغي الخصوصيات.

وإنّه لمن عجائب حركة التاريخ أن نشهد أوروبا وهي تتوحدّ أمام أعيننا، وتلملم شتاتها وتلغي تناقضاتها، ملقية وراء ظهرها بتاريخ يزيد على ألف عام من العداءات وأنهار من الدماء، وركام من البغضاء. أوروبا ذات القوميات العدوانية المفترسة، أوروبا الكاثوليكية - البروتستنتية - الأرثوذكسية - العلمانية الملحدة، أوروبا الرأسمالية والاشتراكية، وأوروبا ذات اللغات الشتّى. وأن نشهد المسلمين - بل العرب - وهم يتفتتون ويتمزّقون ويتعادون ويتناحرون، بل ويتحاربون، فتسيل بينهم أنهار من الدماء، وتتعالى جبال من البغضاء، ملقين وراء ظهورهم بتاريخ من التوحد والتكامل - بشكل أو بآخر - يمتد إلى ما يزيد على ألف عام.

وليس هذا وذاك من أقدار الله الحتمية التي اختصّ الله بغيبها وحجب عن البشر العلم بسننها، بل هو قدر جعله الله تعالى رهناً باختيار البشر. إنّه سنّة من سنن حركة التاريخ التي كشف عنها في محكم كتابه المجيد، إنّه عقلنة علاقات الإنسان والمجتمع على أساس عدم اتباع الأهواء الذاتية الشخصية والعرقية في صياغة هذه العلاقات وإدارتها، بل اتباع ما تقضي به مصلحة المجتمع والأُمّة العامة في قضية الوحدة، والتكامل، والتنوّع وبذلك تحفظ مصلحة الأفراد والجماعات داخل المجتمع والأُمّة، واتباع الطريق المخالف، وهو مصلحة الأفراد والجماعات في صياغة العلاقات وإدارتها يضيع مصلح الأُمّة كلّها، وتضيع - في النهاية - المصلحة الخاصّة نفسها للأفراد والجماعات.

وقد بيّن الله الحكيم العليم سبحانه هذا القانون في آيات كثيرة، وفي بعضها أمثلة تطبيقية من تاريخ الأُمم ، ومن ذلك ما بيّنه سبحانه من شأن اليهود

والقلّة في تفرّقهم وتناحرهم في بعض حقب التاريخ، ومنها عصر الرسول محمّدﷺ، إذ قال تعالى في شأنهم: ﴿**بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ**﴾[1].

وعلَّة كونهم هكذا «أنّهم قوم لا يعقلون»، وليس لأنّ الله تعالى قدر عليهم أن يتفرّقوا ويتناحروا من غير سبب عملته أيديهم وأوجدوه بإرادتهم واختيارهم. وها هم اليهود الآن موحّدون متّحدون على مشروع واحد، استطاعوا إنجاز جانب كبير منه على الرغم من العرب جميعاً والمسلمين جميعاً الذين ابتلاهم الله - باختيارهم وإرادتهم - بنفس ما شنع به على اليهود من الفرقة والتناحر والقلوب الشتّى، لنفس ما أدّى باليهود في الماضي إلى هذا المصير وهو «أنّهم لا يعقلون».

إنّ بيت «المقدس» الذي انتهك، نخشى عليه مزيداً من الانتهاك، وهو وحدة الأُمّة، لابدّ من إعادة الحرمة إليه ، وتحصينه وترسيخه في وعي المسلمين وسلوكهم، وصونه من عوادي الفتن.

وهذا أمر لا يتأسّس على السياسة وحدها، بل يتأسّس - قبل السياسة على (فقه الوفاق) و(فكر الوفاق):

أ)- **أما (فكر الوفاق)**: فكر الوحدة فهو مسؤولية المثقّفين والمفكّرين المسلمين، ولابدّ من إعادة تكوين هذا الفكر على هدى الكتاب والسنّة - وهما العامل الثابت فيه - والتاريخ والواقع المعيشي، وهما العامل المتغيّر فيه.

ووظيفة هذا الفكر أن يربّى المسلم على أخطار الانقسام وبركات

---

(١) الحشر (٥٩): ١٤.

التوحّد، بحيث تكون (الوحدة الإسلامية) تعبيراً طقسياً يمارس بعقلية وروح الواجب، بل ثقافة معيشة بنحو تلقائي في حياة المسلم.

ومن أجل بلوغ هذا المستوى من تكوين شخصية المسلم على فكر الوحدة ، لابدّ أن يجعل هذا الفكر زاداً يومياً لأجيالنا الجديدة في المدرسة والمسجد وسائر وسائل التثقيف والإعلام بحيث يشبّ عليه الصغير، ويشيب عليه الكبير.

إنّ هذا الفكر غائب عن مجتمعاتنا، وحتّى عن معظم النخب في هذه المجتمعات، بل إنّ الأخطر من ذلك أن تسود - في بعض الأحيان - في هذا المجتمع أو ذلك تيارات (فكر الخلاف) الذي يفلسف اتّجاهات التشرذم والتفرّق السياسي والمذهبي.

ب)- وأمّا (فقه الوفاق): فهو مسؤولية الفقهاء، ومراكز البحث الفقهي ، والمرجعيات الدينية الإسلامية في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

إنّ مسؤولية الفقهاء المخلصين الواعين، ومراكز البحث الفقهي والمرجعيات الدينية للمسلمين هي بلورة فقه الوفاق والوحدة، ليكونوا دعاة ورواد وفاق ووحدة ينقذ الله ﷻ بهم المسلمين من التفكّك والتفرّق.

ولا يعفيهم من المسؤولية أن يقفوا موقف المتفرّجين ، وهم يرون الأُمّة تتمزّق، ويقع جزء منها بعد جزء فريسة لعامل الشرّ والفتنة الداخلية تارة، وفريسة لعدوان الأغراب تارة أخرى.

إنّ تخلي الفقهاء والمفكّرين المخلصين الورعين الأكفاء والواعين عن التصدّي لترشيد الأُمّة على مستوى المذاهب الفقهية، وترشيد الأُمّة على

مستوى الحركة الإسلامية، قد أخلى الساحة أمام بعض علماء الدين إلى أن يتخذوا مواقف تنحدر إلى مستوى الجريمة الكبرى والخيانة العظمى في حق الإسلام والأُمّة، وذلك حين يشرع هؤلاء - باسم الإسلام - استعمال أساليب العنف ضد مخالفيهم في المذاهب أو في الفهم السياسي، ويستحلّون صياغة خطاب سياسي وتعبوي مشحون بعناصر الإثارة والاستفزاز ودواعي العداء والخصومة، وعوامل الفرقة والانقسام.

فهل بعد هذا الشرّ من شرٍّ؟

أو لا يكفي بعض هذا مجمل الحاملين لرسالة الإسلام وشريعته من فقهاء ومرجعيات فقهية أن يخرجوا من أطرهم المذهبية والمحلّية، متفاعلين مع أشدّ حاجات الأُمّة إلحاحاً وهي المصالحة مع الذات والوفاق والوحدة، مستجيبين في ذلك لنداء الله تعالى في كتابه المجيد في قوله ﷻ في سورة النور: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[1].

إنّ الأُمّة المسلمة عامة، وكلّ شعب من شعوبها في أمسِّ الحاجة بل أشدّ الضرورة إلى إعادة ترميم ما تصدّع من وحدتها بما هي أُمّة، وإلى ترميم وحدة كلّ شعب من شعوبها ودولها في إطار الوحدة العامة، لأنَّ هذه الوحدة لم تعدّ شأناً من شؤون العقيدة فقط، وهي كذلك بلا ريب، بل غدت ضرورة من ضرورات السلامة السياسية والاقتصادية والثقافية، للتحصّن من آثار

(١) النور (٢٤): ٦٢.

الهجمة الشرسة الشاملة التي تشنّها قوى كبرى كثيرة على العالم الإسلامي والأُمّة المسلمة، من دون وجود أيّ موقع دولي يمكن أن يجد فيه المسلمون أو أيّة دولة من دولهم حليفاً لهم يتيح المناورة في الأزمات، وذلك بعد التغيّر العميق والشامل الذي حدث في السنتين الماضيتين في النظام الدولي وولادة ما يسمّى (النظام الدولي الجديد) الذي بدأت تتصاعد لهجة المنظّرين له والناطقين باسمه في حقول السياسة والاقتصاد والثقافة بالحديث عن الإسلام باعتباره العدو الأوّل، بل الوحيد أمام الصيغة السياسية التنظيمية والحضارية لهذا النظام العالمي الجديد، واضعاً الأُمّة المسلمة بين خيارين: إمّا السلّة وإمّا الذلّة أي إمّا القمع، وإمّا الاستحواذ. ومعالم هذا الموقف تبدو كما نرى ظاهرة في جميع أرجاء العالم الإسلامي.

أسس التقريب وسبله[١]
الشيخ محمّد واعظ[٢]

المراد بها: الأصول التي يعتمد عليها التقريب بين المذاهب، وهي أمور:

الأمر الأوّل: من الأمور التي لا يشكّ فيها مسلم هي: أنّ الأُمّة الإسلامية بجميع مذاهبها وأقوامها وشعوبها أمّة واحدة، وأنّ الوحدة هي ركن من أركان الإسلام. وما أجمل ما قاله كاشف الغطاء داعية الوحدة الإسلامية: «بني الإسلام على كلمتين، كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة»[٣].

وإنّ المسلمين ما وصلوا ولن يصلوا إلى تحقيق أهداف الإسلام السامية إلّا بالوحدة، وإنّ عز المسلمين ومجدهم رهين وحدتهم، وليس بعد اختلافهم وتنازعهم إلّا ضعف الشوكة وحلول الوهن بهم.

الأمر الثاني: أنّ الأصول الأساسية للإسلام لا خلاف فيها - والحمد لله - بين المسلمين، فكلّهم يعتقدون بتوحيد الربّ تعالى، وبنبوّة نبيّنا محمّد والأنبياء قبله - صلوات الله عليهم أجمعين - وبالمعاد، والجنّة والنار، وبالصّلاة والصّوم، والحجّ والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنّ كتابهم

---

(١) رسالة التقريب السنة الأولى محرم ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

(٢) الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

(٣) أصل الشيعة وأصولها: ٩٧.

واحد، وقبلتهم واحدة، إلى غير ذلك من أركان العقيدة والعمل. وإنّ هذه الأصول المتفق عليها والمشتركة بين المذاهب الإسلامية هي بالذات ملاك الإخوة الإسلامية، ومعيار وحدة الأُمّة، دون غيرها من المسائل المختلف فيها والآراء الخاصة بكلّ مذهب، التي تدخل في معايير المذاهب نفسها دون غيرها.

الأمر الثالث: أنّ دعوة الناس إلى وحدة الأُمّة لا يعنى بها: رفض المذاهب كلّها أو بعضها، كما لا يراد بها: إدغام المذاهب والمساومة عليها، وذلك بأخذ شيء من كلّ مذهب، ورفض شيء بحيث تكون الحصيلة صفقة مرضية لاتباع المذاهب، كما لا يعنى بها: تبديل مذهب بمذهب، أو إحداث مذهب جديد في الإسلام، كما لا يعنى به: الاكتفاء بالمشتركات ورفض موارد الاختلاف والإعراض عنها تماماً.

وإنّما السبيل الوحيد الذي نتبنّاه - اقتداء بالسلف الصالح من علماء المسلمين والنخبة من المصلحين في العالم الإسلامي - وهو التأكيد والركون إلى المشتركات في حقل العقيدة والشريعة باعتبارها الأصول الأساسية للإسلام، وكونها - كما قلنا - معياراً للإخوة الإسلامية ووحدة الأُمّة. هذا مع الاحتفاظ بالمذاهب والاحترام المتقابل بين أتباعها فيما وراء هذه الأصول من المسائل الجانبية الفرعية التي يسوغ الخلاف فيها في إطار الدليل والبرهان، والتي تعتبر غير ضرورية، ويكون باب الحوار والاجتهاد فيها مفتوحاً.

إنّ الاختلاف في مثل هذه المسائل مقبول ولا ضير فيه، بل لا مناص منه، فلكلّ ذي رأي رأيه ﴿**وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ**

خَلَقَهُمْ﴾[1] أي: للرحمة، أو للاختلاف على الخلاف حسب تعبير العلّامة كاشف الغطاء في أحدى مقالاته.

الأمر الرابع: قد تبيّن مما سبق أنّ المراد بالمذاهب الإسلامية:

هي المذاهب التي تؤمن بتلك الأصول الأساسية العقيدية والعملية التي يلتزم أتباعها بالعمل بها بحيث يمكن أن يدخلوا في إطار الأُمّة الإسلامية ويُعدّوا مسلمين ، والذين ينكرون أصلاً من تلك الأصول فنحن لا ندعوهم إلّا إلى الأخذ بما أخذ به إخوانهم المسلمون ليدخلوا في زمرة الأُمّة الإسلامية.

الأمر الخامس: لابدّ من تعيين المشتركات والأصول الأساسية للإسلام - وإن كانت معلومة إجمالاً - من قبل نخبة من علماء المذاهب الإسلامية في مؤتمر عام، وفي لجان تخصّصية مهمّتها تشخيص الأُصول المتفق عليها ؛ لتكون معياراً للحكم على من لا يلتزم بها، أو بشيء منها بأنّه خارج عن الأُمّة أو أنّه غير مسلم.

الأمر السادس: ما دام لم يوضّح ويحدّد هذا المعيار (الكفر والإيمان) فليس لأحدٍ رمي الآخرين بالكفر، كما أنّه لا يجوز المسارعة في الحكم به على أهل القِبلة وعلى كلّ من التزم بالأصول الإسلامية المتفق عليها، وحتّى لو شكّ في التزامه بها، بل ويجب الاجتناب بشكل قاطع عن تشكيل محكمة من قبلنا لتقسيم الجنّة والنّار بين المسلمين ، ولكن وجب أن نوكل هذا الأمر إلى الله تعالى، فإنّه الحكم العدل بين عباده ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾[2].

---

(١) هود (١١): ١١٨ – ١١٩.

(٢) النحل (١٦): ١٢٤.

الأمر السابع: المسائل الخلافية يجب أن تبيّن على يد علماء المذاهب واعتماداً على المصادر المعتبرة عندهم، ولا يجوز الاستناد إلى الإشاعات والأقوال غير المسندة أو إلى ما يروّجه أعداء كلّ مذهب جهلاً وكذباً ضد الآخرين، ولا الاستناد إلى أقوال وأفعال الجهّال من أتباع كلّ مذهب مما يرفضه علماء ذلك المذهب والخبراء بأسراره.

الأمر الثامن: ينبغي اتخاذ منطوق أقوال المذاهب ملاكاً للحكم عليها، ولا ينظر إلى مستلزمات تلك الأقوال مما يرفضها أصحاب المذاهب، وعلى سبيل المثال: لو قال أحد المذاهب بأنّ الله يرى في الآخرة لا يسوغ لنا أن نحمل هذه العبارة ما يستلزمها عقلاً (وهو أنّ الله جسم) ما دام أئمّة هذا المذهب ينكرون ذلك صراحة (وقد أنكروه بالفعل): إما بادعاء عدم الاستلزام ابتداءً، أو بتوجيه الرؤية إلى نحو من العلم والإدراك الباطني، فإنّ القول بالتجسّم للذات الإلهية مرفوض لدى المذاهب المعروفة بين المسلمين، ويعدّ هذا من جملة الأصول الأساسية للتوحيد، ولهذه المسألة أمثلة شتى في أكثر المذاهب لا مجال للخوض فيها.

الأمر التاسع: أنّ لا نجعل المسائل الخلافية الجانبية في نفس درجة أهمية المسائل الأصولية المتفق عليها، ممّا قد يؤدّي إلى سيطرة الفروع على الأصول في زحمة الاختلافات الفرعية، بل يجب نسيانها مؤقتاً إذا زاحمت المسائل الأساسية ؛ لئلا تصرفنا عن الاهتمام بتلك الأصول، غافلين عنها ومشتغلين عن الأعم بغيره.

الأمر العاشر والأخير: السعي لفتح باب الاجتهاد في كلّ المذاهب الإسلامية، وفي كلّ الأبعاد - بالنسبة إلى المسائل الخلافية غير الضرورية -

لكي تكون أبواب البحث فيها مفتوحة على أساس الالتزام بالحقّ والاحتجاج بالدليل، وتكون القلوب مفتوحة ومستعدّة لقبول ما انتهى إليه البحث حسب الدليل، مع رعاية جانب الإنصاف وأدب الجدال بالتي هي أحسن، ومع النظر إلى تلك المسائل الخلافية من منظار التقريب والتحبيب سعياً إلى الوفاق مهما أمكن، لا من منظار الخلاف والخصام سعياً إلى الشقاق.

أمّا سبل التقريب

فهي كما نذكرها في المجالات التالية:

أولاً: مجال القرآن والتفسير.

ثانياً: مجال الروايات والأحاديث.

ثالثاً: مجال الرجال والتراجم والتأريخ.

رابعاً: مجال الكتب والمؤلفين.

خامساً: مجال الكلام والمناظرة والملل والنحل.

سادساً: مجال الفقه والاجتهاد.

سابعاً: مجال أهل البيت وسلالة السادات.

ثامناً: مجال الصحابة والتابعين.

تاسعاً: مجال السياسة والحكومة.

عاشراً: مجال الثقافة والتراث، واليك تفصيل هذه المجالات.

أولاً: في مجال القرآن والتفسير:

١- الاهتمام بالمباحث القرآنية العامة والمشتركة بين المسلمين في المجالات المختلفة: العلمية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.

٢- الاهتمام بحفظ سياق الآيات التي تشترك المذاهب جميعاً في مفاهيمها.

٣- الاهتمام بجميع الآراء التفسيرية، وحفظ الحياد والابتعاد التام عن الجدال المذهبي المقيت.

٤- عدم فرض رأي مذهب معين على القرآن الكريم استناداً إلى تأويل فهم ذلك المذهب للقرآن.

٥- التفريق بين تأويل القرآن وتفسيره، وعد الاستناد إلى التأويل لغرض إثبات العقيدة لمذهب معين.

٦- عدم الاعتماد على قطعية أسباب نزول الآيات القرآنية، ونقد ما خالف السياق القرآني، وما فقد الدليل القطعي منها.

ثانياً: في مجال الروايات والأحاديث:

١- الاستناد إلى الروايات المشتركة المتفق عليها بين المذاهب، والسعي لجمع هذه الروايات.

٢- الاستناد إلى الأحاديث النبوية المروية من طرق الفريقين.

٣- نقد الأحاديث وفق المعايير العلمية من دون فرق بين مذهب وآخر.

٤- موازنة ومقايسة الروايات مع القرآن وأصول الإسلام المتفق عليها.

٥- الاهتمام بالروايات والتواريخ الدالّة على العلاقات الحسنة بين أئمّة المذاهب والسلوك الحسن مع بعضهم البعض.

٦- متابعة الإجازات المتبادلة بين محدّثي المذاهب المختلفة والشهادات ورسائل الودّ والاحترام بينهم.

ثالثاً: في مجال الرجال والتراجم:

١- الاطلاع على الرواة المشتركين بين الفريقين والمقبولين عندهم،

والاستناد إلى رواياتهم.

٢- معرفة الرواة من الشيعة في كتب أهل السنّة. وبالعكس، ودراسة رواياتهم.

٣- الاطلاع على الرواة الضعاف وأصحاب الروايات المختلفة في عامة المذاهب ونقد رواياتهم.

٤- الاطلاع على الصحابة، والتابعين ورجال الحديث البعيدين عن الأحداث السياسية، والذين نقلوا فضائل أهل البيت.

٥- العناية بالنماذج التاريخية المشيرة إلى حسن علاقات علماء المذاهب مع بعضهم.

٦- العناية بتراجم علماء المذاهب المختلفة المقرونة بالإكرام والتبجيل في كتب الفريقين على السواء.

رابعاً: في مجال الكتب والمؤلفين:

١- الاهتمام بكتب وكتابات العلماء الذين يميلون إلى روح التقريب والاعتدال في الرأي، والقائلين باحترام المذاهب الأخرى، مثل: العالم الكبير الإمامي أمين الإسلام الطبرسي وكتبه.

٢- العناية بنشر وتعريف الكتب التي ألّفت من قبل علماء مذهب معيّن، وشرحت وحشيت وحقّقت ونشرت، مقرونة بالاكرام والتبجيل لمؤلفيها من قبل علماء مذهب آخر.

٣- الاهتمام والعناية بالكتب الدراسية التي لا تزال تدرس في الحوزات العلمية (المدارس الدينية) بغض النظر عن مذهب مؤلّفي هذه الكتب.

خامساً: في مجال الكلام والمناظرة:

١- تؤخذ عقائد كلّ مذهب عن طريق الكتب المعتبرة والعلماء المعتبرين في ذلك المذهب، ولا يستند إلى الشائعات والأقوال الشاذّة والنادرة، وإلى قول ومعاملة العوام، ونقل خصوم ذلك المذهب.

٢- يجب مراعاة الأمانة والآداب والإنصاف عند نقل ونقد الآراء.

٣- يعتمد على منطوق الأقوال المتفق عليها من جميع المذاهب، ولا يعتمد على المفاهيم ودلالاتها المرفوضة من قبل تلك المذاهب، والامتناع عن نسبتها إليهم.

٤- النفي والإثبات لعقيدة ما من قبل علماء مذهب معين ينبغي أن يقبل منهم على السواء، ولا يصرّ على نسبة ما يرفضونه إلى المذهب، كما هو شائع في جملة من المسائل.

٥- إنّ المعيار في عقائد الإمامية هو منهج المتكلّمين والفقهاء المجتهدين منهم، والآراء المتفق عليها والمشهورة لديهم، وليست الشاذّة والنادرة منها، ولا الأقوال النابعة من النظرة الشخصية والطائفية والراويات غير المعوّل عليها. وعند أهل السنّة كذلك. فإنّ المعيار هو آراء أهل الخبرة من المذاهب، ليس بدع السلفية وأهل الحديث الذين ينكرون المذاهب أصلاً، ولا يعتمد على الشائعات والأقوال النادرة عندهم.

٦- في البحث والمناظرات يجب مراعاة احترام أئمة المذاهب، والعلاقة العاطفية التي تربطهم بمتعلقيهم والتابعين لهم، وأن لا تؤدّي هذه البحوث والمناظرات إلى عواقب سيّئة بين المذاهب، وإلّا فالإمساك عنها هو المتعين.

٧- عدم طرح القضايا والخلافات الهامشية القديمة من جديد، وتدرس بدلها المسائل المهمة والحيوية والعلميّة في العالم الإسلامي.

٨- مراعاة أسلوب الحوار والجدال الحسن، وأن يكون هدف البحث هو الوصول إلى الحق والحقيقة، لا أن تتحوّل ساحة الحوار إلى ميدان للسباق والمشاجرة.

٩- يجب أن يسود جو البحث حكم الدليل والبرهان والاجتهاد الهادف دون سواه.

١٠- الابتعاد عن الكذب والافتراء وهتك حرمة الآخرين، ولا يجوز الاستفادة من الألاعيب السياسية والطائفية والتزوير.

١١- النظر إلى المذاهب الإسلامية باعتبارها مراكز إشعاع ومدارس علمية وفكرية في نطاق الإسلام، من دون جعلها بؤراً لزرع الطائفية.

١٢- الاهتمام بالسلوك الخاص لأئمّة أهل البيت تّجاه أئمّة باقي المذاهب الإسلامية ومن خالفهم في الرأي.

١٣- الإحساس بالمسؤولية الملقاة علينا. أثناء طرح المسائل الخلافية التي يكون ضررها أكثر من نفعها.

١٤- مراعاة الأهم فالأهم عند طرح القضايا الإسلامية والبحوث العلمية، أو عند الكتابة والخطابة والتدريس.

١٥- ان لا تغلب الاختلافات المذهبية على الأصول الجامعة بين المذاهب، وأن لا يقدم المذهب على الإسلام بحالٍ.

١٦- عند البحث في المسائل الخلافية يجب التركيز على النقاط

الإيجابية المتفق عليها بين الطرفين، فمثلاً: عند البحث عن مسألة الخلافة والإمامة - وهي أم المسائل بين الشيعة والسنّة - نرى اتفاقهم على ضرورة وجود حكومة إسلامية، وهي مسألة أصبحت في طي النسيان، والخلاف في مسألة الجبر والاختيار يتضمن اتفاق الطرفين على تنزيه البارئ ﷻ عن الظلم والعجز... وهكذا.

١٧- يجب على أتباع المذاهب أن يسلموا أنّ الدفاع عن مذهب ما بالطرق الهادئة والبعيدة عن الضوضاء أصوب وأقرب إلى المصلحة الإسلامية العليا، وأنّ أتباع أهل البيت والسائرين على نهجهم أولى من غيرهم في مراعاة هذا الجانب.

١٨- الابتعاد عن التعصّب المذهبي ، وتجنّب الانشقاق داخل الفرق الإسلامية كما حدث في التأريخ الإسلامي المسطور وذكر في كتب الملل والنحل، وأن لا ينظر إلى الاختلاف الجزئي على أنّه منشأ وسبب لإيجاد الفِرَق.

١٩- الترحيب بالمباحثة والحوار الهادف والبنّاء بين المذاهب الإسلامية.

٢٠- إعطاء الفرصة لجميع المذاهب للدفاع عن نفسها، ودفع الاتّهامات والشبهات الواردة في شأنها، وهذا بحد ذاته يعتبر خطوة عملية في طريق المعرفة الصحيحة للمذاهب ورفع الالتباسات حولها.

سادساً: في مجال الفقه والاجتهاد:

١- التعرّف على الآراء المشتركة للمذاهب ومقايستها مع نسبة المسائل الخلافية.

٢- العناية بالفقه المقارن على مستوى جميع المذاهب الفقهية.

٣- التعرّف على أصول الاختلافات مع مراعاة حسن النية والإنصاف، وتعيين حدود كلّ مسألة من المسائل المتفق والمختلف عليها، وتقريب وجهات النظر، ورفع المشاجرات اللفظية والاصطلاحية.

٤- السعي إلى فتح باب الاجتهاد في جميع المذاهب الفقهية.

٥- المقارنة بين المباني وطريقة الاستنباط والاصطلاحات الأصولية عند المذاهب الفقهية.

٦- العناية بجميع الروايات المعتمد عليها من قبل المذاهب، والمقايسة فيما بينها وعرضها على القرآن.

٧- نشر وتحليل الكتب الخلافية المتداولة، واختيار أفضل السبل لطرح هذه المسائل من جديد.

٨- التعاون الفكري المشترك، والسعي من قبل علماء المذاهب للإجابة على المسائل الفقهية المستحدثة في مجالات الحياة البشرية وحلّ ما أشكل منها.

٩- الاهتمام بالمؤتمرات المرحلية واللجان الفقهية الثابتة على مستوى العالَم الإسلامي ونشر بحوث هذه المؤتمرات.

١٠- فتح باب المحاورات الفقهية البنّاءة بين العلماء والتجمّعات العلمية في العالَم الإسلامي.

سابعاً: في مجال أهل البيت وسلالة السادات:

١- التأكيد على أنّ اتفاق عامة المسلمين على الحبّ والولاء لأهل البيت واعتبار مظلوميتهم هي القاعدة القوية لائتلاف الفِرَق الإسلامية.

٢- متابعة المعالم والدلائل والنماذج البارزة لولاء أهل البيت في البلدان الإسلامية، وخصوصاً في مصر والسودان والمغرب، وفي شبه القارة الهندية وإيران.

٣- التأكيد على أنّ الاختلاف في وجهات النظر إنّما حدث في مقام القيادة السياسية والعلمية لأئمّة أهل البيت، وليس في فضائلهم وطريقتهم الحقّة.

٤- إنّ بغض أهل البيت أمر مردود، بل هو كفر عند غالبية المسلمين، فهل سبب النجاة هو حبّهم فحسب؟ أم هو موالاتهم بالمعنى الخاص عند الإمامية؟

٥- التنبيه على عمق الأواصر النسبية بين أهل البيت والصحابة والعلاقة العاطفية بينهم.

٦- ملاحظة أنّ الأسماء الخاصّة بأهل البيت هي أكثر شيوعاً بين المسلمين من أسماء سواهم.

٧- الاهتمام بمعرفة سلالة السادة من آل الرسول في العالَم الإسلامي، وجمع المعلومات حول أنسابهم وإحياء مسألة نقابات الأشراف التي أصبحت في طيّ النسيان.

٨- الانتباه إلى أنّ طرق الصوفية الرائجة عند أهل السنّة - وهي كثيرة جدّاً - يرجع أصلها - حسب اعتقادهم - إلى أهل البيت، وانّ ولاء أتباع هذه الطرق لأهل البيت شيء واضح، والملاك عندهم في قبول وترجيح شيخ الطريقة هو انتسابه للإمام الحسن، أو الإمام الحسين، أو لكليهما...

٩- ملاحظة أنّ الكتب الكثيرة في فضائل أهل البيت - والتي ألّفت من قبل علماء أهل السنّة - تدلّ على حسن اعتقاد هؤلاء وولائهم لآل البيت.

١٠- ملاحظة أنّ المراقد والمزارات الخاصّة بأهل البيت رغم كثرتها وانتشارها في شرق العالم الإسلامي وغربه - تتمتّع باحترام وتقديس خاص عند جميع المسلمين، وخصوصاً في مصر وسورية والعراق.

١١- ملاحظة أنّ بعض أهل السنّة يحيون كلّ عام مراسم العزاء في اليوم العاشر من المحرم ويشتركون فيها كإخوانهم الشيعة على السواء، ويعتبرون مأساة كربلاء كارثة إسلامية كبرى حلّت بالمسلمين.

ثامناً: في مجال الصحابة والتابعين:

١- من المسلّم به أنّ الحوادث التأريخية التي وقعت في صدر الإسلام أصبحت تمتاز برؤى مختلفة من قبل الفرق الإسلامية بالنسبة للصحابة والتابعين، وهي من أكبر المشاكل التي واجهت وتواجه الوحدة الإسلامية والتقريب بين المذاهب الإسلامية في الماضي والحاضر.

٢- في هذا المجال يجب اختيار الأسلوب الحكيم عند التعرض للصحابة والتابعين ؛ كي لا تظهر ولا تثار الاختلافات والعداوات، ولا تخدش عواطف الآخرين، وهذا الأمر يحتاج إلى جهود ومساعي العلماء الأفاضل، وهو أمنية جميع المصلحين في العالم الإسلامي.

٣- إنّ الآيات القرآنية وفقرات من كتاب «نهج البلاغة» إذا أخذتا معياراً حيادياً فإنّهما ستساعدان كثيراً في هذا الأمر.

٤- يمكن تبني الأساليب والطرق الصالحة التي اتبعها علماء المسلمين

كقدوة حسنة في هذا السبيل، فمن علماء الشيعة: الشيخ الطوسي، والشيخ الطبرسي قديماً، والسيّد شرف الدين، والسيّد البروجردي، والسيّد محسن الأمين، والشيخ كاشف الغطاء، ومن علماء أهل السنّة: شيوخ الأزهر: الشيخ سليم البشري، والشيخ عبد المجيد سليم، والشيخ محمود شلتوت، وكذا جميع مؤسّسي وحماة (دار التقريب) من علماء المسلمين.

تاسعاً: في مجال السياسة والحكومة:

١- إنّ الدافع السياسي كان له أثر كبير في إيجاد وتغذية وتنمية الخلافات بين المسلمين، ولكن مع وجود النقاط السلبية فهناك نقاط إيجابية في تأريخ الإسلام يجب الإشادة بها.

٢- إنّ منهج علي ومعاملته مع الخلفاء قبله يجب ان يدرس ويحلل تحليلاً دقيقاً ويعمل به، وهذا المنهج مثبت في كتب التأريخ، وكتاب نهج البلاغة، وكذا طريقة ومنهج الأئمّة الآخرين من أهل البيت.

٣- دراسة وتحليل سيرة السلف الصالح من التابعين وعلماء الإسلام، والملوك، والوزراء والقضاة المسلمين من مختلف المذاهب، الذين أثبتوا نزاهتهم وأمانتهم وابتعادهم عن التعصّب المذهبي، وبذلوا جهودهم في سبيل المصلحة الإسلامية العامة.

٤- العناية بالكتب التي كتبها العلماء لأجل نصيحة وإصلاح الحكام والملوك والوزراء من غير أهل مذهبهم، والتي أشادوا فيها بأعمالهم الصالحة رغم اختلاف مذاهبهم.

٥- إكرام الحكومات الشيعية والسنيّة التي بنت علاقات حسنة فيما بينها في الماضي، وإدانة الطرق والأساليب العدائية التي سادت بينهم، وخصوصاً

العلاقات بين الخلفاء العثمانيين والصفويّين، والتي تركت آثارها السلبية لحدّ الآن.

٦- الانتباه إلى الدور المهم الذي قامت به الحكومات في تغيير المذاهب في المناطق التي كانت تحت سيطرتها وهذا التغيير - الذي كان يأخذ في بعض الأحيان طابع العنف والخشونة - ترك آثاراً سيئة بعد ذلك.

٧- ضرورة إبعاد المذاهب عن آثار سياسات تلك الحكومات، وحصر الخلافات المذهبية في الإطار العلمي القائم على الدليل والبرهان والاجتهاد فحسب.

٨- الالتفات إلى مسألة مناصرة ومؤازرة علماء الشيعة والسنّة للحكومات الإسلامية في الماضي مقابل أعداء الإسلام كلّما استوجب الأمر ذلك، لاسيّما مواجهتهم معاً للاستعمار الغربي والثقافات الاستعمارية المدمرة خلال القرنين الأخيرين.

٩- دعم المؤتمرات والاتفاقيات السياسية والاقتصادية والثقافية التي عقدتها الدول والحكومات الإسلامية، والتي أريد من ورائها المصلحة الإسلامية العامة.

١٠- السعي إلى إيجاد جبهة سياسية متحدة بين المسلمين مقابل الأجانب وأعداء الإسلام.

١١- السعي إلى تنمية الوعي السياسي والثقافي للمسلمين، وتبيين الأضرار الناشئة من اختلاف المسلمين على مدى التأريخ الإسلامي، وتقديم وإظهار نماذج واضحة للوحدة السياسية في العالم الإسلامي.

١٢- السعي إلى تجديد الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية للإسلام، وتثبيت الأنظمة الإسلامية، وتطبيق الأحكام السياسية الإسلامية في الأقطار والشعوب الإسلامية عامة.

عاشراً: في مجال الثقافة والتراث:

١- اعتبار التراث العلمي والثقافي للمذاهب الإسلامية تراثاً إسلامياً عاماً، واعتباره (ثروةً وملكاً) ومفخرة للأُمّة الإسلامية جمعاء.

٢- الحفاظ التام على دور الكتب والمخطوطات الإسلامية في شرق العالم الإسلامي وغربه، وكذلك إحياء ما اندثر من الآثار المهمّة من المساجد والمدارس ودور تحفيظ القرآن والتكايا، وما إلى ذلك في نطاق جميع المذاهب الإسلامية المعترف بها.

٣- اعتبار الأدب والفنّ والشعر في جميع اللغات الإسلامية تراثاً إسلامياً عاماً.

٤- الحفاظ على اللغات الإسلامية بما فيها من المفاهيم والمصطلحات والتعابير كتراث إسلامي، واعتبار اللغة العربية اللغة الأُم لتلك اللغات.

«وآخر دعوانا أنِ الحمُد لله ربِّ العالمين»

تمّت

فهرست المصادر

* القرآن الكريم

١- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: سعيد المندوب، لبنان – دار الفكر١٤١٦هـ، الطبعة الأولى١٩٩٦م.

٢- الاجتهاد أصوله وأحكامه، السيّد محمّد بحر العلوم، دار الزهراء – بيروت١٩٧٧م .

٣- أجوبة مسائل جار الله، السيّد عبد الحسين شرف الدين الموسوي، مطبعة العرفان - صيدا، الطبعة الثانية١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م.

٤- الاحتجاج، أحمد بن علي الطبرسي (ت٥٤٨هـ)، تحقيق: السيّد محمّد باقر الخرسان، دار النعمان للطباعة والنشر - النجف الأشرف١٣٨٦هـ.

٥- إحياء علوم الدين، أبو حامد محمّد بن محمّد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، هيئة التأليف والتحقيق والترجمة في دار الهادي، دار الهادي، بيروت - لبنان الطبعة الأولى١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٦- الاختصاص، أبو عبد الله محمّد بن النعمان العكبري البغدادي الملقب بالشيخ المفيدرحمه الله (ت٤١٣هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، السيّد محمود الزرندي، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٧- اختيار معرفة الرجال المعروف برجال الكشي، شيخ الطائفة أبو جعفر الطوسي قدس سره، تصحيح وتعليق: المعلم الثالث ميرداماد الاسترآبادي، تحقيق: السيّد مهدي الرجائي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام، قم ١٤٠٤هـ.

٨- أديان الهند الكبرى، الدكتور أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، الطبعة العاشرة ١٩٩٧م.

٩- الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشيخ محمّد بن محمّد بن النعمان البغدادي المشهور بالمفيد (ت٤١٣هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.

١٠- إسلام بلا مذاهب، الدكتور مصطفى الشكعة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الثالثة عشر ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

١١- الإسلام بين السنّة والشيعة، محمّد أبو زهرة.

١٢- الإسلام بين السنّة والشيعة، هاشم المدني ومحمّد علي الزغبي.

١٣- إسلامنا في التوفيق ين السنّة والشيعة، الدكتور مصطفى الرافعي، الدار الإسلامية، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

١٤- الإصابة في تمييز الصحابة، الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود - الشيخ علي محمّد معوض، قدم له وقرظه الأستاذ الدكتور محمّد عبد المنعم البري جامعة الأزهر، الدكتور عبد الفتاح أبو سنة جامعة الأزهر، الدكتور جمعة طاهر النجار جامعة الأزهر، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

١٥- أصل الشيعة وأصولها، الشيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء (ت١٣٧٣هـ)، تحقيق: علاء آل جعفر، مؤسسة الإمام علي، الطبعة الأولى١٤١٥هـ.

١٦- الأصول العامة للفقه المقارن، العلّامة محمّد تقي الحكيم، مؤسسة آل البيت عليهم السلام للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، آب (أغسطس١٩٧٩م).

١٧- أضواء على السنّة المحمّدية أو دفاع عن الحديث، محمود أبو رية (ت١٣٨٥هـ)، نشر البطحاء، الطبعة الخامسة مزيدة محققة.

١٨- أعيان الشيعة، السيّد محسن الأمين (ت١٣٧١هـ)، حققه وأخرجه: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات بيروت - لبنان.

١٩- اقتصادنا، السيّد محمّد باقر الصدر (ت١٤٠٠هـ)، تحقيق: مكتب الإعلام الإسلامي - فرع خراسان، مؤسسة بوستان كتاب قم (مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي)، الطبعة الثانية١٤٢٥هـ - ١٣٨٢ش.

٢٠- الأمالي، أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي الملقب بالشيخ المفيد رحمه الله (ت٤١٣هـ)، تحقيق: الحسين أُستاذ ولي - علي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية قم المقدّسة١٤٠٣هـ النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير (ت٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمّد الطناحي، مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، قم - إيران، الطبعة الرابعة١٣٦٤ش.

٢١- الأمالي، أبي جعفر محمّد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية مؤسسة البعثة، دار الثقافة، قم، الطبعة الأولى١٤١٤هـ.

٢٢- الأمالي، الشيخ محمّد علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالصدوق (ت٣٨١هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية مؤسسة البعثة، دار الثقافة، قم، الطبعة الاولى١٤١٧هـ.

٢٣- الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، أسد حيدر، مكتبة الصدر طهران ناصر خسرو، الطبعة الرابعة١٤١٣هـ.

٢٤- الإمامة والتبصرة من الحيرة، الفقيه المحدث أبو الحسن علي بن الحسين ابن بابويه القمي والد الشيخ الصدوق (ت٣٢٩هـ)، تحقيق ونشر مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، قم المقدّسة، الطبعة الأولى١٤٠٤هـ - ١٣٦٣ش.

٢٥- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، العلّامة الفقيه المفسر آية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي.

٢٦- أنساب الأشراف، النسابة والمؤرخ الشهيد أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت٢٧٩هـ)، حققه وعلق عليه: الشيخ محمّد باقر المحمودي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٢٧- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، محمّد باقر المجلسي (ت١١١١هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت، الطبعة الثانية المصحّحة١٤٠٣هـ.

٢٨- بحوث في الملل والنحل، العلّامة الشيخ جعفر السبحاني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدّسة، الطبعة الرابعة١٤١٦هـ.

٢٩- بغية الراغبين، الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوي، الدار الإسلامية، بيروت - لبنان.

٣٠- تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون المغربي (ت٨٠٨هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة.

٣١- تاريخ الإسلام، شمس الدين أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ)، تحقيق: الدكتور عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي بيروت - لبنان، الطبعة الأولى١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣٢- التاريخ الصغير، أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محمود إبراهيم زايد، فهرس أحاديثه يوسف المرعشي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٣٣- تاريخ الفرق الإسلامية.

٣٤- تاريخ اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب ابن واضح اليعقوبي البغدادي (ت٢٩٢هـ)، علق عليه ووضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٣٥- تاريخ بغداد أو مدينة السلام، الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.

٣٦- تاريخ يحيى ابن معين، يحيى بن معين بن عون المري الغطفاني البغدادي (ت٢٣٣هـ)، رواية أبي الفضل العباس بن محمّد بن حاتم الدوري البغدادي (ت٢٧١هـ)، حققه وعلق عليه وقدم له ووضع فهارسه: عبد الله أحمد حسن بإشراف مكتب الدراسات الإسلامية لتحقيق التراث.

٣٧- التبيان في تفسير القرآن، شيخ الطائفة أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ)، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي،

مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى، شهر رمضان المبارك١٤٠٩هـ.

٣٨- تحف العقول عن آل الرسول صلّى الله عليهم، أبو محمّد الحسن بن علي ابن الحسين بن شعبة الحراني رحمه الله من أعلام القرن ا لرابع، عنى بتصحيحه والتعليق عليه: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي (التابعة لجماعة المدرسين) بقم المقدّسة - إيران، الطبعة الثانية١٣٦٣ش - ١٤٠٤هـ.

٣٩- تذكرة الحفاظ، شمس الدين أبو عبد الله محمّد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

٤٠- التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا، القرضاوي.

٤١- تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمّد طاهر المعروف بابن عاشور (من مصادر المؤلف).

٤٢- تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله ناصر آل سعدي (ت١٣٧٦هـ)، تحقيق: الدكتور محمّد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٤٣- تفسير العياشي، محمّد بن مسعود بن عياش (ت٣٢٠هـ)، تحقيق: سيّد هاشم الرسولي المحلاتي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران.

٤٤- تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار، رشيد رضا.

٤٥- التفسير المنير، الدكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى١٩٩١م.

٤٦- تفسير مجمع البيان، الفضل بن الحسن الطبرسي (ت٥٤٨هـ)، تحقيق

وتعليق: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الأولى١٤١٥هـ.

٤٧- التمحيص، الشيخ الثقة ا لجليل أبو علي محمّد بن همام الإسكافي من أصحاب سفراء الإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف (ت٣٣٦هـ)، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي عليه السلام قم المقدّسة.

٤٨- تهذيب الأحكام، أبو جعفر محمّد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ)، تحقيق: السيّد حسن الموسوي الخرسان، دار الكتب الإسلامية، طهران، الطبعة الثالثة١٣٦٤ش.

٤٩- التوحيد، الشيخ الجليل الأقدم الصدوق أبو جعفر محمّد علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت٣٨١هـ)، صححه وعلق عليه: المحقق البارع السيّد هاشم الحسيني الطهراني، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدّسة.

٥٠- جامع البيان، محمّد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، تحقيق وتقديم: الشيخ خليل الميس - ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٥١- جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمّد بن عبد البر النمري المعروف بابن عبد البر (ت٤٦٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت١٣٩٨هـ.

٥٢- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق: محمّد محمّد حسنين أعاد طبعه دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٥٣- الجرح والتعديل، عبد الرحمن بن أبي حاتم التميمي الحنظلي الرازي (ت٣٢٧هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.

٥٤- الحقائق في الجوامع والفوارق، الشيخ حبيب آل إبراهيم المهاجر العاملي، المؤسسة الإسلامية للنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى١٤١٧هـ - ١٩٨٧م.

٥٥- حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، باقر شريف القرشي.

٥٦- الخصال، الشيخ محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالصدوق (ت٣٨١هـ)، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرّفة١٤٠٣هـ.

٥٧- دراسات في الاختلافات الفقهية، الدكتور محمّد أبو الفتح، مكتبة الهدى، حلب١٩٧٥م.

٥٨- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، شهاب الدين أحمد بن علي المعروف بابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، ضبطه وصححه: الشيخ عبد الوارث محمّد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٥٩- الدعوة الإسلامية إلى وحدة أهل السنّة والإمامية.

٦٠- دعوة التقريب إلى المذاهب الإسلامية.

٦١- ذيل طبقات الحنابلة، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حسن بن رجب المعروف بابن رجب.

٦٢- رحلة ابن بطوطة المسمّاة تحفة النظّار في غرائب الأمصار، محمّد بن

عبد الله اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة، طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٦٣- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين السيّد محمود الألوسي البغدادي (ت١٢٧٠هـ).

٦٤- روضة المسائل في إثبات أصول الدين بالدلائل، الشيخ علي الخنيزي، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف.

٦٥- سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمّد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٦٦- السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، الدكتور محمّد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثامنة١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٦٧- السنّة والشيعة ضجة مفتعلة، الدكتور عز الدين إبراهيم، منظمة الإعلام الإسلامي، طهران١٤٠٤هـ.

٦٨- سنن ابن ماجة، الحافظ أبي عبد الله محمّد بن يزيد القزويني ابن ماجة (ت٢٧٥هـ)، حقق نصوصه، ورقم كتبه، وأبوابه، وأحاديثه، وعلق عليه: محمّد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٦٩- سنن أبي داود، الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت١٧٥هـ)، تحقيق وتعليق: سعيد محمّد اللحام، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٧٠- سنن الدارمي، أبو محمّد عبد الله بن الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي (ت٢٥٥هـ)، مطبعة الاعتدال، دمشق١٣٤٩هـ.

٧١- السنن الكبرى، إمام المحدثين الحافظ الجليل أبي بكر أحمد بن

الحسين ابن علي البيهقي (ت٤٥٨هـ)، دار الفكر.

٧٢- سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمّد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ)، تحقيق وإشراف وتخريج: شعيب الأرنؤوط - تحقيق: حسين الأسد، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة التاسعة١٤١٣ - ١٩٩٣م.

٧٣- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي ابن أحمد بن محمّد المعروف بابن عماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٧٤- شرح أخبار في فضائل الأئمّة الأطهار، القاضي أبي حنيفة النعمان بن محمّد التميمي المغربي (ت٣٦٣هـ)، تحقيق: السيّد محمّد الحسيني الجلالي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرّفة.

٧٥- شرح الأصول الخمسة، قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد، تعليق: أحمد ابن الحسين بن أبي هاشم، حققه وقدم له: الدكتور عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٧٦- شرح العلّامة الزرقاني (ت١١٢٢هـ)، على المواهب اللدنية بالمنح المحمّدية للعلّامة القسطلاني (ت٩٢٣هـ)، ضبطه وصححه محمّد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٧٧- شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد (ت٦٥٦هـ)، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م.

٧٨- الشفاء الروحي، عبد اللطيف البغدادي.

٧٩- شهر رمضان شهر البناء والتقدّم، السيّد محمّد الشيرازي، الطبعة الأولى١٩٩٥م.

٨٠- الشيعة في الميزان، محمّد جواد مغنية، دار الشروق بيروت، دار الشروق القاهرة.

٨١- الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، الدكتور يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٨٢- الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف، الدكتور يوسف القرضاوي، دار الصحوة ودار الوفاء، القاهرة - المنصورة، الطبعة الثانية١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٨٣- صحيح ابن حبّان بترتيب ابن بلبان، الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (ت٧٣٩هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب، الطبعة الثانية١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٨٤- صحيح البخاري، أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة ابن بردزبة البخاري الجعفي (ت٢٥٦هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع١٤٠١هـ - ١٩٨١، طبعة بالأوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة بإسطنبول.

٨٥- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج ابن مسلم القشيري النيشابوري (ت٢٦١هـ)، طبعة مصححة ومقابلة على عدّة مخطوطات ونسخ معتمدة، دار الفكر بيروت - لبنان.

٨٦- الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، أبو العباس

أحمد ابن محمّد بن محمّد بن علي ابن حجر الهيتمي (ت٩٧٣هـ)، تحقيق عبد الرحمن بن عبد الله التركي - كامل محمّد الخرّاط، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٨٧- طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكرافي السُّبكي (ت٧٧١هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٨٨- الطبقات الكبرى، محمّد بن سعد (ت ٢٣٠هـ)، دار صادر، بيروت.

٨٩- العروة الوثقى، السيّد محمّد كاظم الطباطبائي اليزدي(ت١٣٣٧هـ)، تحقيق وطبع: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرّفة، الطبعة الأولى١٤١٧هـ.

٩٠- العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية، محمّد أمين بن عمر بن عبد العزيز بن أحمد بن عبد الرحيم (ت١٢٥٢هـ)، المكتبة الشاملة.

٩١- عوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث الدينية، محمّد بن علي بن إبراهيم الأحسائي (ت ٨٨٠هـ)، تحقيق: الحاج مجتبى العراقي، مطبعة سيّد الشهداء قم، الطبعة الأولى١٤٠٥هـ.

٩٢- عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ)، تصحيح وتعليق: الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٤٠٤هـ.

٩٣- غرر الحكم، عبد الواحد الآمدي التميمي (ت في القرن ٥هـ)، تحقيق: الشيخ الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٩٤- الفصل في الملل والاهواء والنحل، أبو محمّد علي بن أحمد بن حزم

الظاهري المعروف بابن حزم (ت٤٥٩هـ)، دار الندوة الجديدة، بيروت – لبنان.

٩٥- الفصول المهمّة، الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوي، دار الزهراء، بيروت.

٩٦- فصول من السياسة الشرعية في الدعوة إلى الله، عبد الرحمن عبد الخالق.

٩٧- الفقه الإسلامي وأدلّته، الدكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثالثة١٩٨٩م.

٩٨- الفقه الإسلامي

٩٩- الفكر الإسلامي في تطوره، الدكتور محمّد البهي، دار الفكر، الطبعة الأولى١٩٧١م.

١٠٠- الفوائد المنتقاة والغرائب الحسان عن الشيوخ الكوفيين، الحافظ أبو علي محمّد بن علي الصوري (ت٤٤١هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى١٤٠٧هـ - ١٠٨٧م.

١٠١- قرب الإسناد، الشيخ أبو العباس عبد الله بن جعفر الحميري، من أعلام القرن الثالث الهجري، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، الطبعة الأولى١٤١٣هـ.

١٠٢- قصّة الديانات، سليمان مظهر، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثانية٢٠٠٢م.

١٠٣- الكافي، محمّد بن يعقوب الكليني (ت٣٢٩هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، الطبعة الخامسة سنة١٣٦٣ش.

١٠٤- كامل الزيارات، أبي القاسم جعفر بن محمّد بن قولويه القمّي

(ت٣٦٨هـ)، تحقيق: الشيخ جواد القيومي، مؤسسة نشر الفقاهة، قم، الطبعة الأولى١٤١٧هـ.

١٠٥- الكامل في التاريخ، عز الدين أبو الحسن علي بن أبو الكرم محمّد بن محمّد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير (ت٦٣٠هـ)، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

١٠٦- كتاب الثقات، الإمام الحافظ محمّد بن حبّان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي (ت٣٥٤ هـ - ٩٦٥م)، مؤسسة الكتب الثقافية، طبع بإعانة وزارة للحكومة العالية الهندية تحت مراقبة الدكتور محمّد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية الطبعة الأولى بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن - الهند١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

١٠٧- كتاب السنّة، الحافظ أبو بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني (ت٢٨٧هـ)، ومعه ظلال الجنّة في تخريج السنّة بقلم محمّد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

١٠٨- كتاب العلل ومعرفة الرجال، أحمد بن محمّد بن حنبل (ت١٦٤ هـ - ٢٤١)، تحقيق وتخريج: الدكتور وصي الله بن محمّد عباس، المكتب الإسلامي، بيروت، دار الخاني، الرياض، الطبعة الأولى١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٠٩- كتاب المحاسن، أبو جعفر أحمد بن محمّد بن خالد البرقي (ت٢٧٤هـ)، تصحيح وتعليق: السيّد جلال الدين الحسيني المشتهر بالمحدث، دار الكتب الإسلامية، طهران١٣٧٠هـ - ١٣٣٠ش.

١١٠- كتاب المكاسب، الشيخ الأعظم أستاذ الفقهاء والمجتهدين الشيخ مرتضى بن محمّد أمين الأنصاري (ت١٢٨١هـ)، إعداد لجنة تحقيق

تراثنا الشيخ الأعظم الأنصاري، مجمع الفكر الإسلامي، الطبعة الثالثة، ربيع الأول ١٤٢٠هـ.

١١١- كتاب سليم بن قيس الهلالي، التابعي الكبير سليم بن قيس الهلالي (ت٧٦هـ)، تحقيق: محمّد باقر الأنصاري الزنجاني.

١١٢- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت٥٣٨هـ)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر عباس ومحمّد محمود الحلبي وشركائهم - خلفاء، الطبعة الأخيرة١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.

١١٣- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة (ت١٠٦٧هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

١١٤- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري (ت٩٧٥هـ)، صححه ووضع فهارسه ومفتاحه الشيخ بكري حياني - الشيخ صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

١١٥- كنز الفوائد، أبو الفتح محمّد بن علي الكراجكي (ت٤٤٩هـ)، مكتبة المصطفوي، قم، الطبعة الثانية١٣٦٩ش، طبعة حجرية.

١١٦- لسان العرب، ابن منظور الأفريقي المصري (ت٧١١هـ)، نشر أدب الحوزة، قم، ١٤٠٥هـ.

١١٧- مؤتمر تكريم السيّد شرف الدين.

١١٨- مالا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين.

١١٩- المبادئ الشرعية والقانونية، المحامي صبحي محمصاني.

١٢٠- المثل العليا في الإسلام، الشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء.

١٢١- المجازات النبويّة، محمّد بن الحسين المعروف بالشريف الرضي (ت٤٠٦هـ)، بتحقيق وشرح: فضيلة الدكتور طه محمّد الزيني الأستاذ بالأزهر، منشورات مكتبة بصيرتي، قم.

١٢٢- مجلة التوحيد، العدد السابع، السنة الثانية ربيع الثاني١٤٠٤هـ.

١٢٣- مجلة العربي الكويتية، العدد٣٤٨.

١٢٤- مجلة المنهاج، العدد٣: السنة١، ١٩٩٦م.

١٢٥- مجلة رسالة الإسلام، مجمع البحوث الإسلامية للروضة الرضوية المقدّسة ومجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية، الطبعة الثانية١٤١١هـ - ١٩٩١م.

١٢٦- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت٨٠٧هـ)، بتحرير الحافظين الجليلين: العراقي وابن حجر، بيروت - لبنان ، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان١٤٠٨هـ.

١٢٧- مجموعة الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس المعروف بابن تيميّة (ت٧٢٨هـ).

١٢٨- المدخل للتشيع الإسلامي، الدكتور محمّد فاروق، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، الطبعة الثانية١٩٨١م.

١٢٩- المراجعات، الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوي، تحقيق وتعليق حسين الراضي، الطبعة الأولى في بغداد سنة١٣٩٩هـ، ترجم مع التتمة إلى اللغة الإنجليزية، الطبعة الثانية، بيروت١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

١٣٠- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري (ت٤٠٥هـ)، إشراف: يوسف عبد الرحمن المرعشلي.

١٣١- المستصفى في علم الأصول، أبو حامد محمّد بن محمّد بن محمّد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، طبعه وصححه محمّد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

١٣٢- مسند أبو يعلى الموصلي، الحافظ إسماعيل بن محمّد بن الفضل التميمي مسند أبي يعلى المولي الإمام الحافظ أحمد بن علي بن المثنى التميمي (ت٢١٠ - ٣٠٧هـ)، حققه وخرج أحاديثه حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث دمشق - بيروت.

١٣٣- مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ)، دار صادر، بيروت.

١٣٤- المسيحية، الدكتور أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة العاشرة١٩٩٣م.

١٣٥- مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار، الإمام الحافظ أبو حاتم محمّد بن حبّان بن أحمد التميمي البستي (ت٣٥٤هـ - ٩٦٥)، حققه ووثقه وعلق عليه: مرزوق علي إبراهيم، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، الطبعة الأولى١٤١١هـ - ١٩٩١م.

١٣٦- مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، أبو الفضل علي الطبرسي (ت في أوائل القرن٧هـ)، تحقيق مهدي هوشمند، دار الحديث، الطبعة الأولى١٤١٨هـ.

١٣٧- المصلح الإسلامي السيّد محسن الأمين.

١٣٨- المصنّف في الأحاديث والآثار، عبد الله بن أبي شيبة الكوفي (ت٢٣٥هـ)، تحقيق وتعليق: سعيد محمّد اللحام، دار الفكر، بيروت،

الطبعة الأولى١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

١٣٩- معاني الأخبار، الشيخ محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالصدوق (ت٣٨١هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرّفة١٣٧٩هـ.

١٤٠- المعجم الأوسط، الحافظ سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (ت٣٦٠هـ)، تحقيق: قسم التحقيق بدار الحرمين، دار الحرمين١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

١٤١- معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١٤٢- المعجم الصغير، الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (ت٣٦٠هـ)، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.

١٤٣- مكارم الأخلاق، رضي الدين أبو نصر الحسن بن الفضل الطبرسي (ت٥٤٨هـ)، منشورات الشريف الرضي، الطبعة السادسة١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

١٤٤- الملل والنحل، محمّد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت٥٤٨هـ)، تحقيق: محمّد سيّد گيلاني، دار المعرفة، بيروت.

١٤٥- منهاج السنّة النبويّة، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيميّة (ت٧٢٨هـ)، الدكتور محمّد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى١٤٠٦هـ.

١٤٦- منهاج السنّة النبويّة في نقض كلام الشيعة والقدرية، أبو العباس تقي

الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيميّة الحراني الدمشقي الحنبلي (ت٧٢٨هـ)، وضع حواشيه وخرّج آياته وأحاديته: عبد الله محمود محمّد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٤٧- منية المريد في أدب المفيد والمستفيد، زين الدين بن علي العاملي قدس سره المعروف بالشهيد الثاني (ت٩١١ - ٩٦٥هـ)، تحقيق رضا المختاري، مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٣٦٨هـ ش.

١٤٨- الموافقات في أصول الفقه، إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي الشاطبي، تحقيق عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت (المكتبة الشاملة).

١٤٩- المواقف، القاضي عبد الرحمن بن أحمد الإيجي (ت٧٥٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، لبنان - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

١٥٠- مواهب الرحمن في تفسير القرآن، السيّد عبد الأعلى السبزواري (ت١٣١٤هـ)، دار التفسير، قم - إيران، الطبعة الثانية ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

١٥١- موسوعة الفلسفة، الدكتور عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٤م.

١٥٢- الميزان في تفسير القرآن، السيّد محمّد حسين الطباطبائي (ت١٤١٢هـ)، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدّسة.

١٥٣- نظرات في الكتب الخالدة، الدكتور حامد حفني داود أستاذ كرسي الأدب العربي ورئيس قسم اللغة العربية بجامعة عين شمس، القاهرة

وأستاذ الأدب العباسي بجامعة الجزائر حالياً، راجعه وعلق عليه السيّد مرتضى الرضوي مؤلف كتاب مع رجال الفكر في القاهرة، دار المعلم للطباعة القاهرة، الطبعة الأولى١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١٥٤- نهج البلاغة، ما اختاره الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، شرح: محمّد عبده، دار الذخائر، قم، المصوّرة على طبعة دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى١٤١٢هـ.

١٥٥- هذه هي الوهابية، محمّد جواد مغنية(ت١٤٠٠هـ).

١٥٦- الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ)، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

١٥٧- وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمّد بن الحسن الحرّ العاملي (ت١١٠٤هـ)، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، الطبعة الثانية١٤١٤هـ.

١٥٨- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس أحمد بن محمّد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان (ت٦٨١هـ)، حقق أصوله وكتب هوامشه: الدكتور يوسف علي طويل والدكتورة مريم قاسم طويل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

١٥٩- اليهودية، الدكتور أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية عشر١٩٩٧م.

فهرس المواضيع

مقدّمة المركز ٥
الإهداء ٧
المقدّمة ٩
تمهيد ١١
الاعتصام أساس الوحدة ١٢
الوحدة لا تعني الإلغاء ١٢
هكذا نحقّق الوحدة ١٥
صفاء الروح والقلب ١٦
الباب الأوّل مشروعية الإسلام للوحدة ١٩
مسؤولية الوحدة ٢١
دور العلماء ٢١
الوحدة منطلق الوحدة ٢٣
الوحدة تحدّي ٢٦
الوحدة الإسلامية والعوامل المضادّة ٢٦
فهم السّنن منفعة للحاضر وهدى للمستقبل ٢٦
العوامل الأساسية للوحدة ٢٨
اغتيال الشخصيات ٢٩
عوامل بقاء الصراع ٣١
ممارسة الإصلاح ٣٢
التفرّق في الدّين عقبة الوحدة ٣٣

طبيعة عدوانية ٣٥
الإيمان جوهرة عظمى ٣٦
الإعداد لتحقيق الوحدة ٣٧
الاستقامة أداة الوحدة ٣٨
عقبات في الطريق ٣٩
هكذا نعالج عقبات الوحدة ٤١
الانتفاع من القرآن ٤١
الوحدة قضيّة مركزيّة ٤٣
مسؤولية العلماء في إقرار الوحدة ٤٣
مسؤوليتنا كبيرة ٤٥
الباب الثاني واقع الاختلاف في حياة البشر ٤٧
تمهيد ٤٩
حديث عن الوحدة ٥١
المقاطعة والهجرة ٦١
مساوئ الاختلاف والفرقة ٦٢
حرّية العقيدة ٧٣
حرّية الفكر ٧٤
التسامح واحترام الرأي ٧٦
التعصّب واحتكار الحق ٨٠
مآسي الإرهاب الفكري ٨١
الوحدة والإرهاب الفكري ٨٢
تعدّد المذاهب في الديّانات ٨٨
فرق اليهودية ٨٩
طوائف المسيحية ٩٠
اتجاهات البوذية ٩٢

سائر الديانات والاتجاهات ٩٤
المذاهب الإسلامية ٩٦
عوامل وأسباب ٩٩
العلاقة بين المذاهب ١١١
المذاهب الإسلامية / أصول مشتركة ١١٤
لا.. للتكفير ١٢٥
الخوارج أوّل من ابتدع التكفير ١٣١
محنة خلق القرآن ١٣٥
المتعصّبون يشهّرون سلاح التكفير ١٣٨
خطورة التكفير ١٤٠
التعصب والإرهاب الطائفي ١٤٧
نحو انفتاح فكري ١٥٤
الباب الثالث أصالة الوحدة ١٦٧
تمهيد ١٦٩
دور العلماء ١٧٢
نشأة الاختلاف في الأُمم السابقة ١٧٣
إذا اختلف علماء الدين ١٧٧
استغلال الدين ١٧٧
طمس الحقائق الدينية وتحريفها ١٧٨
إضعاف المصداقية والثقة في الدين وعلمائه ١٨٢
عمق الخلاف وانتشاره ١٨٤
الانشغال بالخلافات ١٨٥
الاختلاف العلمي ١٨٦
ظاهرة الاختلاف العلمي ١٩٢
إيجابيات الاختلاف العلمي ١٩٣

شرعية الخيار الآخر ١٩٧
اختلاف المصالح والأهواء ٢٠٠
نماذج يذكرها القرآن ٢٠٢
تحذيرات من السنّة ٢٠٥
الاختلاف العلمي أخلاقيات ومبادئ ٢١١
الاعتراف بحق الاختلاف ووجود الرأي الآخر ٢١٢
الانفتاح على الرأي الآخر..... ٢١٧
ملحوظة في كتاب ٢١٩
معطيات الحوار مع الآخر ٢٢٢
الموضوعية وترك التعصّب ٢٢٣
الاختلاف في القضايا الثانوية ٢٢٦
التزام الآداب واحترام الحقوق ٢٢٩
مواقع الاتفاق ومساحات الالتقاء ٢٣٥
الباب الرابع نصوص من الفكر الإصلاحي حول الوحدة الإسلامية..... ٢٤١
السيّد محسن الأمين ٢٤٣
دعوته الإصلاحية للوحدة والتآلف ٢٤٣
إنماء التعليم من منطلق الوحدة ٢٤٥
قانون الطوائف في عهد الانتداب الفرنسي ٢٤٧
في عهد الاستقلال ٢٤٨
منهجيته في الوحدة والتآلف ٢٤٩
الشيخ كاشف الغطاء ٢٥١
منهجيته في الوحدة ٢٥٣
أخلاقيات الوحدة ٢٥٦
نصف قرن من الدعوة إلى الوحدة..... ٢٥٧
السيّد عبد الحسين شرف الدين ٢٦٠

في لبنان رفض الطائفية ٢٦١
التضامن مع المسيحيين..... ٢٦٢
في القاهرة الحوار الإسلامي - الإسلامي ٢٦٣
أجوبة مسائل جار الله..... ٢٦٥
الفصول المهمة في تأليف الأُمّة ٢٦٦
منهجية شرف الدين في الوحدة ٢٦٨
من مكوّنات ومعالم هذه المنهجية ٢٦٨
الرأي الآخر. ٢٦٨
حاكمية الدليل ٢٦٩
المحتوى الحضاري للوحدة..... ٢٦٩
الشيخ علي أبو الحسن الخنيزي ٢٧١
معالم من منهجه في الوحدة الإسلامية..... ٢٧٣
من معالم هذه المنهجية ٢٧٣
قصّة التقريب ٢٧٥
الشيعة والوحدة الإسلامية السيّد محمّد حسين ٢٨٩
ماذا عن الشيعة. والوحدة؟ ٢٩٨
الوفاق والوحدة ضرورة من ضرورات الإسلام الشيخ محمّد مهدي شمـ.... ٣٠٤
أسس التقريب وسبله الشيخ محمّد واعظ ٣١١
أما سبل التقريب..... ٣١٦
أولاً: في مجال القرآن والتفسير ٣١٦
ثانياً: في مجال الروايات والأحاديث..... ٣١٧
ثالثاً: في مجال الرجال والتراجم..... ٣١٧
رابعاً: في مجال الكتب والمؤلفين ٣١٨
خامساً: في مجال الكلام والمناظرة..... ٣١٩
سادساً: في مجال الفقه والاجتهاد ٣٢١

سابعاً: في مجال أهل البيت وسلالة السادات ٣٢٢
ثامناً: في مجال الصحابة والتابعين ٣٢٤
تاسعاً: في مجال السياسة والحكومة ٣٢٥
عاشراً: في مجال الثقافة والتراث ٣٢٧
فهرست المصادر ٣٢٩
فهرس المواضيع ٣٤٩

- عبد القادر أحمد حسن الإدريسي
- ولد عام ١٩٦٩م في (الجزيرة أبا) بالسودان.
- ترعرع في أسرة محافظة تنتمي الى التصوف على الطريقة التيجانية.
- استبصر عام ١٩٨٧م وذلك بعدما ساعده أخوه على التعرّف بمذهب أهل البيت عليهم السلام
- حاصل على شهادة (دبلوم عالي) من معهد المعلمين في السودان.
- التحق بالحوزة العلمية في السيدة زينب بدمشق في سوريا منذ سنة ١٩٩٦م وبلغ الى مرحلة البحث الخارج خلال مدة عشر سنين، ثم عاد الى السودان.
- من نشاطاته:
  - كاتب صحفي في جريدة (آخر لحظة) السودانية ومتعاون في الملف الثقافي.
  - شاعر وروائي يكتب القصة القصيرة والرواية.
  - عضو إتحاد الكتّاب والأدباء السودانيين (الخرطوم).

مركز الأبحاث العقائدية